الرجل البطيء

ج. م. كوتسي

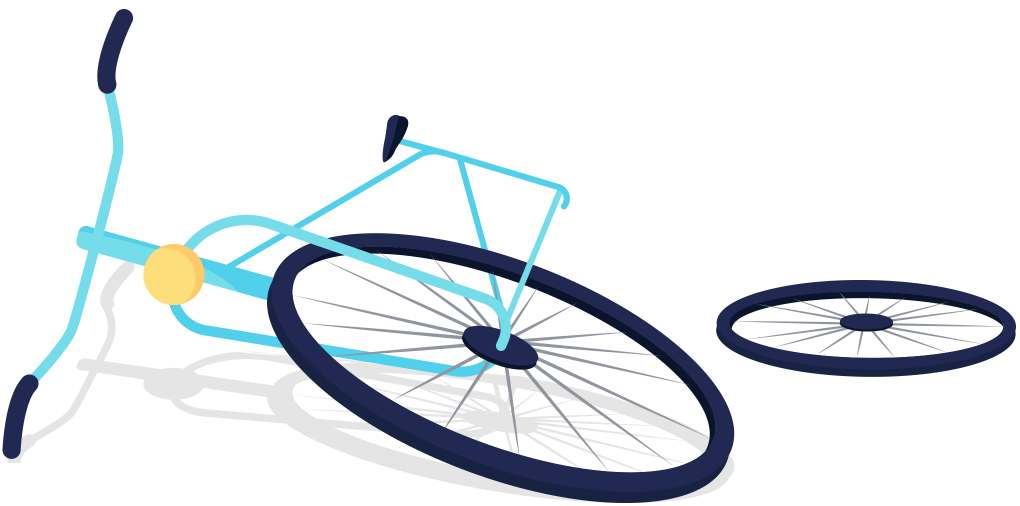

ترجمة عبد المقصود عبد الكريم

الرجل البطيء

تأليف
ج. م. كوتسي

ترجمة
عبد المقصود عبد الكريم

هنـــداوي

الرجل البطيء

ج. م. كوتسي

Slow Man

John Maxwell Coetzee

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٦١ ٤

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٥.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور عبد المقصود عبد الكريم.

المحتويات

المقدمة	٧
١	١٧
٢	١٩
٣	٣١
٤	٣٥
٥	٤٣
٦	٤٧
٧	٥١
٨	٥٧
٩	٦٥
١٠	٧٣
١١	٧٧
١٢	٧٩
١٣	٨٣
١٤	٩١
١٥	١٠١
١٦	١١١
١٧	١٢١
١٨	١٢٥
١٩	١٣٣

٢٠	١٣٩
٢١	١٤٩
٢٢	١٥٣
٢٣	١٥٩
٢٤	١٦٥
٢٥	١٧١
٢٦	١٨٣
٢٧	١٩٣
٢٨	٢٠١
٢٩	٢١١
٣٠	٢٢١

المقدمة

I

جون مكسويل كوتسي John Maxwell Coetzee، أو ج. م. كوتسي J. M. Coetzee: روائي وناقد وأكاديمي من جنوب أفريقيا، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ٢٠٠٣م ليكون رابع أديب أفريقي يفوز بالجائزة بعد النيجيري وول سونيكا (١٩٨٦م)، والمصري نجيب محفوظ (١٩٨٨م)، والجنوب أفريقي نادين جرديمير (١٩٩١م).

وُلِد كوتسي في التاسع من فبراير ١٩٤٠م، في كيب تاون حيث قضى معظم حياتِه المبكِّرة، ينحدر من أسرة هولندية استقَرَّت في جنوب أفريقيا في القرن السابع عشر، كانت أُمُّه مُعلِّمة في مدرسة ابتدائية. وتدرب أبوه في المحاماة، لكنه لم يزاول المهنة إلا بشكل متقطِّع؛ خَدمَ في قوات جنوب أفريقيا في شمال أفريقيا وإيطاليا (١٩٤١–١٩٤٥م). ومع أن أبويه ليسا مِنْ أصول بريطانية؛ إلا أن الإنجليزية كانت لغة الحديث في البيت مع والديه، وكانت الأفريكانية لغة الحديث مع أقربائه الآخرين، يُصوِّر كوتسي نفسه، في سيرته الذاتية المكتوبة بشكل روائي، الصبا (١٩٩٧م)، ولدًا عليلًا مُولَعًا بالكتب، ويُعبِّر عن إعجابه بأمه التي تعشق الحرية، تَقُولُ: لَنْ أكُونَ سجينة في هذا البيتِ. سَأكُونُ حرَّة.

التحق بكليَّة القديس يوسف، وهي مدرسة كاثوليكية في إحدى ضواحي كيب تاون، ثم التحق (١٩٥٧م) بجامعة كيب تاون؛ حيث درس الرياضيات واللغة الإنجليزية، حصل على بكالوريوس الآداب بمرتبة الشرف في اللغة الإنجليزية (١٩٦٠م)، وبكالوريوس الآداب بمرتبة الشرف في الرياضيات (١٩٦١م). وبعد التخرج انتقل إلى إنجلترا؛ حيث عمل مبرمج كمبيوتر (١٩٦٢-١٩٦٣م) في لندن، وكان يُعِد في الوقت ذاته بحثًا لرسالة عن الروائي الإنجليزيِ فورد مَدُكس فورد. وفي ١٩٦٣م حصل على ماجستير في الآداب؛ وقد سجل تجاربه هناك في الشباب (٢٠٠٢م)، المجلد الثاني من السيرة المَكتوبة بشكل روائي.

تَزوَّج كوتسي في ١٩٦٣م من فيليبا جوبير (١٩٣٩–١٩٩١م). رُزِقا بطفلين، نيكولاس (١٩٦٦–١٩٨٩م) وجيسلا (وُلِدَت عام ١٩٦٨م). مات ابنه في الثالثة والعشرين إثر سقوطه بشكل غامض من شُرفة عالية. ويستعرض كوتسي الحدث في روايته، سيد بطرسبرج (١٩٩٤م). وتَوقَّع أصدقاؤه انفصاله عن زوجته قبل الطلاق، ووصَفَه كثير منهم بأنه رجل انطوائي مُنعزِل. وتأكَّدَت هذه السِّمة حين لم يسافر إلى لندن لاستلام جائزة بوكر (١٩٨٤م) عن روايته حياة مايكل ك وأوقاته، أو حين حَظِي بهذا الشرف مرة أخرى (١٩٩٩م) عن رواية العار، وهو المؤلف الوحيد الذي حصل على الجائزة مرتين.

حصل كوتسي عام ١٩٦٩م على دكتوراه الفلسفة في اللسانيات من جامعة تكساس في أوستن، وكانت أطروحته عن التحليل الأسلوبي بالكمبيوتر لأعمال صموئيل بيكيت. بعد أن تَرك تكساس قام بتدريس الإنجليزية والأدب في جامعة ولاية نيويورك في بفلو (١٩٦٨–١٩٧١م). وفي بفلو بدأ كتابه الأول الأراضي المُعْتِمة (١٩٧٤م) ويضم روايتين قصيرتين مترابطتين، واحدة عن أمريكا وفيتنام، والأخرى؛ قصة جاكوبوس كوتسي، تدور أحداثها في ستينيات القرن الثامن عشر، حاول كوتسي في ١٩٧١م الحصول على إقامة دائمة في الولايات المتَّحدةِ، ورُفِض طلبه لمشاركته في احتجاجاتٍ ضد حرب فيتنام. فعادَ إلى جنوب أفريقيا حيث شغل مِنْ ١٩٧٢ حتى ٢٠٠٠م سلسلة من المراكز في جامعةِ كيب تاون، آخرها أستاذًا فخريًّا في الأدب. وفي ١٩٨٤ و١٩٨٦م عَبَر البحار مرة أخرى ليعمل أستاذًا في جامعة ولاية نيويورك في بفلو. بين عام ١٩٨٤م وعام ٢٠٠٣م قام بالتدريس كثيرًا في الولايات المتَّحدةِ، في جامعة ولاية نيويورك، وجامعة جون هوبكنز، وجامعة هارفارد، وجامعة ستانفورد، وجامعة شيكاغو، وكان على مدار ست سَنَوات عضوًا في لجنة الفكرِ الاجتماعي، وبعد أن أُحِيل إلى التَّقاعُد في ٢٠٠٢م، انتقلَ كوتسي إلى مدينة أدليد في جنوب أستراليا؛ حيث عمل باحثًا فخريًّا في قسمِ اللغة الإنجليزية في جامعةِ أدليد، حيث تعمل رفيقته، دوروثي دريفر. وقال في مقابلة: إنَّ مغادرة البلاد تشبه، من بعض النواحي، انهيار الزواج، إنها مسألة عميقة.

في ٦ مارس ٢٠٠٦م حصل كوتسي على الجنسية الأسترالية وصار مواطنًا أستراليًّا في مراسم تَرأَّسَها وزير الهجرة الأسترالي أماندا فانستون، وبعد المراسم قال كوتسي: شدتني روح الناس، الروح الحرة العظيمة، وجمال الأرض وعندما رَأيتُ أدليد أول مرة، شدتني بنعمةِ المدينةِ التي أتشرفُ الآن بأن أدعوها وطني.

كَتبَ ريان مَلَن عن كوتسي: إنه رجل منضبط ومتفانٍ في عمله بشكل رهباني تقريبًا. لا يَشْربُ، ولا يُدخِّنُ ولا يَأْكلُ لحومًا، يَرْكبُ درَّاجة مسافات طويلة للحفاظ على لياقته، ويَقضي ساعة على الأقل على طاولةِ الكِتابة كُلَّ صباح، سبعة أيامٍ في الأسبوع. ويدَّعي زميل عَملَ مَعه لأكثر من عقد أنه لم يره يَضْحكُ إلا مرَّة واحدة فقط. حَضر شخص أعرفه عِدَّة حفلات عشاء لم يَنطِقْ كوتسي فيها بكلمة. ومع ذلك انتشرت كُتُبه في كل أنحاء العالم.

بَدأَ كوتسي كِتابَة القصةِ في ١٩٦٩م. ونشر كتابه الأول، الأراضي المُعْتِمة، في جنوب أفريقيا في ١٩٧٤م. فاز في قلبِ البلادِ (١٩٧٧م) بجائزة أدبية رئيسية في جنوب أفريقيا، جائزة سي إن أيه، ونُشِرَ في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وحظي «في انتِظار البرابرة» (١٩٨٠م) باهتمام عالمي. وتأكَّدَت شهرته مع حياةِ مايكل كْ. وأوقاته (١٩٨٣م)؛ حيث حصل على جائزة بوكر البريطانية. ثم توالت أعماله: فو (١٩٨٦م)، عصر الحديدِ (١٩٩٠م)، سيد بطرسبرج (١٩٩٤م)، والعار (١٩٩٩م)، وهو العمل الذي فاز بجائزة بوكر.

لا يُمْكن تصنيف أعمال كوتسي في إطار أحد التيارات الثقافية لِمَا بعد الحداثة. تَكْشفُ مقالاتُه عن اهتمام باللسانيات والنحو التوليدي والأسلوبية والبنيوية والسيميوطيقا والتفكيك، وترتكز معضلات رواياتِه على واقع جنوب أفريقيا، لكنه قدَّمَ غالبًا بلا زمن في شكل سرد السرد metafictional متعدد المعنى. فَحصَ كوتسي تقاليد البلاسرومان plasroman في جنوب أفريقيا، أَو رواية المزرعة في «في قلبِ البلاد» (١٩٧٧م)، حيث الشخصية المركزية ابنة راعٍ متمردة، وتعاني من حرمان جنسي. تتساءل مشاهد التعذيبِ المكتوبة بشكل هادئ في «في انتِظار البرابرة» (١٩٨٠م) عن طبيعة المشاهدة voyeuristic في القصة. يشير عنوان الروايةِ إلى قصيدة لقسطنطين كفافي: والآن، ماذا سَيَحْدث لنا بدون/البرابرة؟/كان هؤلاء الناس نوعًا مِنَ الحَلِّ.

في حياة مايكل ك وأوقاته (١٩٨٣م) يشبه بطل القصَّة شخصيات فرانز كافكا، الذين لا يَكتشفونَ معنى معاناتهم أبدًا. مثل ضحية المقصلة في القِصَّة القصيرةِ «في دير سترافكولوني» (١٩١٩م)، يَنتهي مايكل ك في النهاية في أحد معسكرات الاعتقال. كَتبتْ سينثيا أوزيك عن الكتاب: إنه رثاء مستر كوتسي الهادئ المُتعجِّل لأحزان جنوب أفريقيا التي جَعلتْ من أبنائها، السود والبيض، أتباعًا ومُتطفِّلِين وسجناء.

تتداخل فو (١٩٨٦م) مع الرواية الكلاسيكية روبنسن كروزو. في القصَّة امرأة، سوزان بَرتُن، تعيش في الجزيرة مع روبنسن كروزو وفرايداي. «أُتْرَك. وحيدة»، تقول ولا تحظى بأي عطف مِنْ كروزو، المستَبدِّ القاسي في إمبراطوريتِه الصغيرة. بعد إنقاذهم، تُقابِل سوزان فو دانيال وتُصبحُ إلهامَه، الذي يَنْساه. يبقى فرايداي صامتًا، يُقْطَعُ لسانه، ولا يسمح له أبدًا بسرد حكايته.

البطل في سيدِ بطرسبرج (١٩٩٤م) هو الكاتب الروسي الشهير، فيودور دوستويفسكي، الذي يُحاولُ فَهْم موتِ ابنِ زوجته، بافل أليكسندروفتش إيزايف. وفي حُزنِه يَأْخذُ دورَ أورفيوس: «يُفكِّر في أورفيوس يسير للخلف خطوة فخطوة، يَهْمسُ اسمَ المرأةِ الميتةِ، يُخرجها من أحشاءِ الجحيمِ؛ والزوجة في الكفنِ وعيونها العمياء الميتة تتبعه، يمُدُّ أمامها يدين هزيلتين مثل رجل يمشي نائمًا. لا ناي ولا قيثارة، الكلمة فقط، الكلمة الواحدة، مرارًا وتكرارًا.» ولا ننسى أن كوتسي نفسه فَقَد ابنَه في حادثة غامضة. قبل كتابة عصر الحديدِ (١٩٩٠م) عَانى كوتسي أيضًا مِنْ مأساة شخصية؛ ماتت زوجته السابقة بالسرطان.

مع الصبا: مشاهد مِنَ الحياةِ الإقليميةِ (١٩٩٧م) بَدأتْ سلسلة كوتسي المتعلِّقة بالسيرة والمكتوبة بشكل روائي، واستمرَّت في الشباب: مشاهد مِنَ الحياةِ الإقليميةِ (٢٠٠٢م) II. والعملان مكتوبان بضمير الغائب. كَتبَ وليام دريسيويتش في النيويورك تايمز (٧ يوليو، ٢٠٠٢م): لَيست الصبا والشباب، مع ذلك، سجلًّا موضوعيًّا مِنْ حياةِ كوتسي الشاب.

في إليزابيث كُسْتِلُّو: ثمانية دروس (٢٠٠٣م)، ابتكر كوتسي أناه النسائية المُغايِرة، كاتبة مشهورة، تُسافرُ في جميع أنحاء العالم وتُقدِّم أحاديث ومحاضرات أكاديمية. تُناقشُ قصَّة قرد كافكا في الولايات المتَّحدةِ وتحللها «تقرير إلى الأكاديمية» (درس ١)، في إنجلترا في كليَّةِ أبليتون الخيالية رسمت توازيًا بين غرفِ الغاز وتربية الحيواناتِ للذبحِ (درس ٣)، وفي أمستردام كان موضوعها مشكلة الشرِّ (درس ٦). استخدم كوتسي محاضراته الأكاديمية الخاصة كمادة، لكنه في الوقت نفسه يَعرِّي الأسلوب الثقافي في حياة كُسْتِلُّو، برغم حججِها الجديدة والمغرية دائمًا، نتيجة كُلِّ تنظيرها إلا أنها تُشْبِه أكثر فأكثر نسخة من كبير أساقفة كافكا، الذي تتعارض ميوله الأساسية وأفكاره الأخلاقية مع العالم الواقعي.

نال كوتسي العديد مِن الجوائزِ. فازت رواية **في انتظار البرابرة** بجائزة جيمس تايت السوداء التذكارية في ١٩٨٠م، وفاز ثلاث مرات بجائزةِ سي إن إيه. وفازت رواية **عصر**

الحديد بالجائزة السنوية للصنداي إكسبريس، وفازت سيد بطرسبرج بجائزة التايمز الأيرلندية الدولية في ١٩٩٥م، ونال أيضًا جائزةَ فيمنا الفرنسية، وجائزة فيبر التذكارية، وجائزة الكومنولث الأدبية، وفي ١٩٨٧م نال جائزةَ القدس للأدب المكتوب عن حريةِ الفردِ في المجتمعِ.

وكَانَ أول مؤلِّف يفوز بجائزة بوكر مرَّتين: الأولى عن حياة مايكل ك وأوقاته في ١٩٨٣م، والثانية عن العار في ١٩٩٩م.

وفي الثاني من أكتوبر ٢٠٠٣م أعلن حصوله على جائزة نوبلِ في الأدبِ، ليكون رابع كاتب أفريقي يحظى بهذا الشرف، وثاني كاتب من جنوب أفريقيا (بعد نادين جُرديمر). وقد جرت مراسم استلام الجائزة في استوكهلم في العاشر من ديسمبر ٢٠٠٣م.

وقد منحته حكومة جنوب أفريقيا وسام مبنجوبوي في ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٥م؛ نظرًا لمساهمته الاستثنائية في مجال الأدبِ ووَضْع جنوب أفريقيا على المسرح العالمي.

(١) أهم الأعمال

الأعمال القصصية

- الأراضي المعتمة Dusklands (١٩٧٤م).
- في قلبِ البلادِ In the Heart of the Country (١٩٧٧).
- في انتظار البرابرة Waiting for the Barbarians (١٩٨٠).
- حياة مايكل ك وأوقاته Life and Times of Michael K (١٩٨٣م).
- فو Foe (١٩٨٦م).
- عصر الحديدِ Age of Iron (١٩٩٠م).
- سيد بطرسبرج The Master of Petersburg (١٩٩٤م).
- العار Disgrace (١٩٩٩م).
- إليزابيث كُسْتِلُّو: ثمانية دروس Elizabeth Costello: Eight Lessons (٢٠٠٣م).
- الرجل البطيء Slow Man (٢٠٠٥م).

أعمال السيرة

- الصبا: مشاهد مِن الحياةِ الإقليمية: Boyhood I Scenes from Provincial Life I (١٩٩٨م).

- الشباب: مشاهد مِن الحياةِ الإقليمية Youth: II Scenes from Provincial Life II (٢٠٠٢م).

أعمال أخرى

- الكتابة البيضاء: عن ثقافةِ الرسائلِ في جنوب أفريقيا White Writing: On the Culture of Letters in South Africa (١٩٩٨م).
- مضاعفة النقطةِ: المقالات والمقابلات Doubling the Point: Essays and Interviews (١٩٩٢م).
- تقديم الإساءة: مقالات على الرقابة Giving Offense: Essays on Censorship (١٩٩٧م).
- حياة الحيوانات The Lives of Animals (١٩٩٩م).
- الشواطئ الأغرب: المقالات الأدبية، (١٩٨٦–١٩٩٩م) Stranger Shores: Literary Essays, (1986–1999) (٢٠٠٢م).
- الأعمال الداخلية: مقالات أدبية، (٢٠٠٠–٢٠٠٥م) Inner Workings: Literary Essays, (2000–2005) (٢٠٠٧م).

ترجمة

منظر طبيعي مَع المُجدِّفين: من الشعر الهولندي (٢٠٠٤م) Landscape with Rowers: Poetry from the Netherlands.

«المعلومات الواردة في الفقرة I مترجمة عن موقع الويكيبيديا، وموقع جائزة نوبل بشكل أساسي، بالإضافة إلى بعض المواقع الأخرى على شبكة المعلومات الدولية.» (المترجم)

II

تدور أحداث الرواية عام ٢٠٠٠م في أستراليا، في الجنوب، وبالتحديد في مدينة أدليد Adelaid، عاصمة ولاية جنوب أستراليا، وخامس أكبر المدن الأسترالية، المدينة التي اختار كوتسي العيش فيها بعد هجرته إلى أستراليا. وباستثناء الحادثة على طريق مَجيل Magill Road والإقامة في المستشفى لبعض الوقت وجلستين على شاطئ نهر تورنس

River Torrens، الذي ينبع من هضاب أدليد ويجري باتجاه الغرب، وزيارة خاطفة إلى منو بارا Munno Para، حيث تسكن ماريانا، على أطراف مدينة أدليد، وزيارة أخرى خاطفة إلى المكتبة، وزيارة ثالثة إلى رندل مول Rundle Mall، باستثناء ذلك تدور معظم الأحداث في شقة بول ريمنت، بطل الرواية، في ممر كنستون Coniston Terrace. وحيث إن الرواية تدور في أستراليا، تأتي الرواية على ذكر أماكن أخرى في أستراليا من أهمها:

ملبورن Melbourne: عاصمة ولاية فيكتوريا، وثاني أكبر المدن الأسترالية، وفيها منزل إليزابيث كُسْتِلُّو.

بلارات Ballarat: ثاني أكبر المدن في ولاية فيكتوريا، حيث قضى البطل فترة من طفولته مع أخته وأمه وزوجها الهولندي.

كنبرا Canberra: مدينة أسترالية تقع جنوب غرب سدني.

جمرتشا Gumeracha: منطقة في جنوب أستراليا.

أنلي Unley: ضاحية من ضواحي أدليد.

نورثكوت Northcote: ضاحية من ضواحي ملبورن.

وادي الباروسا Barossa: منطقة في جنوب أستراليا، على بعد ٦٠كم شمال شرق أدليد، مشهورة بإنتاج النبيذ.

برسبان Brisbane: مدينة وميناء في شرق أستراليا.

وحيث إن أستراليا بلد تضم خليطًا من السكان المُنحدِرين من أصول متفرقة، تأتي الرواية على ذِكْر أماكن كثيرة في مختلف أنحاء العالم، وخاصة في أوروبا، الموطن الأصلي لشخصيات الرواية. ومن أهمها:

لردز Lourdes: بلدة تقع في جبال البرانس الفرنسية. حيث ينحدر بطل الرواية.

جبال البرانس Pyrenees: جبال تقع في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا.

تولوز Toulouse: مدينة في جنوب غرب فرنسا.

سان جيرو Saint-Girons: اسم أو جزء من اسم لعدة أماكن في فرنسا.

تراسكو Tarcscon: بلدة في جنوب فرنسا.

أوست Oust: نهر في شمال غرب فرنسا.

ميلو Milo: جزيرة يونانية، بها تمثال لفينوس مقطوع الذراعين.

إليريا Ellyria: مدينة شمال شرق أوهايو.

ساحل دلماشيا Dalmatian Coast: منطقة تقع غرب يوغسلافيا على الأدرياتيك.

دبروفنيك Dubrovnik: مدينة وميناء في كرواتيا.

زدار Zadar: مدينة وميناء في كرواتيا.

هلفرسيوم Hilversum: بلدة في شمال هولندا.

تمبوكتو Timbuctoo: بلدة في غرب أفريقيا، في مالي قرب نهر النيجر.

ملدفيا Moldavia: منطقة في شمال شرق رومانيا.

بوهيميا Bohemia: منطقة تاريخية تقع في وسط أوروبا، تحتل المنطقة الغربية والمنطقة الوسطى من جمهورية التشيك.

كيري Kerry: بلدة في مونستر في جنوب غرب أيرلندا.

كرنو Kernow: بلدة في جنوب غرب إنجلترا.

كرنثيا Carinthia: منطقة في شمال سلوفينيا.

III

شخصيات الرواية

بول ريمنت Paul Rayment: مصور سابق، من أصول فرنسية. هاجر إلى أستراليا في طفولته.

إليزابيث كُسْتِلُّو Elizabeth Costello: كاتبة، من أصول أيرلندية.

ماريانا يوكتش Marijana Jokic: ممرضة من كرواتيا. تتكلم إنجليزية مليئة بالأخطاء.

ميروسلاف يوكتش Miroslav Jokic: زوج ماريانا.

دراجو Drago: ابن ماريانا، البكر.

بلنكا Blanka: ابنة ماريانا، الوسطى.

ليوبا (أو ليوبكا) Ljuba (Ljubica): ابنة ماريانا، الصغرى.

مارينَّا Marianna: امرأة كفيفة.

مارجريت مكورد Margaret McCord: صديقة بول ريمنت.

هَنْسِن Hansen: جرَّاح.

شينا Sheena: ممرضة.

مسز بوتس (أو بوتز) Mrs Putts (Putz): أخصائية اجتماعية.

واين بلايت (أو برايت) Wayen Blight (Bright).

مادلين مارتن Madeleine Matin.

بعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم في الرواية

جون كلير John Clare: شاعر إنجليزي (١٧٩٣–١٨٦٤م).

بلي بُنْتر Billy Bunter: شخصية ابتكرها تشارلز هاملتون (١٩٦١–١٩٧٦م).

فوشي Antoine Fauchery (١٨٦١–١٩٢٣م): مصور وكاتب فرنسي، استقر في أستراليا عام ١٨٥٧م.

سان بول St Paul: القديس بولس أو بولس الرسول (٤–٦٤م) أكبر المبشرين بالمسيحية.

دليب Delibes (١٨٣٥–١٨٩١م): موسيقار فرنسي.

فوريه Faure (١٩٢٩–١٩٥٤م): موسيقار فرنسي.

الملكة ولهلمينا Queen Wilhelmina (١٨٨٠–١٩٦١م): ملكة هولندا من ١٨٩٠ حتى ١٩٤٨م.

إيما روو Emma Rouault: أو الآنسة إيما روو هي إيما بوفاري أو مدام بوفاري بطلة الرواية الشهيرة.

ألنسو Alonso: ألنسو كيخانو الاسم الأصلي لبطل رواية دون كيخوت قبل أن يغير اسمه إلى دون كيخوت دي لامنشا، ولامنشا اسم منطقته.

مت وجيف Mutt and Jeff: اسم جريدة كوميدية أمريكية، كانت تصدر ستة أيام في الأسبوع من ١٩٠٧ إلى ١٩٨٢م. كان مت رجلًا طويلًا ممشوق القوام بينما كان جيف نزيل مصحة عقلية.

١

تطيح به صدمة من اليمين، حادة ومفاجئة ومؤلمة، كصعقة الكهرباء، ترفعه بعيدًا عن الدراجة. اهدأْ! يُحدِّث نفسه وهو يطير في الهواء (يطير بأَيسر ما يكون!) ويشعر بساقيه طَيِّعَتَين. يُحدِّث نفسه: دُرْ كقطٍّ، واقفِز على قدميك؛ استعدادًا لما يأتي. تبدو في الأفق أيضًا الكلمة غير المألوفة لمبر بإي آر أو لمبر بآر إي.[١]

إلا أن الأمور لا تجري على ما يرام. إما لأن رجليه تعصيانه أو لأنه يُصعَق في لحظة (يسمع صوت ارتطام جمجمته على الأسفلت أكثر مما يشعر به، بعيدًا، خشبيًّا، مثل طرقة المطرقة)، لا يقفز على قدميه إطلاقًا، وعلى النقيض يتدحرج مترًا وراء متر، ويستمر الحال، حتى يخمده التدحرج تمامًا.

يستلقي ممددًا في سلام. صباح رائع. للشمس لمسةٌ حنون. يوجد ما هو أسوأ من استرخاء المرء، في انتظار أن تعود له قوته. وقد يوجد ما هو أسوأ من أن تنتاب المرء غفوة خاطفة. يغلق عينيه؛ يَترنَّح العالم تحته، يدور؛ يفقد الوعي.

يفيق بعد برهة. ثَقُلَ الجسدُ الذي طار خفيفًا في الهواء، ثقل حتى إنه لا يستطيع أن يرفع إصبعًا لينقذ حياته. يلوح فوقه شخص يحجز الهواء عنه، فتًى بشعر ناعم وبُقَع على طول الجبهة. «دراجتي.» يقول للولد، ناطقًا الكلمة الصعبة مقْطعًا مقطعًا. يريد أن يسأل عما جرى لدراجته، ما إن كانت في الحفظ والصون، حيث، كما هو معروف جيدًا، قد تختفي دراجة في لمح البصر، ولكنه غاب عن الوعي من جديد قبل أن تنطلق هذه الكلمات.

---

[١] Imber أو lmbre.

٢

يُقْلَب من جنب إلى جنب ويُنقل. تصله أصوات من بعيد، يعلو الصخب ويهبط في إيقاع خاص. ماذا يحدث؟ لو يستطيع أن يفتح عينيه لعرف. لكنه لا يستطيع. يصله شيء ما. في كل مرة حرف، طقطقة طقطقة طقطقة، رسالة تُكتَب على شاشة وردية تترجرج كالماء كلما رمش، تبدو أنها جفنه من الداخل. ح–خ–هـ–ع، تقول الحروف، ثم م–س–ت–هـ–ت، ثم رجفة، ثم ر، ثم د–ج–ح–خ–هـ–ع ... إلخ.

مستهتر.[١] يجتاحه ما يشبه الهلع. يتضور؛ يتدفق أنين من كهف أعماقه وينطلق من حنجرته.

يقول صوت: ألمٌ شديد؟ اهدأْ. وخز إبرة. بعد لحظة يتلاشى الألم، ثم الهلع، ثم الوعي ذاته.

يستيقظ في شرنقة من الهواء الساكن. يحاول الجلوس فلا يستطيع؛ وكأنه في حقيبة من الأسمنت. لم يخفف عنه البياض من حوله: السقف الأبيض، الملاءات البيضاء، الضوء الأبيض؛ وأيضًا البياض المجزَّع كمعجون الأسنان القديم الذي يبدو كأن عقله يكتسي به، فلا يستطيع أن يفكر تفكيرًا سويًّا ويسيطر عليه يأس تام. يغمغم وربما يصرخ: ما هذا؟ ويقصد ما هذا الذي يحدث لي؟ أو ما هذا المكان الذي أنا فيه؟ أو حتى ما هذا المصير الذي حاق بي؟

---

[١] بالفرنسية في الأصل.

تظهر من حيث لا يعلم امرأة في ثياب بيضاء، تتوقف، تتفحصه بدقة. بذهن مشوش يحاول أن يستفهم. فات الأوان! بابتسامة ولمسة مشجِّعة على الذراع، من الغريب أنه يسمعها ولا يشعر بها، تواصل الحركة.

هل الأمر خطير؟ إذا كان هناك وقت لطرح سؤال، فهذا هو السؤال الذي يجب طرحه، مع أن كلمة خطير ربما تعني أنه يفضِّل ألا يقيم هنا فترة. لكن الأكثر إلحاحًا من السؤال عن الخطورة، الأكثر إلحاحًا من السؤال عما جرى بالضبط على طريق مَجيل ليعصف به إلى هذا المكان الميت، هي حاجته ليشق طريقه إلى البيت، ويغلق الباب خلفه، ويجلس في جوٍّ أليف، ويستعيد نفسه.

يحاول لمس ساقه اليمنى، الساق التي لا تكف عن إرسال إشارات مبهمة تعلن أنها الآن الساق المصابة، لكن يده لا تتزحزح، لا شيء يتزحزح.

ملابسي: ربما هذا هو السؤال التمهيدي البريء. أين ملابسي؟ أين ملابسي؟ وما خطورة وضعي؟

تطفو الشابَّة في مجال رؤيته مرة أخرى. يقول بمشقة هائلة: «ملابس»، ويرفع حاجبيه بأقصى ما يستطيع لِيعبِّر عن أهمية ما يقول.

تقول الشابَّة: «لا تنزعج.» وتبتسم له ابتسامات أخرى من ابتساماتها الملائكية المؤثرة. «كل شيء في أمان، كل شيء يحظى بالاهتمام. سيكون الطبيب معك خلال دقيقة.» وقبل دقيقة مرَّ بالفعل شاب هو بالضرورة الطبيب الذي أشارت إليه وتجسد بجانبها يغمغم في أذنها.

يقول الطبيب الشاب: «بول؟ هل تسمعني؟ هل الاسم الذي معي صحيح، بول ريمنت؟»

– يرد باهتمام: «نعم.»

– يوم طيب، بول. ستشعر ببعض التشوش الآن؛ لأنك حُقِنْتَ بجرعة من المورفين. سنبدأ الجراحة بعد برهة قصيرة. تعرَّضْتَ لصدمة شديدة، لا أعرف إلى أي حدٍّ تتذكر، تركتْ إصابة بسيطة في ساقك. سنلقي عليها نظرة ونرى ما نستطيع إنقاذه منها.

مرة أخرى يقوِّس حاجبيه. يحاول أن يقول: «إنقاذ؟»

يكرر الطبيب: إنقاذ ساقك، سيكون علينا بَتْرُها، لكن سننقذ ما يمكن إنقاذه.

يحدث شيء ما لوجهه بالضرورة عند هذه النقطة؛ لأن الشاب يأتي بشيء مدهش. يبسط يده ليلمس وجنته ويريح يده عليها، ويهدهد رأس العجوز. عمل قد تقوم به امرأة، امرأة مع حبيبها. تحيره الإماءة لكنه لا يستطيع تلاشيها بلطف.

يقول الطبيب: هل تثق بي في هذا الأمر؟

ترمش عيناه في صمت.

– «طيب.» يتوقف. يقول: بول، ليس أمامك اختيار. ليس هذا من المواقف التي يكون أمامنا فرصة للاختيار فيها. هل تفهم ذلك؟ هل توافق؟ لن أطلب منك التوقيع على نموذج، لكن هل لنا أن نأخذ موافقتك لنبدأ؟ سننقذ ما يمكن إنقاذه، تعرضْتَ لصدمة أدت إلى إصابات كثيرة، لا أعرف الآن، مثلًا، إن كنا نستطيع إنقاذ الركبة أم لا. تهشمت الركبة تمامًا، وتهشم أيضًا جزء من عظام الساق.

وكأن الساق اليمنى تعرف أن الحديث يدور حولها، كأن هذه الكلمات الرهيبة أيقظتها من نومها المضطرب، فترميه بسهمٍ من الألم الأبيض الممض. يسمع لهاثه، ثم تدَفُّق الدماء في أذنيه.

يقول الشاب، ويربِّتُ برقة على وجنته: طيب. حان أن نتحرك.

يستيقظ أكثر هدوءًا بكثير. صافي الذهن، إنها ذاته القديمة (يفكِّر، في أحسن حال!) مع أنه دائخ بعض الشيء أيضًا، ويمكن أن يستغرق في غفوة في أية لحظة. يشعر أن الساق التي تعرضت للإصابة متضخمة، كأنها رجل فيل، لكنها لا تؤلمه.

يُفتَح الباب وتظهر ممرضة، وجه جديد ناضر. تسأل: هل تشعر بتحسن؟ ثم وبسرعة: لا تحاول أن تتكلم. يأتي الدكتور هَنْسِنْ بعد برهة ليتحدث معك. أثناء ذلك هناك شيء نريد أن نفعله. هل يمكن أن أطلب منك أن تهدأ أثناء …

يتضح أن وضع قسطرة هو ما تريد أن تفعله وهو هادئ. إنه لأمر قبيح أن تفعل ذلك لشخص؛ إنه سعيد؛ لأن التي تضعها غريبة. يوبِّخ نفسه: هذه هي النتيجة! هذه هي النتيجة حين تَسْرَح لحظة! والدراجة: ماذا جرى للدراجة؟ كيف أَتسوَّق الآن. كل غلطتي أني أخذتُ طريق مَجيل! مع أنه قاد دراجته لسنوات في طريق مَجيل بدون حوادث تُذكَر.

على الدكتور هَنْسِن الشاب أن يُقدِّم له عرضًا سريعًا عن حالته، ليوقفه على النجاح الذي تحقق، ثم يخبره بشكل أكثر خصوصية عن حالة ساقه، أخبارًا بعضها طيب، وبعضها ليس طيبًا تمامًا.

أولًا، فيما يتعلق بحالته العامة، إذا وضعنا في الاعتبار ما يمكن أن يحدث لجسم الإنسان وما يحدث له حين تصدمه سيارة مسرعة، يمكن أن يهنئ نفسه لأن الأمر ليس خطيرًا. ما حدث هو إلى حدٍّ كبير عكس الخطورة حتى إنه يمكن أن يعتبر نفسه سعيدًا

ومحظوظًا وموفَّقًا. أصابتْه الصدمةُ بارتجاج، نعم، لكن الخوذة التي كانت على رأسه أنقذتْه. ستستمر المُتابَعة، لكن لا يوجد دليل على حدوث نزيف في المخ. وبالنسبة للوظائف الحركية، تشير الدلائل الأولية إلى عدم تعرضها للإعاقة. فقدَ بعض الدماء، وتمَّ تعويضها. إذا تحيَّرَ بشأن تَيبُّس فكِّه، فالفكُّ ليس مكسورًا، لكن به كدمات. تبدو الخدوش على ظهره وذراعه أسوأ مما هي عليه، ستندمل خلال أسبوع أو أسبوعين.

نعود الآن إلى الساق، الساق التي تعرضت للصدمة، لم يستطع «دكتور هَنْسنْ» وزملاؤه، كما اتضح في النهاية، إنقاذ الركبة. جرت بينهم مناقشات عميقة، واتفقوا جميعًا على القرار. جاءت الضربة — كما سيراها في أشعة إكس بعد ذلك — في الركبة مباشرة، وحدث بالإضافة إلى ذلك التفاف، فتمزق المفصل والْتَوَى. ربما تتم محاولة لإصلاح ما حدث، لكن الإصلاح المطلوب قد يستغرق عامًا، وربما عامين، بمعدل نجاح أقل من خمسين في المئة، وبالتالي، وبوضع عمره في الاعتبار، رُؤِيَ أن الأفضل بتر الساق من فوق الركبة بنظافة، وترك جزء من العظام لتثبيت الساق الصناعية. يَأْمل «دكتور هَنْسِن» أن يتقبل «بول ريمنت» حكمة ذلك القرار.

يقول مستنتجًا: أثق أن لديك كثيرًا من الأسئلة، ويسعدني أن أرد عليها، ليس الآن، الأفضل في الصباح، بعد أن تحصل على قسط من النوم.

يقول: «ساق صناعية.» كلمة أخرى صعبة،[٢] مع أنه يفهم الآن أن الفك ليس مكسورًا، مجرد كدمات، إلا أنه أقل ارتباكًا فيما يتعلق بالكلمات الصعبة.

– ساق صناعية. طرف صناعي. بمجرد أن تلتئم العملية، سنُزَوِّدك بساقٍ صناعية. ربما بعد أربعة أسابيع أو أقل. ستكون قادرًا على المشي مرة أخرى في لمح البصر. وتقود دراجتك أيضًا إذا أحببْتَ. ببعض التمرينات. أسئلة أخرى؟

يهز رأسه. يريد أن يقول: لماذا لم تسألني في البداية؟ لكنه إذا تَفوَّه بكلمة فسيفقد السيطرة على نفسه، ويبدأ الصياح.

يقول الدكتور هَنْسِن: «سأتحدث إليك في الصباح. ابسطْ!»

إلا أن هذا ليس كل شيء. ليست النهاية. الانتهاك أولًا، ثم الموافقة على الانتهاك. ثَمَّة أوراق عليه أن يوقِّع عليها قبل السماح له بالمغادَرة، وهي أوراق صعبة بصورة مدهشة.

[٢] الكلمة بالإنجليزية برَستيس Prosthesis.

الأُسرة، على سبيل المثال. من هم أفراد أسرته؟ وأين يعيشون؟ وكيف يمكن إخبارهم؟ والتأمين. ما الجهة المؤمَّن عليه فيها؟ ماذا تغطي وثيقة التأمين؟

التأمين ليس مشكلة. مؤمَّن عليه تأمينًا شاملًا. في محفظته كارت يثبت ذلك، إنه شديد الحذر (لكن أين محفظته؟ أين ملابسه؟) الأسرة مسألة أقل وضوحًا. مَنْ هم أفراد أسرته؟ ما الرد الصحيح؟ له أختٌ. رحلت منذ اثني عشر عامًا، لكنها ما زالت تحيا بداخله أو معه، بالضبط كما أن له أمًّا ينتظر، أحيانًا حين لا تكون بداخله أو معه، بوق الملائكة من قبرها في مقبرة بلَّرات. الأب أيضًا، انتظاره أبعد بكثير، في مقبرة بو، من هناك نادرًا ما يزوره. هل هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم أسرته؟ يود أن يرد على كل من طرح السؤال: أولئك الذين تولد في حياتهم لا يرحلون. تحملهم معك، وتأمل أن يحملهم من يأتي بعدك. لكن لا توجد مساحة في النموذج تكفي إجابات مسهبة.

ما يمكن أن يقدمه عمومًا بصورة أدق عن أسرته أنه بدون زوجة أو أبناء. كان متزوجًا في يوم من الأيام، بالتأكيد؛ لكن رفيقته في تلك المغامرة لم تعدْ جزءًا منه. هربتْ منه، هربتْ تمامًا. ما زال يتذكر حتى الآن كيف نفَّذت الخدعة، ولكن هذا ما حدث: هربتْ إلى حياتها الخاصة. لكل الأغراض العملية، وبالتأكيد لكتابة النموذج، إنه غير متزوج، أعزب، مفرد، وحيد.

الأسرة: يكتب بحروف منفصلة: ل ا ي و ج د، تراقبه الممرضة، ويرسم خطوطًا على الأسئلة الأخرى، ويُوقِّع كل منهما النماذج. يسأل الممرضة: «التاريخ؟» فترد: «الثاني من يوليو.» الوظائف الحركية سليمة.

يتناول الأقراص لتخفيف الألم ومساعدته على النوم، لكنه لا ينام. هذا، هذا السرير الغريب، هذه الغرفة، هذه الرائحة، رائحة المُطهِّرات ورائحة البول التي تصيب المرء بالدوار، من الواضح أنه ليس حلمًا، يشبه الأشياء الحقيقية، حقيقي بقدر ما هو محيِّر. إلا أن اليوم بكامله، إذا كان هذا هو اليوم ذاته، إذا كان للوقت معنى، له نكهة الحلم. من المؤكَّد أن هذا الشيء، الذي يراه للمرة الأولى تحت الملاءة، هذا الشيء البشع الملتف في الأبيض والمتصل «بوركه»، يأتي مباشرة من أرض الأحلام. وماذا عن الشيء الآخر، الشيء الذي تحدَّث عنه الشاب ذو النظارة التي تبرق بحماس جنوني، متى يظهر؟ طوال حياته لم يَرَ ساقًا صناعية عارية. الصورة التي تَرِد إلى ذهنه صورة سهم خشبي في رأسه شوكة كالرمح وماصات مطاطية على أقدامه الثلاث الصغيرة. صورة مستوحاة من السيريالية. مستوحاة من دالي.

يفرد يده (الأصابع الثلاث الوسطى مربوطة معًا، يلاحظ ذلك للمرة الأولى)، ويضغط على الشيء الملفوف في الأبيض. لا إحساس على الإطلاق. يشبه كتلة من الخشب. مجرد حلم، يحدث نفسه، ويستغرق في أعمق نوم.

يقول الدكتور هَنْسِن: «علينا اليوم أن نجعلك تجرب المشي. بعد الظهيرة. لن تمشي مسافة طويلة، بضع خطوات فقط لتجرب الإحساس بها. سأكون أنا وإيلين معك لنقدم لك يد العون.» يومئ للممرضة. الممرضة إيلين. «إيلين هل يمكن أن تُنَسِّقي الأمر مع قسم جراحة العظام؟»

يرد: لا أريد أن أمشي اليوم. يتعلم النطق من بين الأسنان المطبقة. المسألة ليست مجرد كدمات في الفك، تخلخلت الضروس في ذلك الجانب أيضًا، لا يستطيع المضغ. «لا أريد أن أُرغَم على شيء. لا أريد ساقًا صناعية.»

يرد الدكتور هَنْسِن: رائع، نحن لا نتحدث عن الساق الصناعية من قريب أو بعيد، مجرد إعادة تأهيل، الخطوة الأولى في إعادة التأهيل. يمكن أن نبدأ غدًا أو بعد غد. لتعرف فقط أن فَقْد ساقٍ ليس نهاية العالم.

– أعلن مرة أخرى: لا أريد ساقًا صناعية.

يتبادل الدكتور هَنْسِن والممرضة إيلين النظرات.

– إذا كنت لا تريد ساقًا صناعية، ماذا تفضِّل؟

– أفضل أن أعتني بنفسي.

– مُوافِق، انتهى الموضوع، أعدك بألا نرغمك على شيء. والآن هل يمكن أن أحدثك عن ساقك؟ هل يمكن أن أكلمك عن العناية بالساق؟

– العناية بساقي؟ — يزمجر في غضب — ألا يستطيعان رؤيتها؟ قُمْتُما بتخديري وبَتَرتُما ساقي وأَلقيتُما بها في القمامة ليجمعها شخص ما ويلقي بها في النار. كيف تقفان هناك وتتحدثان عن العناية بساقي؟

يقول الدكتور هَنْسِن، موضحًا، بيدين على شكل كوب، ما فعلوه: وضعنا بقية العضلة على العظام، وخيطناها هناك. بمجرد التئام الجرح نأمل أن تشكل العضلة وسادة على العظام. في الأيام القليلة التالية، نتيجة الجرح والراحة في السرير، سيكون هناك استعداد لظهور استسقاء وتَورُّم. نحتاج إلى عمل شيء من أجل ذلك. هناك أيضًا استعداد لانكماش العضلة باتجاه «الورك»، هكذا. يقف مائلًا، ويضرب ظهره بقبضة يده. نمنع ذلك بالشدِّ.

الشدُّ بالغ الأهمية. ستشرح لك إيلين بعض تمرينات الشد وتساعدك إذا احتجْتَ إلى المساعدة.

تومئ المرضة إيلين.

يسأل: «مَنْ فعل بي هذا؟» لا يستطيع الصياح؛ لأنه لا يستطيع فتح فكيه، لكن ذلك يناسبه، يناسب غضبه بالكزِّ على الأسنان. «من أذاني؟» ثمة دموع في عينيه.

ليالٍ بلا نهاية. يسخن بشدة ويبرد بشدة، يرغب في هرش الساق، الملتفة في الأربطة، ولا يستطيع الوصول إليها. حين يحبس أنفاسه يمكن أن يسمع الدبيب الشبحي للحمه وهو يحاول الالتئام مع بعضه من جديد. حين يأتي النوم يكون فجائيًّا وقصيرًا، وكأن نفثات من المخدر تنبعث من رئتيه لتغمره.

الوقت مملٌّ ليلًا ونهارًا. أمام السرير جهاز تلفزيون، لكنه لا يهتم بالتلفزيون أو المجلات التي زَوَّدَته بها إحدى الهيئات الخيرية (ما هي. دار الغرور. البيوت والحدائق الأسترالية). يُحدِّق في ساعته غارسًا وضع العقارب في ذهنه. يغلق عينيه، يحاول التفكير في أشياء أخرى: تنفسه، جدَّتَه، جدَّتَه وهي جالسة على طاولة المطبخ تنظف دجاجة، النحل بين الزهور، أي شيء. يفتح عينيه. لم تتحرك العقارب. وكأنها تشق طريقها في غراء.

تتوقف الساعة ولا يتوقف الزمن. حتى وهو يستلقي هنا يحس بالزمن يؤثر فيه كمرض مدمِّر، كالجير الحي الذي يُلْقَى على الجثث. ينخر الزمن فيه، يلتهم خلاياه خلية خلية. تتلاشى خلاياه كالشرار.

تخفف الأقراص التي يتناولها كل ست ساعات أسوأ الآلام، وهو أمر طيب، وتساعده على النوم أحيانًا، وهو أفضل؛ لكنها تشوش ذهنه أيضًا وتجلب الهلع والفزع إلى أحلامه مما يجعله يتوقف عن تناولها. يحدث نفسه: الألم ليس شيئًا، مجرد إشارة تحذيرية من الجسم إلى المخ. الألم ليس شيئًا حقيقيًّا إلا إذا كانت صورة أشعة إكس شيئًا حقيقيًّا. لكنه بالطبع مخطئ. الألم هو الشيء الحقيقي، لا يتطلب الأمر جهدًا كبيرًا لإقناعه بذلك، لا يتطلب أي جهد، مجرد إرسال ومضة أو اثنتين؛ يتلاشى وعيه بعدها بسرعة، ويغرق في أحلام رديئة.

نُقِل شخصٌ آخر إلى غرفته، رجل أكبر منه أُجْرِيَت له عملية جراحية في «الورك». يرقد الرجل طوال اليوم وعيناه مغلقتان. من وقت لآخر تظهر ممرضتان قرب الستائر حول سريره وتعتنيان، تحت غطاء، باحتياجات جسمه.

عجوزان؛ رفيقان عجوزان في قارب واحد، المرضتان طيبتان، عطوفتان ومنشرحتان، لكن تحت كفاءتهما الواضحة يستطيع أن يحدد — ليس مخطئًا، غالبًا ما رأى ذلك في الماضي أيضًا — لا مبالاة تامة بمصيرهما، مصيره ومصير رفيقه. ينقل له الدكتور هَنْسِن الشاب، تحت الاهتمام العطوف، شعورًا باللامبالاة ذاتها. وكأن هؤلاء الشبان الذين عُيِّنوا للاعتناء بهما يعرفون، على مُستوًى من مستويات اللاشعور، أنه لم يَعُد لديهما ما يقدمانه للقبيلة فلا يضعونهما في الحسبان. يصرخ لنفسه: مع أنهما شبان إلا أنهم بالِغُو القسوة! كيف وقعتُ في أيديهم؟ الأفضل أن يعتني العجوز بالعجوز والمحتضر بالمحتضر! ويا لها من حماقة أن تكون وحيدًا في العالم إلى هذا الحد!

يتحدثون عن مستقبله، يزعجونه ليمارس تمرينات تؤهله لذلك المستقبل، باب المستقبل مُغْلَقٌ بالضبة والمفتاح. لو أن هناك وسيلة ينهي بها حياته بحيلة ذهنية نقية لَأَنهى حياته في الحال، بلا صخب. يحتشد ذهنه بقصص أناس أنهوا حيواتهم بأنفسهم، يحصلون على الأقراص بشكل مُنظَّم، يكتبون كلمات الوداع، يحرقون رسائل الحب القديمة، يصنِّفون المفاتيح، وبمجرد الانتهاء من ترتيب كل شيء، يرتدون أفضل الثياب ويبتلعون الأقراص التي بحوزتهم ويستلقون على أسرَّتهم الرائعة ويتهيئون للغفران. كلهم أبطال، لا تذكرهم الأغاني، ولا يثني عليهم أحد. أنا مُصمم على ألا أمثل مشكلة. الشيء الوحيد الذي لا يمكنهم العناية به هو الجسد الذي يخلفونه وراءهم، كومة اللحم التي تتعفن بعد يوم أو اثنين. إذا كان ممكنًا، إذا كان مسموحًا بذلك، لاستقَلُّوا «تاكسي» إلى المحرقة، حيث يجلسون أمام الباب المميت، يتناولون جرعتهم، وقبل أن يتلاشى الوعي يضغطون زرًّا يقذف بهم إلى اللهب ليخرجوا من الناحية الأخرى حفنة من الرماد، بلا وزن غالبًا.

يقتنع بأنه سينهي حياته إن استطاع، في الحال. لكنه وهو مستغرِق في هذه الفكرة يعرف أنه لن يُقْدِم على هذا الفعل. لكن الألم، والعجز، والليالي التي لا يذوق فيها طعم النوم في هذا المستشفى، وهذا الإذلال الصريح في النظرة القاسية في عيون الشبان، هذا فقط ما يجعله يتمنى الموت.

المعاني الضِّمنِيَّة لكونه أعزب، مفردًا، ووحيدًا تجعله يرى البيت أكثر وضوحًا في نهاية الأسبوع الثاني من إقامته في أرض البياض.

تسأله ممرضة الليل، جانيت، التي تسمح لنفسها بالمزاح معه: ليس لك أسرة. ليس لك أصدقاء؟ تلوي أنفها إلى أعلى وهي تتكلم وكأنه نكتة تسليهم جميعًا.

يرد: لي من الأصدقاء كل ما يمكن أن أتطلع إلى صداقتهم. لستُ روبنسن كروزو. فقط، لا أود أن أرى أحدًا منهم.

تقول: قد تجعلك رؤية الأصدقاء أفضل. تساعدك. أنا متأكدة.

يقول: سأستقبل زوارًا عندما أحب، شكرًا.

ليس غضوبًا بطبعه، لكنه في هذا المكان يتذمر وينفعل ويغضب بسرعة ليسهل على من يتولون رعايته أن يتركوه وحده. يتخيل جانيت تعترض على زملائها: ليس سيئًا في أعماقه إلى هذا الحد. يتخيل زملاءها يردُّون سَاخِرين بصوت كالشخير: هذا العجوز الهلفوت!

يعرف أن من المُتوقَّع منه حين يتحسن أن يشعر برغبات هائلة تجاه هؤلاء الشابات، رغبات ستظهر؛ لأنهم مَرْضَى من الذكور وبصرف النظر عن أعمارهم، في أوقات غير مناسبة، ولا يمكن كبحها ويجب أن تتوارى بأسرع ما يمكن وبحزم.

الحقيقة أنه لا يشعر بأي من هذه الرغبات. قلبه نقي كقلب طفل. نقاوة القلب لا تُكسبه أي رصيد بين المرضات، بالطبع، ولا يُتوقَّع منها ذلك. جزء من اللعبة أن يكون كبشًا داعرًا، لعبة يتجنب لعبها.

إذا كان لا يريد الاتصال بأحد من الأصدقاء، فذلك ببساطة لأنه لا يرغب في أن يراه أحد في حالته الجديدة، البتر والذل والخزي. لكن الناس، بالطبع، يسمعون بما حدث، بطريقة ما. يرسلون بأطيب الأماني، وربما يُتَلْفِنُون له. في التليفون يكون اختراع قصة أمرًا بالغ السهولة. يقول بمرارة يأمل ألا تنتقل عبر الخط: ساق فقط. سأستخدم عكازًا لبعض الوقت، ثم ساقًا صناعية. من الصعب أن ينفذ ذلك على المستوى الشخصي؛ لأن مَقْتَه لهذا الشيء المقرف الذي سيكون عليه من الآن أن يجره معه، مكتوب على وجهه بجلاء.

من الفصل الافتتاحي، من لحظة وقوع الحادث في طريق مَجيل إلى الآن، لم يُحْسِن التصرف، ولم يرتفع إلى مستوى الحدث، هذا واضح له. سَنَحَت له فرصة ذهبية ليقدم مثالًا لكيفية تَقبُّل المرء لواحدة من أكثر ضربات القدر مرارة، وقد رفسها. مَن فعل هذا بي؟ حين يتذكر كيف صاح في الدكتور هَنْسِن الشاب وهو بلا شك كفؤ تمامًا مع أنه ما زال شابًّا، يبدو أنه يقصد مَن صدمني؟ وهو يقصد مَن الوقح الذي قطع ساقي؟ يغمره العار. ليس أول من تعرض في العالم لحادث سيئ، وليس أول عجوز يجد نفسه في مستشفى مع شُبَّان يعتنون به، ذوي نوايا حسنة ويَتَّسِمون باللامبالاة. فُقدتْ ساقٌ: ماذا يعني عمومًا فقْدُ ساقٍ؟ عمومًا، فَقدُ ساقٍ ليس إلا تمرينًا على فَقْد كل شيء. فيمن يصيح حين يحل ذلك اليوم؟ مَنْ يلوم؟

تأتي مارجريت مَكُّورد لزيارته. آل مَكُّورد أقدم أصدقائه في أدليد؛ مارجريت منزعجة؛ لأنها لم تسمع بالحدث إلا بعد وقت طويل، وساخطة سخطًا مبررًا على من فعل به ذلك.

تقول: «أتمنى أن ترفع قضية.» يرد: لا أنوي رفع قضية، ثمة عدد هائل من الثغرات الكوميدية. أريد استعادة ساقي، العجز الذي ... أترك هذه الأشياء لمسئولي التأمين. تقول: غلط، يجب تلقين درس لمن يسوقون باستهتار. أفترضُ أنهم سيضعون لك ساقًا صناعية، يصنعون هذه السيقان الصناعية المدهشة في هذه الأيام، وأنك ستقود دراجتك مرة أخرى قريبًا. يرد: لا أفكر بهذه الطريقة. انتهى ذلك الجزء من حياتي. تهز مارجريت رأسها. تقول: يا للأسف! يا للأسف!

يتأمل ما قالته فيما بعد، من الجميل أن تقول ذلك. ما كانت تعنيه، وتعرف أنه سيفهم ما تعنيه هو: بول المسكين، عزيزي المسكين، يا له من مصير صعب عليك أن تعيشه! يود أن يذكِّرها بأن علينا جميعًا أن نعيش مثل هذا المصير في النهاية.

ما يثير دهشته في كل ما يدور في المستشفى هو كيف ينتقل الاهتمام بسرعة من علاج ساقه «رائع!» يقول دكتور هَنْسِن (ويجس ما تبقى من الساق بإصبع مقلَّم ببراعة): «سيلتئم الجرح بشكل جميل، وستَسترِد عافيتك بسرعة.» إلى مسألة أنه سوف ينجح (كلمتهم) بمجرد أن ينطلق في العالم من جديد.

تظهر في الصورة مبكرًا جدًّا، أو هذا ما يبدو له، أخصائيةٌ اجتماعية، مسز بوتِّس أو بوتز. تخبره بأسلوب مرح لا بد أنها تعلمَت استخدامه مع المُسنِّين: مستر بول ريمنت، ما زلتَ شابًّا. تريد مواصلة الحياة بدون الاعتماد على أحد، وهو أمر رائع بالطبع، لكنك ستحتاج إلى ممرضة لبعض الوقت، ممرضة متخصصة، يمكن أن نساعدك في توفيرها. وعلى المدى البعيد، بمجرد أن تستطيع الحركة، ستحتاج إلى شخص ما بجانبك، يقدم لك يد العون، يتسوق ويطبخ وينظف إلخ. ألا يوجد أحد؟

يظن أن الأمر انتهى، يهز رأسه. يقول: «لا يوجد أحد.» ويقصد بذلك — ويعتقد أن مسز بوتس تفهم — ليس هناك أحد يمكن أن يتصور أن من واجبه الكونفشيوسي أن يكرِّس نفسه للاهتمام بطلباته، طبيخه وغسيله إلخ.

ما يعنيه في السؤال هو الكشف عن حالته كما تراها مسز بوتس، التي تبادلتْ بالضرورة الآراء مع الأطباء والممرضات بصورة أكثر صراحة وأكثر واقعية مما قدَّمتْه له. من هذه الآراء الواقعية التي استنتجتْها بيقين أنه حتى على المدى البعيد لن يستطيع العيش بدون أن تُقدَّم له يد العون.

في رؤيته الخاصة على المدى البعيد، الرؤية التي يخطط لها في لحظاته الأكثر اعتدالًا، ستنطلق ذاته العرجاء (كلمة قاسية، لكن لماذا المراوغة؟) في العالم بطريقة ما، بمساعدة عكاز أو دعامة أخرى، ربما أبطأ من قبل، ولكن ما معنى السرعة والبطء بعد الآن؟ ولا

يبدو أن رؤيته تتفق مع رؤيتهم. في رؤيتهم، على ما يبدو، إنه ليس من النوع الذي يُجرَى له بترٌ، ويستطيع السيطرة على ظروفه المتغيرة وينجح عمومًا في ذلك، لكنه من نوع مبهم، نوع سينتهي، في غياب الدعم المهني، في مؤسسة للمسنين والعجزة.

لو كانت مسز بوتس مستعدة لمصارحته لكان صريحًا معها. كان سيقول لها: قدمتُ أفكارًا كثيرة لتجاوز المحنة. اتخذتُ استعداداتي منذ فترة طويلة؛ حتى في أسوأ الظروف، سأستطيع رعاية نفسي. لكن قواعد اللعبة تجعل من الصعب على أيٍّ منهما أن يكون صريحًا. لو أنه تحدث إلى مسز بوتس عن مخبأ السومنكس[٣] في خزانة الحمَّام، مثلًا، فقد تشعر مقيدة بقواعد اللعبة بأن عليها أن تقدم له النصيحة لتحميه من نفسه.

يتنهد. ويقول: «مسز دوريان بوتس، من وجهة نظرك، من وجهة نظر مهنية، ما الخطوة التالية التي تقترحينها؟»

ترد مسز بوتس: «ستحتاج إلى الترتيب مع شخص يقوم برعايتك، هذا مؤكد، ومن الأفضل أن تكون ممرضة خاصة، ممرضة لها خبرة في رعاية الضعاف. وهذا لا يعني بالطبع أنك ضعيف. ولكن إلى أن تستطيع الحركة مرة أخرى لا نود أن نخاطر، أليس كذلك؟»

يرد: بلى، علينا ألا نخاطر.

رعاية الضعاف. العناية بالضعاف. لم يعتقد أبدًا أنه ضعيف إلى أن رأى أشعة إكس. وجد من الصعب أن يصدق أن عظام العنكبوت التي ظهرت في صور الأشعة تجعله يصلب عوده، وبدونها يترنح بسهولة. الأطول الأضعف. طويل جدًّا بما يتعارض مع مصلحته. صرح دكتور هَنْسِن: لم أجرِ أبدًا عملية لرجل بهذا الطول، له ساقان بهذا الطول. ثم يخجل من زلته.

تسأل مسز بوتس: بالمناسبة يا بول هل تعرف ما إن كان التأمين يشمل رعاية الضعف؟

ممرضة، إلا أنها ممرضة أخرى. امرأة بكاب أبيض وحذاء رقيق تنطلق في شقته، تعلن بنبرات مرحة، حان وقت تناول الأقراص مستر «ر»!

يرد: لا، لا أظن أن التأمين يشمل ذلك.

تقول مسز بوتس: حسنًا، عليك تخصيص ميزانية لذلك، أليس كذلك؟

---

[٣] أقراص مهدئة.

٣

مستهتر. كم عانى، ذلك اليوم على طريق مَجيل، ليشهد كلمة الآلهة، المكتوبة على آلتهم الكاتبة السحرية! حين ينظر إلى الوراء، لا يمكن إلا أن يبتسم. يا له من أمر طريف، يا له من أمر عتيق حقًّا، الاعتقاد بأن المرء يتلقى النصيحة، وقت صعود الروح. أي كائنات يمكن أن تُترَك، في أي ركن من العالم، لتهتم بفحص حسابات أسرَّة الموت التي تصعد إلى السماوات، الديون على عمود والأرصدة على الآخر؟

إلا أن مستهترًا ليست كلمة سيئة في وصفه؛ لأنه كان كذلك قبل الحادث وربما ما زال كذلك. مع أنه لم يتسبب في حياته في أذًى يُذكَر، إلا أنه لم يفعل أيضًا أي خير. لن يخلِّف أثرًا وراءه، ولا حتى وريثًا يحمل اسمه. التزحلق عبر العالم: هذا ما جعلهم، في عصور غابرة، يعتادون على تجاهل الحيوات التي تشبه حياته: متابعة اهتماماته تفشل تمامًا في لفت الأنظار إليها. إذا كانت حياة بلا أثر فمن يصدر حكمًا على هذه الحياة، إذا كان قاضي القضاة قد تخلى عن القضية وانسحب ليقلم أظافره، فسيصدر الحكم بنفسه: فرصة هزيلة.

لم يعتقد أبدًا أنه سيقول كلمة طيبة يقولها عن الحرب، لكن يبدو أنه يراجع آراءه هنا، في سريره بالمستشفى، وهو يَستهلِك الوقت ويُستهلَك. يبدأ في إدراك الحكمة في تخريب المدن ونهب الثروات وذبح الأبرياء، في كل هذا التدمير الطائش، وكأن التاريخ في أعمق مستوياته يعرف ما يفعل. انهيار القديم، يُفسِح المجال أمام الجديد! ماذا يمكن أن يكون أكثر أنانية وأكثر شحًّا — وهو ما يزعجه بصورة خاصة — من مُحْتَضر بلا أبناء، ينهي سلسلة النَّسَب، ينسحب من العمل العظيم لخلق جيل جديد؟ إنه أسوأ من الشح، غريب.

يزوره قبل الخروج من المستشفى بيوم زائر غريب: الشخص الذي صدمه، اسمه واين أو شيء من هذا القبيل، برايت أو بلايت، يسأل واين عن تقدم الحالة، مع أنه، على ما يبدو، لا يعترف بارتكاب خطأ. يقول واين: «مستر ريمنت، أود أن أعرف كيف تتقدم حالتك. آسف لما حدث. حظ سيئ.» لم يكن واين الشاب فنانًا في اختيار كلماته؛ إلا أن كل لفظة تلفظ بها تأتي ملتبسة بعناية، وكأنه يعلم أن بالغرفة جهاز تصنت. وفي الحقيقة، كما يعلم فيما بعد، كان والد واين في الدهليز يسترق السمع طوال الوقت. لا شك أنه مرَّن واين من قبل، أَظهِر الاحترام للعجوز التَّافه، تَأَسَّفْ له، ولا تعترف بحال من الأحوال باقتراف أي خطأ.

يمكن أن يتخيل أيضًا وبشكل جيد ما يدور بين ابن وأب عن قيادة دراجة في شوارع مزدحمة، لكن القانون هو القانون. حتى المسنون البلهاء التافهون الذين يقودون دراجاتهم لا يجوز لأحد أن يصدمهم، وهذا ما يعرفه واين ووالده. إنهما بالضرورة يرتجفان لفكرة رفع دعوى قضائية، سواء عن طريقه أو عن طريق شركة التأمين. ولا بد أن هذا هو سر انتقاء واين لكلماته بحكمة.

حظ سيئ. ثمة مجال للرد يمكن أن يفكر فيه، بداية مِن لا دور للحظ في الأمر، واين، إنها القيادة السيئة. ولكن ما فائدة تسجيل نقاط ضد ولد لا يملك القدرة على إصلاح ما دمَّره؟ اذهب وتخلصْ من الشعور بالإثم. هذا أفضل ما يمكن أن يفكر فيه الآن. مجرد حكمة، مقولة قديمة غريبة، ينشرح لها بلايت، الأب والابن، في طريقهما إلى البيت. يغلق عينيه، متمنيًا انصراف واين.

حادثة: شيء يصيب شخصًا، شيء غير متعمَّد وغير متوقَّع. بهذا التعريف تَعرَّض بول ريمنت، لحادثة بالتأكيد. ماذا عن واين بلايت؟ هل تَعرَّض واين لحادثة هو الآخر؟ ما شعور واين، حين توغلت القذيفة التي كان يطير بها في الليونة الحلوة للحم البشري؟ دهشة غير متوقعة وغير مُتعمَّدة، بلا شك؛ إلا أنها ليست غير سارة بطريقة ما. هل يمكن وصف ما جرى في مفترق طرق رديئة بأنه أصاب واين حقًّا؟ إذا كانت هناك إصابة، فإن واين، من وجهة نظره، هو الذي أصابه.

يفتح عينيه. ما زال واين بجوار السرير والعرق يتلألأ على شفته العليا. بالطبع! لا بد أن واين تَعلَّم في المدرسة ألا يغادر الفصل قبل أن يعلن المدرِّس انتهاء الحصة. أية راحة شعر بها واين حين تحرر في النهاية من المدْرَسة والمدرِّسين وفوق ذلك، حين استطاع أن يريح قدمه على دواسة البنزين، ويفتح النافذة ويشعر بالرياح على وجهه، يمضغ اللبان، ويدير الموسيقى بصوت مرتفع بقدر ما يهوى، ويصيح في العواجيز المسنين

«أمتطيك يا رفيق!» وهو يشق طريقه بجوارهم. والآن يتقلص هنا من جديد، ويتقمص وجهًا يعرف المسئولية، ليبحث عن كلمات تحمل رنين الاعتذار.

هكذا تنحل المعضلة. واين ينتظر الإشارة، وهو يريد إخراج واين من حياته. يقول: مجيئك أمر طيب يا فتى، لكن رأسي يؤلمني وأحتاج للنوم. بالسلامة.

٤

ممرضة النهار، التي أوصت بها مسز بوتس، اسمها شينا. تبدو شينا في التاسعة عشرة، لكن أوراقها تشهد على أنها في التاسعة والعشرين؛ ممتلئة امتلاءً يتسم بالقوة والتناسق ويوحي بالثقة في النفس، وتحت كل ذلك مزاج رائق لا يهتز ولا يعتريه الشك. يشعر تجاهها بالكراهية منذ الوهلة الأولى، لا يريدها، لكن مسز بوتس تضغط عليه. تقول مسز بوتس: إنه عمل متخصص، تمريض خاص. عَملَت شينا من قبل مع مَن تَعرَّضوا للبتر. من الحماقة أن تردها على أعقابها. هكذا يستسلم. وتسلم مسز بوتس بدورها بأنه لا يحتاج إلى ممرضة في الليل، ما دام هو مسجَّل في خدمة الطوارئ، ويحتفظ بجهاز نداء في متناول يده طوال الوقت.

يحاذر من البقاء على يمين مسز بوتس؛ لأن لديه فكرة يعتقد أنها دقيقة عن قدرات مسز بوتس. مسز بوتس جزء من نظام الرفاهية. الرفاهية تعني رعاية مَن لا يستطيعون رعاية أنفسهم. إذا قررتْ مسز بوتس، في مكان ما تحت الخط، أنه عاجز عن رعاية نفسه، ويحتاج إلى الحماية من عجزه، فأي ملاذٍ يكون أمامه؟ ليس معه حلفاء يخوضون معركته. ليس معه إلا نفسه.

من المُحتَمَل، بالطبع، أنه يبالغ في تقدير شأن مسز بوتس. حين يحين وقت الرفاهية، حين يحين وقت الرعاية والمتخصصين في الرعاية، سيكون بالتأكيد قد عفى عليه الزمن. في العالَم الجديد الجريء الذي بُعِث فيه هو ومسز بوتس، الذي يرفع شعار عدم التدخل! قد لا ترى مسز بوتس أنها حارسته أو حارسة أخيها أو حارسة أي شخص آخر. لو أراد الأعرج والعاجز والمحتاج والمشرَّد الأكل من سلال القمامة والنوم في أقرب مدخل فليفعلوا ذلك، فليحتشدوا بإحكام، ولا ضير عليهم إن استيقظوا أحياء في الصباح التالي.

حين يعود به رجال الإسعاف إلى البيت تكون شينا في انتظاره على أهبة الاستعداد. تُرتِّب له غرفة نومه، وتشرف على الشغالة، وترشد الشغال إلى موضع نصب الحواجز، وتتولى كل شيء عمومًا. وضعتْ مسودة جدول يومي لكليهما يشمل الوجبات والتدريبات وما تطلق عليه ر. ب، رعاية البتر، وتعلقه على الحائط فوق رأسه. يتضمن ثلاث خانات، واحدة للضحى، وواحدة للظهيرة، وواحدة لما بعد الظهيرة، عنوانه «ش. د. وقت خاص»، وقت تخلو فيه مع نفسها في المطبخ لتستعيد حيويتها. تحتفظ بمتطلباتها في الثلاجة على رف مكتوب عليه «ش. د. خاص» وحتى لا تعاني من الملل تحتفظ براديو في المطبخ، على محطة تذيع إعلانات صارخة وموسيقى مكتومة. حين يطلب منها خفض الصوت تخفض الصوت، إلا أنه يظل يسمعه بلا مشقة.

يبدأ أول اختبار لقدراته الجسدية حين يحاول الذهاب إلى المرحاض، وشينا تسنده من كوعه. تحبطه عملية الجلوس: الساق اليسرى، ساقه اليسرى ضعيفة كالعجين. تزمُّ شينا شفتيها. تقول: إلى السرير في الحال، سأحضر لك البطة.

تسمي القصرية بطة، وتسمي قضيبه حَمَامته. تتوقف في المنتصف أثناء حمام بالإسفنج وقبل التعامل مع البتر، ويصدر عنها صوت طفلة. تقول: الآن إذا كان يريد من شينا أن تغسل له حمامته، فعليه أن يطلب ذلك بلطف شديد، إلا إذا كان يعتقد أن شينا من الفتيات العاهرات. أولئك الفتيات العاهرات العاهرات. وتداعبه بضربة على ذراعه لتبدو المسألة وكأنها نكتة.

يصبر على شينا حتى نهاية الأسبوع، ثم يتصل بمسز بوتس. يقول: سأطلب من شينا ألا تعود إليَّ، لا أتحملها. عليك أن تجدي لي ممرضة أخرى.

لا يمكن التخلص من شينا بهذه البساطة. بمرور الوقت تم تهدئة عروسه المحترفة، وكان عليه أن يدفع لها أجرة شهرين. يندهش لنجاتها من ضربات على هذا المستوى أثناء عملها في التمريض، ربما كان الراديو مجرد حيلة لإثارته، وكذلك الحديث الطفولي.

بعد شينا تعتني به سلسلة متعاقبة من الممرضات من الهيئة، ممرضات يطلقن على أنفسهن عاملات مُؤَقَّتات، تأتي الواحدة منهن ليوم أو اثنين في المرة. يسأل مسز بوتس: ألا يمكن أن تجدي واحدة منتظمة؟ ثمة عدد هائل من الطلبات لتمريض رعاية الضعاف. اصبرْ، اسمك في القائمة الأولى.

لا تستمر بهجته بالهروب من المستشفى وقتًا طويلًا. يسقط في حالة من المزاج السيئ، ولا يفارقه هذا المزاج. لا يحب أيًّا من العاملات المؤقتات، ولا يحب أن يُعامَل كطفل أو

مَعتُوه، ولا يحب الصوت المرح المنشرح الذي يخاطبنه به. يسألن: كيف نحن اليوم؟ يقلن: «هذا طيب.» حتى حين لا يكلف نفسه عناء الرد.

يقلن: «مَتَى نضع ساقنا الصناعية؟ أفضل بكثير من العكاكيز، ساق جديدة، إنها كذلك، بمجرد تعليقها، سترى.» يكتئب من سرعة الغضب. يود أن يُترك وحيدًا؛ لا يريد الحديث مع أحد، تنتابه نوبات مما يعتقد أنه بكاء جاف. يفكر، لو تنزل دموع حقيقية. لو أتطهر بالدموع! يرحب بتلك الأيام التي لا تصل فيها، لسبب ما، واحدة لرعايته، حتى لو كان ذلك يعني أن يعيش على البسكويت وعصير البرتقال.

يلقي باللوم على المُسكِّنات في اكتئابه. ما الأسوأ، غيوم الكآبة في الرأس أم ألم العظام الذي يؤرقه طوال الليل؟ يحاول تجاهل الألم والعيش بدون أقراص لكن الاكتئاب لا ينتهي. يبدو أن الاكتئاب استقر كجزء من حالته العامة.

في سالف الأيام، أيام ما قبل الحادث، لم يعرف ما يمكن وصفه بالمزاج الكئيب. ربما كان وحيدًا، لكن كما تعيش ذكور بعض الحيوانات وحيدة. شغل نفسه أكثر مما ينبغي. استعار كتبًا من المكتبة، ذهب إلى السينما؛ لم يمتلك سيارة لكنه قاد دراجته أو سار على قدميه. ومع أن هذا النمط الحياتي جعله يبدو غريب الأطوار، إلا أنها كانت غرابة في الحدود الأسترالية المعتدلة. كان طويلًا، كان ممشوق القوام، حافظ على بعض القوة المرنة؛ كان من الرجال الذين قد يبقون حتى التسعينيات، غريب الأطوار تمامًا.

حسن، قد يحيا إلى التسعين، وإن حدث ذلك فلن يكون بالاختيار. فقدَ حرية الحركة، ومن الحماقة أن يظن أنه سيستعيدها ذات يوم، بالأطراف الصناعية أو بدونها. لن يتسلق أبدًا الهضبة السوداء مرة أخرى، ولن يذهب بدراجته إلى السوق ليتسوق، ولن يعتلي دراجته هابطًا منحنيات مُنْتاكيوت. انكمش العالم إلى هذه الشقة ومَبنًى أو اثنين حولها، ولن يتمدَّد مرة أخرى.

حياة مطوَّقة. ماذا كان سقراط سيقول عنها؟ هل يمكن تطويق حياة بهذا الشكل بحيث لا تستحق أن نحياها؟ يخرج الرجال من السجن، من سنوات التحديق في حائط أعزل، ولا تسيطر الكآبة على أرواحهم. ماذا يميز فقد أحد الأطراف إلى هذا الحد؟ حين تفقد الزرافة ساقها، ستهلك بالتأكيد؛ لكن الزرافات ليس لديها الهيئات التي توجد في الدولة الحديثة، المتجسدة في مسز بوتس، للعناية برفاهيتها. لماذا لا يبحث عن حياة مطوَّقة باعتدال في مدينة لا تقسو على المسنِّ الضعيف؟

لا يمكن أن يجيب على مثل هذه الأسئلة. لا يمكن أن يجيب؛ لأن حالته المزاجية لا تسمح له بالإجابة. هذا معنى أن يكون الشخص مكتئبًا، على مستوى أعمق بكثير من لعبة

العقل وبريقه (لماذا ليس هذا؟ لماذا ليس ذاك؟) إنه، هو، الْهُوَ التي يدعوها أحيانًا أنت، وأحيانًا أنا، على استعداد تام لمعانقة العتمة والسكون والفناء. هو: ليس مَن اعتاد ذهنه الانطلاق بطريقة ما، بل مَن يتألم طوال الليل.

حالته، بالطبع، ليست خاصة. يفقد الناس يوميًّا الأطراف أو القدرة على استخدامها. يحتشد التاريخ بجنود بذراع واحدة ومُبتَكِرين مُقعَدِين؛ بشعراء عميان وملوك مَجانين أيضًا. لكن يبدو أن القَطْع في حالته فَصَل الماضي عن المستقبل بنقاء نادر يضفي معنى جديدًا على كلمة جديد. لتبدأ حياةٌ جديدة بهذا القطع، إن كنْتَ حتى اليوم رجلًا، يحيا حياة الرجال، فقدْ تكون من اليوم كلبًا، يحيا حياة الكلاب. هذا ما يقوله الصوت، صوت من الغيم المعتم.

هل استسلم؟ هل يريد أن يموت؟ هل هذا ما ينحدر إليه؟ لا. السؤال زائف. لا يريد أن يقطع رسغيه، ولا يريد عشرين قرصًا من السومنكس وأربعة، ولا يريد أن يلقي بنفسه من البلكونة. لا يريد الموت؛ لأنه لا يريد شيئًا. ولكن لو حدث أن واين بلايت صدمه مرة أخرى وطيره في الهواء بأيسر ما يكون، فإنه متأكد من أنه لن ينقذ حياته. لن يلف مع الضربة، ولن يثب على قدميه. إذا كان في ذهنه فكرة أخيرة، إن كان هناك وقتٌ لفكرة أخيرة فستكون ببساطة، هكذا يجب أن تكون الفكرة الأخيرة.

توتر: تلك هي كلمة هوميروس التي ترد إلى ذهنه. يحطم الرمح عظام الصدر، يتدفق الدم، الأطراف متوترة، يتداعى الجسد كدمية خشبية. حسنًا، توترت أطرافه والآن تتوتر روحه أيضًا. روحه مستعدة للتداعي.

ماريانا اسم المرشحة الثانية التي رشحتها له مسز بوتس للعمل بانتظام، كرواتية الأصل، كما تخبره أثناء لقائهما، غادرت الأرض التي ولدتْ عليها منذ اثني عشر عامًا، تدربتْ في ألمانيا، في بيلِفِلد؛ حصلتْ منذ جاءت إلى أستراليا على ترخيص مُزاوَلة المهنة في جنوب أستراليا. وهي، بالإضافة إلى التمريض، تدير، بتعبيرها، «فائض الأموال». يعمل زوجها في مصنع لتجميع السيارات؛ يعيشان في مونُّو بارا، شمال إليزابيث، على بُعد نصف ساعة بالسيارة من المدينة. لهما ابن في المدرسة العليا، وابنة في المدرسة المتوسطة، وطفلة ثالثة لم تبلغ سن الالتحاق بالمدرسة.

ماريانا يوكتش امرأة شاحبة الوجه تبدو، إن لم تكن حقًّا، في منتصف العمر، ببعض السمنة حول الخصر، رزينة تمامًا. ترتدي زيًّا بلون زرقة السماء يستريح له بعد كل ذلك

البياض، وشارتين باهتتين على الذراعين؛ تتحدث بسرعة، بإنجليزية أسترالية تقريبًا مع ترخيم سلافي ونطق ملتبس لحرف الإيه وأداة التعريف، مهجنة بلهجة لا بد أنها تلتقطها من أبنائها، ولا بد أنهم يلتقطونها بدورهم من زملاء الدراسة. لغة لا يألفها؛ لكنه يحبها إلى حدٍّ ما.

ينص الاتفاق الذي توصل إليه مع مسز يوكتش، بتوسط مسز بوتس، على أن ترعاه ستة أيام في الأسبوع، من الإثنين إلى السبت، وتُقدِّم له في تلك الأيام كل ما تجيده من مهارات الرعاية. يعود في أيام الأحد إلى خدمة الطوارئ. لن تكتفي بتمريضه، ما دام قد بقيتْ قدراته على الحركة محدودة، بل ستهتم بكل احتياجاته اليومية؛ أي تشتري طلباته وتُعِد وجباته، وتقوم بما خَفَّ من أعمال النظافة.

لم تَعُد آماله عريضة في سيدة من البلقان بعد ورطة شينا، إلا أنه، في الأيام التالية، يَمْتنُّ بتحفظ لقدومها. يبدو أن مسز يوكتش (ماريانا) تتمتع بالقدرة على تخمين ما هو مُستعِد له وما هو غير مُستعِد له. لا تعامله كعجوز أحمق مرتجف ولكن كرجل أُعِيقَت حركته نتيجة إصابة. تساعده بصبر، وبدون اللجوء إلى الحديث الطفولي، في تنظيف نفسه. تختفي من أمامه حين يخبرها برغبته في أن يكون وحيدًا.

يستلقي؛ تفك الشيء، البتر، وتُحرِّك إصبعها على الجزء المكشوف منه. تقول: غُرَز رائعة. مَن خاط هذه الغُرَز؟

– دكتور هَنْسِن.

– هَنْسِن. لا أعرف هَنْسِن. لكنه بارع. جراح بارع.

ترفع البتر ببراعة بيد واحدة، وكأنه بطيخة. عمل بارع.

تصبِّنه وتغسله، يكشف الماء الدافئ عن تَورُّد قرنفلي وأبيض، يبدو أقرب شبهًا بأسماك المياه العميقة التي لا تُرَى منه بفخذ ملتئم؛ يشيح بعينيه.

يسأل: «هل ترين الكثير مما هو سيئ؟» تزم شفتيها، وتبعد يديها في إيماءة تذكِّره بأمه. تقول الإيماءة: ربما؛ على حسب.

– هل تَرَين الكثير من ... هذه؟ يمسُّ نفسه مسًّا خفيفًا بأنامله.

– بالتأكيد.

يهتم بملاحظة مَدى خُلُو الحوار من الفهم[١] المُتبادَل.

[١] بالفرنسية في الأصل.

بالنسبة له لا يدعوه البتر، لا يحب أن يدعوه بأي اسم؛ يود ألا يفكر فيه، وذلك مستحيل. إذا كان لا بد من اسم يدعوه به فهو فَخِذ الخنزير.[٢] فَخِذ الخنزير يبقيه على مسافة كافية تفوح منها رائحة الازدراء.

يقسِّمُ من يرتبطون به إلى فئتين: فئة صغيرة رآها، والبقية، تلك التي لن يراها أبدًا وهو مُمتَنٌّ لذلك. يُفاجَأ وكأنه أمر يثير الشفقة بأن ماريانا يجب أن تنضم مبكرًا جدًّا وبحسم تمامًا إلى الفئة الأولى.

يشكو لها: لَمْ أفهم أبدًا لماذا لَمْ يتركوا الرُّكبة؟ العظمة تلتئم حتى لو تَمزَّق المفصل، كان من الممكن بذل محاولة لإصلاحها، لو كنتُ أعرف الفرق الذي يعنيه فَقْد الركبة، ما كنتُ لأوافق أبدًا. لم يخبروني بشيء.

تَهزُّ ماريانا رأسها. تقول: إصلاح، جراحة بالغة الصعوبة. تحتاج سنوات في المستشفى وخارجها. لذلك، كما تعرف، لا يحبون إجراء عمليات إصلاح للمرضى المُسنِّين. للشباب فقط. ما الحكاية؟ إيه! ما الحكاية؟

تَضعُه ضمن المُسنِّين، أولئك الذين لا أهمية لإنقاذهم، إنقاذ مفصل الركبة أو إنقاذ الحياة، يحتار، أين يمكن أن تضع نَفْسَها؟ ضمن الشباب؟! غير المسنين؟! لا الشباب ولا المسنين؟! من لن تصيبهم الشيخوخة أبدًا؟!

نادرًا ما رأى إنسانًا يتفانى في واجباته مثلما تفعل ماريانا. القائمة التي تخرج بها من المحلات تأتي بفواتير مدبَّسة فيها، كل شيء على حدة، أو حين تغيِّر، تكتب بيد عالمها القديم النقي بآحاده المسننة والسبعات المعوجة والتسعات المعقوفة. تفوح من الوجبات التي تعد نكهة شهية للغاية.

حين يتصل به الأصدقاء للسؤال عن حالته، يشير إلى ماريانا ببساطة بوصفها ممرضة النهار. يقول: استخدمتُ ممرضة نهار ذات كفاءة عالية، تتسوق وتطبخ أيضًا.

لا يشير إليها باسم ماريانا مع أن الاسم يبدو شديد الألفة؛ حين يتحدثان يخاطبها دائمًا بمسز يوكتش، وتخاطبه بمستر ريمنت، لكن ليس لديه تَحفُّظ في أن يخاطبها بماريانا. يحب الاسم بمقاطعه الأربعة المشبعة القاطعة. يخاطب نفسه حين يشعر بغيوم الاكتئاب تعاوده: في الصباح ستكون ماريانا هنا، تماسكْ!

[٢] بالفرنسية في الأصل.

حتى الآن لا يعرف إن كان يحب ماريانا المرأة بقدر ما يحب اسمها، موضوعيًّا، لا تفتقر إلى الجاذبية. ولكن يبدو أنها تتمتع بالقدرة على قمع الجنس حين تكون برفقته. رشيقة، فعَّالة، مرحة. هذا هو الوجه الذي تُقدِّمه له، مستخدِمها، هذا هو الوجه الذي يدفع له ويجب أن يرضى عنه، هكذا يَتخَلَّى عن الغضب ويقهر الآلام ليلقاها بابتسامة، يَودُّ أن تعتقد أنه يَتقبَّل حظه العاثر بشجاعة؛ يَوَد أن تفكر فيه بشكل طيب وبكل احترام. إن كانت لا تعبث معه، فهو لا يراعي، هذا أفضل من الحديث المقنَّع بالحياء عن حمامته.

في صباح بعض الأيام تُحضِر معها طفلتها الصغرى، الابنة التي لم تلتحق بالمدرسة. مع أن الطفلة ولدتْ في أستراليا إلا أن اسمها ليوبا، ليوبيكا. يحب الاسم، ويمتدحه. بالروسية — تعني ليوبوف، إن لم يجانبه الصواب — الحب. كأن تسمي فتاة حبيبة أو الأفضل هيام.

تخبره بأن ابنها البكر بلغ السادسة عشرة. السادسة عشرة؟ لا بد أنها تَزوَّجَت صغيرة. ينشغل بمراجعة تقييمه لها. بالإضافة إلى أنها لا تفتقر إلى الجاذبية، تكون أحيانًا امرأة وسيمة حقًّا، ممشوقة، قوية، ذات شعر بني وعينين داكنتين، بشرتها زيتونية أكثر مما هي فاتحة؛ امرأة متناسقة، عريضة المنكبين، نافرة الثديين. يفكر في اصطياد كلمة إنجليزية تلمُّ بأوصافها، تيَّاهة. أسنانها صفراء من النيكوتين، وهذا عيبها الوحيد، تدخن بالطريقة الأوربية العتيقة، مع أنها تنسحب إلى البلكونة من أجله.

والفتاة الصغيرة جميلة حقًّا، بضفائر داكنة وجلد ناصع وعينين تلمعان بما لا يمكن إلا أن يكون ذكاءً. تشكل الاثنتان متجاورتين صورة جميلة. ينسجمان معًا أيضًا. وماريان تطبخ، تساعد الطفلةَ في صنع الكيك أو بسكويت الزنجبيل. من المطبخ يأتي لغط صوتيهما. الأم والابنة: تنتقل خصائص المرأة من جيل إلى جيل.

٥

تمر الأسابيع؛ يستقر في رعاية ماريانا. تساعده كل صباح في ممارسة التدريبات، تدلِّك عضلاته التي ضَمُرتْ والتي تضمر؛ بحكمة تساعده فيما لا يمكن أن يفعله دون مساعدة، فيما قد لا يتعلم أبدًا أن يفعله دون معونة. حين يكون في حالة مزاجية تسمح له بأن يسمع، تكون على استعداد للحديث عن عملها وخبرتها في أستراليا. حين ينسحب، تقنع بالصمت هي الأخرى.

انتهى منذ زمن أي حب كان يكنُّه لجسده ذات يوم. لا يولي شفاءه واستعادة بعض كفاءته أي اهتمام. الرجل الذي اعتاد أن يكونه مجرد ذكرى، ذكرى تشحب سريعًا. ما زال لديه إحساس بأنه روح بحياة روح غير منقوصة؛ وبالنسبة لما تبقى منه، يضطر إلى التحمل من أجل الدم والعظم فقط.

في مثل هذه الحالة، يكون مغريًا ترك الحياة تسير بكل اعتدال. لكنه يقاوم الإغراء. يفعل ما يستطيع للحفاظ على الأصول، وماريانا تدعمه. حين لا يستطيع تجنب العُرْي، يشيح بعينيه لترى أنه لا يرى أنها تراه. ما يجب أن يتم خفية تبذل أقصى ما عندها لتتأكد من أنه يتم خفية.

في كل ذلك يحاول أن يبقى رجلًا، وإن كان رجلًا منقوصًا؛ ولا يمكن أن تفهمه ماريانا، وتتعاطف معه بأوضح من ذلك. يندهش، أين اكتسبت هذه الكياسة، كياسة افتقر إليها أسلافها تمامًا؟ في بيلفلد في كلية التمريض؟ ربما؛ لكنه يرى بحدسه أنها من ينابيع أعمق. يفكر، امرأة مهذبة، مهذبة بمعنى الكلمة. من أفضل الأحداث التي مرت به، دخول ماريانا يوكتش في حياته.

تقول وهي تندفع بإبهاميها إلى عضلات الفخذ المبتور ببشاعة: أَخبِرْني إن كان ذلك يؤلمك. ليس هناك ألم أبدًا؛ وإن وجد الألم فهو أقرب إلى اللذة بحيث يستحيل عليه أن

يعرف الفرق. يفكر، تتمتع بحدس قوي. بحدس نقي وبسيط يبدو أنها تعرف ما يشعر به، والطريقة التي سيستجيب بها جسده.

رجل وامرأة بعد ظهيرة دافئة خلف أبواب مُغلَقة. ربما يمارسان الجنس أيضًا. لكن ليس هناك شيء من هذا القبيل. مُجرَّد تمريض، مجرد رعاية.

تطفو إلى ذهنه عبارة من درس ديني مَرَّ عليه نصف قرن: لن يكون هناك بعد الآن رجل وامرأة، لكن ... لكن ماذا؟ ماذا نكون حين لا نكون رجلًا وامرأة؟ يستحيل على الذهن الفاني أن يتصور سرًّا من الأسرار.

كلمات سان بول، إنه على يقين من ذلك، سان بول سَمِيُّه، تقديس اسمه، يشرح ما بعد الموت، حين يَتحاب الجميع حبًّا نقيًّا، كما يحب الرب، فقط دون افتراس أو استهلاك.

لم يكن، للأسف، كائنًا روحيًّا حتى اليوم، لكنه كان رجلًا من نوع ما، النوع الذي يفشل في تحقيق ما جُلِب الرجل إلى العالم ليحققه، يبحث عن نصفه الآخر، يلتصق بها، ويهبها بذرته، البذرة التي اكتشف برزر الوسيوس أنها بالاستعارة أو التأويل، يختلط عليه الأمر، كلمة الرب. إذن فهو رجل ليس رجلًا تامًّا، نصف رجل، رجل بَعْدِيٌّ، على وزن صورة بَعْدِيَّة؛ شبح رجل يتطلع إلى الوراء مُتحسِّرًا على زمن لم يُحسِن استغلالَه.

أنجب جده ريمنت ستة، وأنجب أبواه اثنين، ولم ينجب أحدًا. ستة، اثنان، واحد أو لا أحد، يرى التتابع المخزي يتكرر من حوله. اعتاد أن يعتقد أن له معنى، كان عدم الإنجاب، في العالم المكتظ بالسكان؛ مزية بالتأكيد، كالمسالمة، كالرفق. الآن، بالعكس، يرى عدم الإنجاب كالجنون، جنون قطيعٍ، وربما إثمًا. ماذا يمكن أن يكون أَسْمَى من مزيد من الحياة، مزيد من الأرواح؟ كيف تمتلئ السماء إذا توقفت الأرض عن إرسال حمولتها؟

حين يصل إلى البوابة، سيكون سان بول (بالنسبة للأرواح الأخرى الجديدة قد يكون بيتر لكن بالنسبة له سيكون بول) في انتظاره. سيقول: ارحمني يا أبتي لأني أثمتُ. وكيف أثِمْتَ يا بني؟ ولن يكون لديه ما يقوله بعد ذلك إلا أن يكشف عن يديه الخاويتين. سيقول بول: أنت تابع بائس، أنت تابع بائس، بائس. هل فهِمْتَ لماذا وُهِبتْ لك الحياة، أعظم الهبات على الإطلاق؟ وأنا على قيد الحياة لم أفهم، يا أبتي، لكني أفهم الآن، الآن متأخر جدًّا! وصَدِّقْني يا أبتي، أتحسَّر، أتحسَّر على نفسي، أعض أصابع الندم،[1] وبمرارة أيضًا

[1] بالفرنسية في الأصل.

— اعبر إذن — سيقول بول ويقف بجانبي: في بيت أبيك غُرَف للجميع، وحتى لنعجة وحيدة غبية.

كانت ماريانا ستصلح حاله، إن التقى بها في الوقت المناسب، ماريانا من كرواتيا الكاثوليكية. من عورة شخصين، ماريانا وزوجها، خرج ثلاثة، ثلاثة أرواح من أجل السماء. امرأة جُبِلتْ على الأمومة. كانت ماريانا ستساعده للتغلب على عدم الإنجاب. يمكن لماريانا أن تكون أمًّا لستة أو عشرة أو اثني عشر، ويبقى لديها مزيد من الحب، الحب الأمومي. لكن الوقت مُتأخِّر الآن، كم هو حزين! كم هو نادم!

٦

عاد من المستشفى بعكازين وشيء يُدعى إطار زيمر، وهو حامل بأربعة أرجل من الألومونيوم؛ ليستخدمه في الشقة. هذه الأدوات على سبيل الإعارة، يردها حين لا يكون في حاجة إليها؛ أي حين يتمكن من الحركة بشكل مقبول أو يرحل.

ثمة أجهزة أخرى مُساعِدة كان عليه أن يحصل عليها (يشرع في الاطلاع على أوراق الدعاية) تشمل جهازًا يضيف عجلات بفرامل أمان لإطار زيمر ذي الأربع زوايا، ومَرْكَبة مزوَّدة بمحرِّك يعمل بالبطارية وقضيب للتوجيه وغطاء للوقاية من المطر يمكن طيه، مصمَّم للحالات المتقدمة من العرج. إلا أنه إذا أراد أحد هذه الأجهزة الفاخرة فعليه شراؤها من ماله.

بمساعدة ماريانا حدث ما تحب أن تصفه بأن ساقه تفقد يومًا بعد يوم لونها الغاضب ومنظرها المتورِّم. يلازمه العكازان، مع أنه يشعر بأمان أكثر وهو يستعين بالإطار. حين يكون وحده يتجول على عكازيه من غرفة إلى أخرى، معتقدًا أن ذلك نوع من التدريب وهو في الحقيقة ليس إلا توترًا.

يزور المستشفى في مُتابَعات أسبوعية. في إحدى هذه الزيارات يستقل المصعد مع عجور محدودبة، معقوفة الأنف، لها بشرة متوسطية داكنة، تمسك بيدها نسخة أصغر منها، قصيرة، داكنة مثلها تقريبًا، تلبس قبعة عريضة الحواف ونظارة ضخمة تكفي لإخفاء النصف الأعلى من وجهها. أمامه مُتَّسَع من الوقت للتركيز على المرأة الأصغر قبل أن تَخرُجا، رائحة عطر الجردينيا الفوَّاح يملأ رئتيه، ويلاحظ، يا للعجب، أنها ترتدي ملابسها مقلوبة، وإرشادات الغسيل الجاف تبرز مثل راية صغيرة شجاعة.

بعد ساعة يلاحظ الاثنتين مرة أخرى، وهو في طريقه للخروج من المبنى، وهما تقضيان وقتًا عصيبًا مع الباب الدوَّار. وحين يصل إلى الشارع لا يرى إلا القبعة السوداء العريضة تتمايل وسط الزحام.

تبقى صورتهما معه، الحيزبون تقود الأميرة وقد ارتدت ثيابها على عجل في سرنمة ساحرة، لم تكن صغيرة بما يكفي للقيام بدور الأميرة، ربما، إلا أنها، لحمها بَضٌّ، صغيرة، نافرة الثديين، من النساء اللائي يتخيل أنهن يهجعن حتى الظهيرة ثم يفطرن على بنبون يُقدِّمه خادم صغير بعمامة على طبق من الفضة. ماذا يمكن أن تكون قد فعلتْ بوجهها حتى تحتاج إلى إخفائه؟

أول امرأة تثيره جنسيًّا منذ الحادث، يراها في حلم بصورة ما مع أنها لم تكشف عن نفسها. في صمت مطبق تنشق الأرض فتعدو باتجاهه، تهب زوبعتان من الرماد في الهواء، يحاول الجري لكن ساقيه لا تتحركان، يهمس: النجدة! بعيون سوداء لا ترى، ترمقه الحيزبون، تتفحصه. من وقت لآخر تغمغم بكلمة لا يلتقطها، كلمة من قبيل تُمْدِرُم. تتصدع الأرض تحت قدميه، يغطس.

تتصل به مارجريت مكُّورد، تعتذر لأنها لم تكن بجانبه، كانت خارج البلدة. هل يمكن أن ترافقه على الغداء ربما يوم الأحد؟ يمكنهما الخروج إلى وادي بَرُسَّا. لسوء الحظ لن يستطيع زوجها أن يرافقهما؛ إنه فيما وراء البحار.

يردُّ، بودِّه أن يأتي، لكنه للأسف، يرى أن قطع مسافة طويلة بالسيارة نوع من العذاب النفسي.

تقول: آتيك إذن في زيارة قصيرة؟

منذ سنوات، بعد طلاقه، نشأت بينه وبين مارجريت علاقة غرامية قصيرة، وتزعم مارجريت، وهو لا يثق فيها بالضرورة، أنَّ زوجها لا يعرف شيئًا عن تلك العلاقات الغرامية.

يرد: لماذا لا؟ تعالي يوم الأحد. تعالي على العشاء. لديَّ كنِّلُّوني رائع أَعَدَّتْه شغالتي.

يتناولان الطعام في البلكونة، في مساء مائل للبرودة، وسط تغريد الطيور، وشموع عطرية تتأرجح على الطاولة. يوجد قدر من التحفظ؛ ما جرى بينهما ذات يوم لا يُنسى أبدًا. لا تأتي مارجريت على ذكر الزوج الغائب.

يحدِّث مارجريت عن الوقت الذي قضاه في رعاية شينا؛ يحدثها عن مسز بوتس، الأخصائية الاجتماعية التي هيأته للحياة التالية بكل شيء إلا الجنس، وهو موضوع رأَتْ أنها أكثر اعتدالًا من أن تطرقه، أو ربما ظنَّت أنه لا يليق برجل في عمره.

تسأل مارجريت: ألا يليق؟ بصراحة؟

يرد، بصراحة، لا يعرف حتى الآن. ليس عاجزًا، إن كان ذلك هو ما تسأل عنه، العمود الفقري لم يصب بسوء، والوصلات العصبية المعنيَّة أيضًا. السؤال الذي ظل بلا إجابة حتى الآن هو إن كان يستطيع القيام بالحركات اللازمة لشريك نشط في علاقة جنسية، السؤال الثاني وهو على صلة بالأول، إن كان الارتباك والخجل سيطغيان على اللذة.

تقول مارجريت: قد تكوَّن لديَّ فكرة عن الظروف التي قد تجعلك تعتذر عن القيام بدور الشريك الإيجابي. وبالنسبة لسؤالك الثاني، كيف تعرف إن لم تجرِّبْ؟ ولماذا ترتبك؟ لسْتَ مصابًا بالجذام، أنت مبتور الساق ليس إلا. يمكن أن يكون مبتور الساق رومانسيًّا. تأمل كل أفلام الحروب، الرجال العائدون من الجبهة بضمادات على العيون أو أكمام خاوية مثبتة على صدورهم أو على عكاكيز. وقد ارتمت النساء فوقهم منتشيات.

يردد: مبتور الساق ليس إلا.

– نعم. كنتَ ضحية حادث، تصادم. لا شيء يُخجِل، لا لوم عليك. ثم بُترتْ ساقك. جزء من ساق. جزء من جزء من الجسد الغبي. هذا كل شيء. ما زلْتَ محتفظًا بصحتك. ما زلْتَ كما كنْتَ، أنت الرجل الوسيم، صحيح البدن كما كنت دائمًا. تبتسم له.

يمكن أن يُجرِّبا في غرفة النوم في الحال، يُجرِّب الاثنان معًا إن كان نفس الرجل كما كان دائمًا، يُجرِّبَان إن كانت اللذة يمكن أن تتفوق على ما عداها حتى مع فَقْد جزء من الجسد. لن تنفر مارجريت منه، إنه على يقين من ذلك. وتمر اللحظة ولا يقتنصانها؛ لأنه استغرق في تأمُّل ما كان، لا يميل إلى أن يصبح موضوعًا لإحسان جنسي من أية امرأة، مَهما تكن حَسنَة الطباع، ولا يميل إلى أن يكون عُرضَة لتحديق أي دخيل، حتى لو كانت صديقة من الأيام الخوالي، وحتى إن ادَّعتْ أنها ترى أن مبتور الساق رومانسي، بجسده الجديد الكريه؛ أي ليس فقط بالفخذ المبتور المحمرِّ ولكن أيضًا بالعضلات المرتخية والكرش الصغير القذر الذي انتفخ فوق بطنه، إذا قُدِّر له أن يذهب مرة أخرى إلى السرير مع امرأة، فلا بد من التأكد أن ذلك سيكون في الظلام.

في اليوم التالي، يخبر ماريانا: كانت عندي زائرة.

تقول ماريانا: نعم؟

يندفع بصورة مروِّعة: قد تكون هناك زائرات أخريات. أعني نساء.

تستفهم ماريانا: ليعشن معك؟

ليعشن معه؟ لم تخطر الفكرة على باله أبدًا. يرد: بالطبع لا، مجرد صديقات، نسوة صديقات.

تقول: رائع، وتشغِّل المكنسة.

يبدو أن ماريانا لا تبالي بمسألة وجود نساء معه في الشقة. ما يقدم عليه ليس من اختصاصها. وعلى أية حال على ماذا يمكن أن يُقدِم؟

لم تَرَه ماريانا أبدًا، على عكس مارجريت، بالصورة التي كان عليها. إنه بالنسبة لها ليس إلا آخر زبون، عجوز شاحب، واهن العضلات، يمشي على عكازين. إلا أنه يخجل أمام ماريانا، وأمام ابنتها أيضًا، وكأن الصحة الطيبة المتوردة التي تتمتع بها الأم والنقاء الملائكي الذي تتمتع به الطفلة يُصدِرَان عليه حكمًا ملزمًا. يكتشف أنه يتجنب نظرات الطفلة، مختبئًا في مقعده في ركن من غرفة المعيشة، وكأن الشقة تخص المرأتين وهو حشرة، جرذ تسلل إليها.

تبعث زيارة مارجريت سلسلة من أحلام اليقظة حول النساء، كلها أحلام ذات صبغة جنسية؛ في أحدها مارس هو وامرأة أقصى ما يمكن أن يُمارَس في السرير. في هذه الأحلام لا يُذكَر جسده الجديد المتغير، ولا يُرى؛ كل شيء على ما يرام، كل شيء كما كان، لكن المرأة التي معه ليست مارجريت. إنها، غالبًا، تلك المرأة التي رآها في المصعد، المرأة ذات النظارة القاتمة والملابس المقلوبة. يقول لها: فستانك، دعيني أساعدكِ في عدله. ترفع يدها وتخلع النظارة. تقول: نعم. صوتها خفيض، وعيناها حوضان داكنان يغطس فيهما.

٧

في الوظيفة لا تضع ماريانا كاب المرضات بل تضع وشاحًا للرأس، كأي ربة بيت طيبة من البلقان. يستحسن الوشاح، كما يستحسن كل علامة من العالم القديم لا تتخلى عنها لصالح العالم الجديد.

باستثناء مجرمي الحرب ولاعب التنس الطويل صاحب ضربة البداية القوية والذي يفرُّ اسمُه منه (إيليا؟ إيلتش؟ رومان إيلتش؟) يبقى الكروات جماعة مجهولة بالنسبة له. اليوغسلاف قضية أخرى، لا بد أنه التقى بعدد كبير من اليوغسلاف حين كان هناك يوغسلاف؛ لكن لم يسألْ بالطبع أحدهم عن الجماعة التي ينتمي إليها.

أين تقع ماريانا في صورة اليوغسلاف، ماريانا وزوجها الذي يعمل في تجميع السيارات؟ مِمَّ كانَا يفرَّان حين فرَّا من وطنها القديم؟ أم إن المسألة لا تعدو أنهما اعتَلَّا وتَعِبَا من النزاعات فحزَمَا حقائبهما وعَبَرَا الحدود بحثًا عن حياة أفضل وأسلم؟ وإن لم توجد الحياة الأفضل والأسلم في أستراليا، فأين توجد؟

تُحدِّثه ماريانا عن ابنها، اسمه دراجو، ويُعرَف بين رفاقه باسم ياج، بلغ السادسة عشرة للتو، واشترى زوجها لدراجو موتوسيكلًا، وترى ماريانا أنه خطأ كبير، الآن يبقى دراجو خارج البيت كل مساء، ويهمل واجباته، وينسى وجباته. ينطلق هو ورفاقه على الطرق الخلفية، يتسابقون، وينزلقون، ويعلم الرب أي شيء آخر يأتون. تخشى أن ينكسر أحد أطرافه، وتخشى الأسوأ.

يقول لماريانا: ابنك شاب. يختبر نفسه، لا يمكن أن تمنعي الشباب من اكتشاف حدودهم، يريدون أن يكونوا الأسرع، يريدون أن يكونوا الأقوى، يريدون أن يحظوا بالإعجاب.

لم يقابلْ دراجو أبدًا، وقد لا يقابله، لكنه ينعم بأداء ماريانا، ينعم بشفافيتها؛ تحسن التصرف حتى إنها لا تتباهى بابنها، بل تشكو من عناده واستهتاره، انغماسه في مباهج الحياة،[1] ومن أنه سيكون وراء انهيارها.

يقترح عليها بصورة تخلو من الجدية: إذا أردْتِ أن ترعبي دراجو، أحضريه إلى هنا ذات يوم. وسأريه ساقي.

– تعتقد أنه سيسمع الكلام، مستر ريمنت؟ سيقول لا شيء، مجرد حادث دراجة.

– سأريه ما حدث للدراجة أيضًا.

ما زال يحتفظ بالدراجة في مخزن أسفل السلم، طُبِّقت العجلة الخلفية على بعضها، والتصقت المساند بالفرامل، لم يهتم أحد بسرقتها، ذاك اليوم على طريق مَجيل، مع أنها ظَلَّت مُلقاة على جانب الطريق حتى المساء. ثم أخذها رجال البوليس إلى القسم. أنقذوا أيضًا الصندوق البلاستيك الذي حُزِم مع موزع الصحف بالإضافة إلى بعض أشياء الدعاية الصباحية: علبة من الحمص بها انبعاجة، وربع كيلو من جبن البري التي ذُوِّبت في الشمس ثم تخثرت. احتفظ بالعلبة على سبيل التذكار، تذكار الموت. احتفظ بها على رَفٍّ في المطبخ. يخبر ماريانا بأنه سيُري العلبة لدراجو. سيقول له: تَخَيَّل لو أن هذه كانت جمجمتك. ثم: تخلَّ عن الفكرة من أجل أمك؛ إنها قلقة عليك. إنها امرأة طيبة. تتمنى لك حياة طويلة وسعيدة. أو ربما لا يقول له إنها امرأة طيبة؛ إذا كان ابنها لا يعرف، فمن يكون هو، ذاك الغريب، ليخبره بذلك؟

في اليوم التالي تحضر ماريانا صورة: دراجو يقف بجوار الموتوسيكل، ينتعل بوتًا ويرتدي الجينز الضيق، وفي يده خوذة مزيَّنة بسهم برَّاق، طويل وضخم بالنسبة لفتًى في السادسة عشرة، ابتسامته فاتنة. قارب أحلام، كما اعتادت الفتيات أن يقلن في الأيام الغابرة، بالضبط مثلما فَهِم من أمِّه. لا شك أنه سيحطم الكثير من القلوب.

يسأل: ماذا عن خطط ابنك؟

– يريد الالتحاق بأكاديمية قوات الدفاع. يريد الانضمام إلى الأسطول. يمكن أن يحصل على منحة.

– وابنتكِ، ابنتك الكبرى؟

– آه، إنها أصغر من تخطط، رأسها محلق في السماء.

---

[1] بالفرنسية في الأصل.

الآن جاء دورها لتطرح عليه سؤالًا، سؤالًا تأخر كثيرًا بصورة تدعو للدهشة: أليس لك أبناء، مستر ريمنت؟

– لا، للأسف لا. لم نُبالِ بذلك، أنا وزوجتي. كانت هناك أشياء أخرى في عقولنا، طموحات أخرى. وقبل أن ندرك الأمر وقع الطلاق.

– ولم يقلقك أبدًا بعد ذلك؟

– على العكس. أقلقني أكثر وأكثر، خاصة كلما مر بي العمر.

– وزوجتك؟ ألم يقلقها ذلك؟

– زوجتي تزوجت مرة أخرى. تزوجتْ من مطلِّق له أطفال. رُزقا بطفل وأصبحت عائلتهما من تلك العائلات الحديثة المُعقَّدة التي ينادي فيها كل منهم الآخر بالاسم الأول. وبالتالي، لا تقلق زوجتي لأننا بلا أبناء، لأني بلا أبناء. زوجتي السابقة، لم يَعُد لي أي اتصال بها؛ لم تكن زيجة سعيدة.

هذا كله، كل ما يدور بينهما، في نطاق المباح، في نطاق الشخصي العام. محادثة بين رجل وامرأة، امرأة تصادف أنها ممرضة لرجل وتساعده في التسوق والتنظيف وتعاونه في الأمور العامة، يتعارفان بصورة أفضل في بلاد يتساوى فيها كل الأشخاص وكل المعتقدات، ماريانا كاثوليكية. وهو لم يَعُد أي شيء. لكن في هذه البلاد يتساوى المرء بالآخر، الكاثوليكية واللا شيء. قد تزدري ماريانا أناسًا مُتزوِّجِين أو غير مُتزوِّجِين لكنها لم تقترب أبدًا ممن لهم أطفال، وتعرف بما يكفي كيف تحفظ شعورها بالازدراء داخلها.

– إذن مَنْ سيتولى رِعايَتَك؟

سؤال غريب. الرد الواضح هو: أنتِ، ستتولين رعايتي، في المستقبل القريب، أنتِ أو أي واحدة أخرى أستخدمها لهذه الغاية. ولكن من المفترض أن هناك طريقة ألطف لتفسير السؤال من قبيل مَنْ سيكون عونًا لك وسندًا؟ على سبيل المثال.

يرد: أوه، سأرعى نفسي، لا أتوقع شيخوخة طويلة.

– لك أسرة في أدليد؟

– لا، ليس في أدليد. لي أسرة في أوروبا، على ما أظن، لكني فقدتُ الاتصال بأفرادها منذ فترة طويلة. ولِدْتُ في فرنسا. ألم أخبرك؟ جئتُ إلى أستراليا مع أبي وأمي وأنا طفل. أنا وأختي. كنتُ في السادسة. وكانت أختي في التاسعة. ماتتْ. ماتتْ مبكرًا بالسرطان، وهكذا لا، ليس لي أسرة ترعاني.

يتركان، هو وماريانا، عند هذه النقطة، تَبادُل الخصوصيات. لكن صدى سؤالها يتردد في ذهنه. من سيتولى رعايتك؟ كلما أمعن النظر في جملة يتولى رعايتك، كلما بدت أكثر

إبهامًا. يتذكر كلبًا كان لهما، وهو طفل في لُرْدِز، يستلقي في سلته في أقصى درجات اعتلال المزاج الكلبي، يعوي بلا توقف، خطمه ساخن وجاف، وأطرافه تنتفض. قال أبوه عند نقطة معينة: حسن، أنا مشغول،[٢] والتقط الكلب والسلة معًا، وخرج من البيت. بعد خمس دقائق سمع، من الغابة، صوت طلق ناري مكتومًا، وكان هذا كل شيء، لم ير الكلب بعد ذلك أبدًا. أنا مشغول:[٣] سأتولى أمره؛ سأتولى رعايته؛ سأفعل ما يجب. ذلك النوع من الرعاية، بطلق ناري، ليس هو بالتأكيد ما كان في ذهن ماريانا. إلا أنه يبقى متجسدًا في العبارة، في انتظار أن يتسرب. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا عن ردِّه: سأتولى رعاية نفسي؟ ماذا تعني كلماته بشكل موضوعي؟ هل كان تولي الرعاية، العناية التي تحدث عنها، يمتد إلى ارتداء أفضل الثياب وابتلاع مخبأ الأقراص، اثنين في كل مرة، بكوب لبن ساخن، والاستلقاء في السرير ويداه مطويتان على صدره؟

يشعر بالكثير من الحسرات، إنه مفعم بالحسرات، تعود ليلًا كالطيور الجاثمة. أهمها حسرته لأنه بدون ابن. قد يكون جميلًا أن تكون له ابنة، للبنات رونق خاص، لكن الابن الذي لم يرزق به هو ما يفتقده حقًّا. لو أنه رزق هو وأنْريت بابن في الحال، وكل منهما يحب الآخر، أو وكل منهما مفتون بالآخر، أو وكل منهما يرعى الآخر، لكان ذلك الابن في الثلاثين الآن، رجلًا حقًّا. ربما يستحيل تخيل ذلك، لكن ما يستحيل تخيله يوجد لنتخيله. تخيل الاثنين، الأب والابن، يتمشيان، ويتحدثان في شتى المواضيع، حديث رجال، لا شيء يهم. في سياق ذلك الحديث قد يبدي ملاحظة، واحدة من الملاحظات الملتوية التي قد يلجأ إليها الناس حين تستعصي عليهم الكلمات الصادقة، من بينها حين يحين الرحيل. كان ابنه، ابنه الخيالي والمتخيَّل، سيفهم في الحال: لا تنشغل بالأعباء، لا تنشغل بالتعاقب، يا له من يوم. كان ابنه، سواء اسمه وليم أو روبرت أو أي اسم آخر، سيقول: آه، يعني نعم، أوافق. قمْتَ بمهمتكَ، اعتنيْتَ بي، الآن حان دوري. سأتولى رعايتك.

ليس خارج نطاق الممكن أن يكون له ابن، حتى في هذه اللحظة المتأخرة. يمكن، مثلًا، أن يعثر (ولكن كيف؟) على يتيم مشاكس، من قبيل واين بلايت جنينًا ويقدم عرضًا لتَبَنِّيهِ، على أمل أن يحصل على الموافَقة؛ مع أن احتمال أن يسلِّم نظام الرفاهية، ممثَّلًا في مسز بوتس، طفلًا ليرعاه عجوز وحيد مُقعَد؛ صفر، أقل من الصفر. أو يمكن أن يعثر (كيف؟)

---

[٢] بالفرنسية في الأصل.

[٣] بالفرنسية في الأصل.

على شابَّة خصبة، ويتزوجها أو يدفع لها أو يغريها ليكون له، أو يحاول أن يكون له ولد من رحمها.

لكنه لا يريد طفلًا. يريد ابنًا، ابنًا حقيقيًّا، ابنًا وريثًا، نسخةً منه أصغر وأقوى وأفضل.

حمامته. قالت شينا في وقتها الخاص معه: إن كنتَ تريد أن أغسل حمامتك، فعليك أن تطلب. هل لحمامته وعوراته المستنزَفة القدرة التي تجعله أبًا لطفل؟ هل لديه البذرة، والشهوة الحيوانية الكافية لدفع البذرة إلى المكان المناسب؟ يبدو أن السِّجِل لا يشير إلى ذلك. يبدو أن السِّجِل يشير إلى أن التدفقات الشهوانية ليست جزءًا من طبيعته، رقة صافية، حسِّيَّةٌ معتدلة وإن تكن مُرْضيةً. ذاك ما سوف تتذكره عنه مارجريت مكُّورد، هي ونساء الأخريات، ليس من بينهن زوجته. كعاشق فهو كَلْبِي إلى حدٍّ ما في الحقيقة: ليست الكلمة التي يعجب بها لكنها كلمة معبِّرة. رجل يجيد العناق في أمسية باردة؛ صديق تنسين نفسك حين تذهبين معه إلى السرير، وتحتارين بعد ذلك متسائلة إن كان ذلك قد حدث حقًّا.

الخلاصة، ليس رجلًا شهوانيًّا. ليس متأكدًا من أنه أحبَّ الشهوانية ذات يوم، أو استساغها. الشهوانية: منطقة غريبة؛ بَلْوَى هزلية لا يمكن تفاديها كالتهاب الغُدَّة النكفية، يتمنى المرء أن يصاب بها وهو صغير، بصورة معتدِلة وأقل خطورة، حتى لا تصيبه بعد ذلك بصورة أخطر. يكشِّر سوء الطالع على وجوه الكلاب وهي في قبضة التزاوج الشهواني، وتتدلى ألسنتهم.

٨

– هل تريد أن أنفض الغبار عن كتبك؟

الحادية عشرة صباحًا، ويبدو أن ماريانا قد انتهت من القيام بمهامها.

– نعم، إن أحببْتِ. يمكن أن تمرري فوهة المكنسة عليها.

تهز رأسها: لا، أنظفها جيدًا. أنت حافظ كتب، لا تريد غبارًا على الكتب. أنت حافظ كتب، نعم؟

حافظ كتب، هل هذا ما يصفون به مَن هم على شاكلته في كرواتيا؟ ماذا يمكن أن تعني، حافظ كتب؟ رجل يحفظ الكتب من النسيان؟ رجل يلتصق بكتب لا يقرؤها أبدًا؟ غرفة مكتبه مرصوصة من الأرض إلى السقف بكتب لن يفتحها مرة أخرى، ليس لأنها ليست جديرة بالقراءة بل لأن أيامه في سبيلها إلى النهاية.

– جامع كتب، هذا ما نقوله هنا. حتى تلك الرفوف الثلاثة، من هنا إلى هنا، تعتبر جمعًا حقيقيًّا، تلك هي كتبي عن التصوير الفوتوغرافي. الباقي كتب عامة أو كتب للتسلية. لا، إن كنتُ قد حفظتُ شيئًا فهي الصور الفوتوغرافية، وليس الكتب. أحتفظ بها في تلك الخزائن. هل تريدين رؤيتها؟

في خزانتين من طراز قديم مصنوعتين من خشب الأرز يضع مئات الصور الفوتوغرافية والبطاقات البريدية عن الحياة في معسكرات التَّعدِين القديمة في فيكتوريا وجنوب ويلز الجديدة. توجد أيضًا حفنة من جنوب أستراليا؛ ولأن المجال ليس شائعًا وقد يكون محدودًا للغاية، فقد تكون مجموعته هي الأفضل في البلاد، وربما في العالم.

– بدأتُ حفظها في السبعينيات، حين كان الجيل الأول من الصور الفوتوغرافية متاحًا. وحين كان لي قلب للذهاب إلى المزادات. تناقضت الأوضاع. ربما تحبطني بشدة الآن.

يعرض لها مجموعة الصور الفوتوغرافية التي تمثل قلب مجموعته، تصور زيارة المُصوِّر لبعض عمال المناجم وهم في أبهى ثيابهم. بينما قنع آخرون بقميص نظيف بأكمام مطوية تكشف عن سواعدهم المفتولة، وربما وِشَاح نظيف. يواجهون الكاميرا بنظرة كلها ثقة ووقار، نظرة طبيعية لرجال في عيد فيكتوريا، يبدو أنها قد تلاشت الآن من على وجه الأرض.

يعرض صورتين من صور فوشي. يقول: انظري هاتين. من تصوير أنتوني فوشي. مات صغيرًا، ولو امتد به العمر فربما كان واحدًا من أعظم المصوِّرين. بجانبهما يعرض بعض البطاقات البريدية البذيئة: لِيل تعرض جزءًا كبيرًا من الفخذ وهي تنتزع رباط الجورب؛ فلورا، في قميص نوم مبتذل، تبتسم بحياء على كتفٍ عارٍ ممتلئ. بنات يزورهن كل من هب ودب، منتعشين بالإعجاب، مُزوَّدِين بالأموال، في ليالي السبت من أجل شيء تعرفين ما هو.

تقول ماريانا بعد أن ينتهي من عرض الصور: إذن هذا هو ما تفعله. رائع، رائع. رائع أن تحفظ التاريخ. حتى لا يظن الناس أن أستراليا بلاد بلا تاريخ، مجرد دغل وحشود من الجماهير. مثلي. مثلنا. خلعَتْ وِشَاح الرأس، تفرد شعرها، إلى الخلف، وتبتسم له.

مثلنا. من نحن؟ ماريانا وعائلة يوكتش؛ أم هو وماريانا؟

يقول بتحفظ: لم تكن مجرد دغل يا ماريانا.

– لا، بالطبع، ليست دغلًا، هناك السكان الأصليون. لكني أتحدث عن أوروبا، دغل، ثم جاء الكابتن كوك، ثم المهاجرون، يقولون: أين التاريخ؟

– تقصدين أين القلاع والكاتدرائيات؟ أليس للمهاجرين تاريخهم؟ هل تصبحين بلا تاريخ حين تنتقلين من نقطة إلى أخرى على الكرة الأرضية؟

لا تبالي بالتعنيف، إذا كان الأمر كذلك. في أوروبا يقول الناس أستراليا بلا تاريخ؛ لأن كل مَن في أستراليا أناس جدد، لا يهتمون بأي تاريخ تأتي، تبدأ في أستراليا من الصفر. التاريخ صفر، هل تفهمني؟ هذا ما يقوله الناس في بلادي، وفي ألمانيا أيضًا، وفي أوروبا كلها. يقولون، لماذا تريد الذهاب إلى أستراليا؟ كأنك تذهب إلى الصحراء، إلى قَطَر، إلى البلاد العربية، بلاد النفط. يقولون، تفعل ذلك من أجل الفلوس فقط؛ ولذا فمن المناسب أن يحتفظ شخص بصور فوتوغرافية قديمة، توضِّح أن أستراليا لها تاريخ، أيضًا. لكنها، هذه الصور الفوتوغرافية تساوي الكثير من المال، إيه؟

– نعم، تساوي المال.

– إذن هل تعرف إلى من ستئول من بعدك؟

– تَقْصدِين بعد رحيلي؟ ستئول إلى مكتبة الولاية. تم ترتيب كل شيء. مكتبة الولاية هنا في أدليد.

– لن تَبيعَها؟

– لا، لن أَبيعَها، ستكون إرثًا للمكتبة بوصية.

– لكنهم سيضعون اسمك عليها، إيه؟

– سيضعون اسمي على المجموعة بالتأكيد. وصية ريمنت. وسيهمس الأطفال في المستقبل، «من هو ريمنت صاحب وصية ريمنت؟ هل كان شهيرًا؟»

– لكن قد يضعون صورة فوتوغرافية أيضًا، إيه، ليس الاسم فقط؟ الصورة الفوتوغرافية ليست كالاسم، أكثر حياة. وإلا لماذا نحتفظ بالصور الفوتوغرافية؟

لا شك في ذلك، أصابت الحقيقة. إذا كانت الأسماء في قيمة الصور، فلماذا ننشغل بالاحتفاظ بالصور؟ لماذا نحتفظ بصور ضوئية لعمال المناجم المَيِّتِين؟ لماذا لا نكتفي بكتابة أسمائهم وعرض القائمة في إطار زجاجي؟

يقول: سأطلب ذلك من القائمِين على المكتبة، وأعرف موقفهم من الفكرة. لكن لن تكون صورتي كما أنا الآن، وقَانَا الرب ذلك. كما كنتُ.

إزالة الغبار من فوق الكتب، عمل روتيني قامت به الشغالة في الماضي بتمرير منفضة من الريش على ظهر الكتب، لكن ماريانا تشرع فيه وكأنه عملية كبرى. تغطي المنضدة والخزائن بالجرائد؛ ثم تحمل الكتب، نصف رف في كل مرة، إلى البلكونة وتنفض كتابًا كتابًا، وتنظف الأرفف الخالية تمامًا.

يقول بعصبية: تأكدي أن هذه الكتب سترجع بنفس الترتيب.

ترمقه بنظرة تحمل من السخرية ما يجعله يتراجع.

من أين تحصل المرأة على هذه الطاقة؟ هل تدير بيتها بنفس القواعد؟ كيف يتعامل مستر يوكتش مع ذلك؟ أم إن هذا من أجل عيونه فقط، عيون رئيسها الأسترالي؛ لتوضح مدى استعدادها للتضحية في سبيل وطنها الجديد؟

في يوم تنفيض الكتب، يتحول ما كان اهتمامًا معتدلًا بماريانا، وهو اهتمام لم يَزِد عن كونه نوعًا من الفضول، يتحول إلى شيء آخر. بدأ يرى فيها، إن لم يكن الجمال فعلى الأقل نوعًا مُعيَّنًا من الكمال الأنثوي. قوية كالحصان، يفكر، مراقبًا السمانَتَين القويتين والعَجُزَين المتماسكتين جيدًا ترتجان حين تصل إلى الرفوف العليا. قوية كالفرس.

هل بدأ يستقر ما كان يحلق في الهواء في الأسابيع الأخيرة، لعدم وجود الأفضل، على ماريانا؟ وما اسم هذا المترسِّب، هذه العاطفة؟ لا تبدو كالرغبة. إذا كان لا بد من أن

يصفها بكلمة، فربما كانت الإعجاب. هل تنمو الرغبة بمنأًى عن الإعجاب، أم إن الاثنين من فصيلتين منفصلتين تمامًا؟ ماذا يمكن أن يكون استلقاء المرء جنبًا إلى جنب، عاريًا، صدرًا إلى صدر، مع امرأة يُعجَب بها؟

ليست مجرد امرأة، امرأة متزوجة أيضًا، لا يجب أن ينسى ذلك، ليس بعيدًا عن هنا يعيش مستر ماريانا يوكتش ويتنفس. هل يثور مستر يوكتش، أو بان يوكتش أو جُسْبودِن يوكتش أو مَهما يكن اسمه، غاضبًا إذا اكتشف أن مستخدِم زوجته انغمس في أحلام يقظة عن وضع صدره إلى صدرها؛ يغضب غضبة من الغضب البلقاني الأصيل الذي يولِّد الضغائن العشائرية والقصائد الملحمية؟ هل يتتبعه مستر يوكتش بسكين؟

يسخر من يوكتش؛ لأنه يحسده. حين تُوزَّع الحظوظ، يحظى يوكتش بهذه المرأة الرائعة ولا يحظى بها هو. لا يحظى يوكتش بها وحدها، يحظى أيضًا بأطفال يأتون معها، يخرجون منها. ليوبيكا الطفلة الجميلة؛ الابنة الوسطى المُزعِجة وهي بلا شك لا تقلُّ عنها جمالًا، الابنة التي لا يتذكر اسمها؟ والولد المتهوِّر صاحب الموتوسيكل. يحظى يوكتش بهم جميعًا بينما يحظى هو، بماذا؟ شقة مليئة بالكتب والأثاث. مجموعة الصور الفوتوغرافية، صور الموتى، التي سيغطيها الغبار بعد موته في بدروم مكتبة مع بعض الهِبَات الأخرى التافهة التي تزعج المفهرسين بأكثر مما تستحق.

من بين صور فوشي التي لم يعرضها على ماريانا الصورة الأعمق تأثيرًا فيه. صورة امرأة وستة أطفال متجمعين في مدخل كوخ من الوحل والقضبان. ويمكن القول إنها قد تكون لأم وستة أطفال، وقد لا تكون الفتاة الكبرى ابنة على الإطلاق بل امرأة ثانية، زوجة ثانية، جاءت لتحتل مكان الأولى، التي تبدو وقد نضبت فيها الحياة وأُنهكَتْ أعضاؤها.

يرتسم على وجوههم جميعًا نفس التعبير: ليس تعبيرًا عدوانيًّا مع غريب بآلة تصوير تم تحديثها وقد دس رأسه قبل هذا اللحظة ببرهة تحت الثوب القاتم، لكنهم ارتعبوا، وتجمدوا كالثيران على بوابة المذبح. يظهرهم الضوء بوجوه منبسطة، ويلتقط كل بقعة على جلودهم وملابسهم. يكشف الضوء على اليد التي يضعها أصغر الأطفال على فمه عما قد يكون مُربَّى لكنه على الأرجح وحل. كيف تم كل ذلك بنجاح رغم الوقفة الطويلة التي كانت مطلوبة في تلك الأيام، لا يمكنه حتى أن يخمِّن.

ليست مجرد أدغال، يودُّ لو يخبر ماريانا. ليست مجرد سكان بدائيين. تاريخها ليس صفرًا. انظري، من هنا نأتي، من البرد والرطوبة والدخان في هذا الكوخ القذر، من أولئك النسوة بعيونهن السود اليائسة، من ذلك الفقر والعمل الشاق على بطون خاوية. أناس لهم قصتهم وماضيهم. قصتنا، ماضينا.

لكن هل هذه هي الحقيقة؟ هل تَقْبله المرأة التي في الصورة كواحد من عشيرتها، ولدٌ من لُرْدِز في جبال البرانس الفرنسية، كانت أمه تعزف فوريه على البيانو؟ هل التاريخ الذي يريد الآن أن ينتسب إليه لم يعد إلا شأنًا يخص الإنجليز والأيرلنديين، ولا يخص الغرباء؟

يبدو أنه، رغم حضور ماريانا المؤثر، على شفا نوبة من نوباته السيئة مرة أخرى، نوبة من نوبات الشفقة الكئيبة على النفس، التي تتحول إلى مزاج سوداوي. يودُّ لو يعتقد أنها تأتي من مكان آخر، أحداث المناخ السيئ التي تعبر السماء وترحل. يفضل ألا يعتقد أنها تأتي من داخله وأنها تخصه، أنها جزء منه.

يوزِّع القدر عليك أوراق اللعبة، وتلعب بالورق الذي جاء من نصيبك. لا تئن، لا تَشْكُ. هذا ما كان يعتقده، فلسفته. لماذا إذن لا يستطيع مقاومة نوبات الانغماس في العتمة؟

الإجابة هي أنه يتدهور، لن يعود أبدًا إلى ذاته القديمة مرة أخرى. لن يستعيد مرونته القديمة أبدًا. مَهما يكن ما بداخله فإن مُهِمَّةَ إصلاح الكائن بعد الاعتداء عليه بهذه الصورة المرعبة، على الطريق أولًا، ثم في غرفة العمليات، تضخمت بصورة لا يمكن القيام بها، صارت عبئًا زائدًا عن الحد، ويصح الكلام ذاته على بقية أعضاء الفريق، القلب، الرئتين، العضلات، المخ. فعلوا من أجله ما بوسعهم، الآن يريدون أن يستريحوا.

تعود به الذاكرة إلى غلاف كتاب كان في حوزته، طبعة شعبية لأفلاطون. على غلافه مركبة يجرها جوادان، جواد أسود عيناه تبرقان ومنخاراه واسعان يمثل الشهوات الأساسية، وجواد أبيض هادئ الطلعة يمثل العواطف الأنبل التي يصعب تحديدها. يقف في المركبة شاب بجذع شبه عارٍ وأنف إغريقي وعصابة حول جبينه، قابضًا على اللِّجام، يُفترَض أنه يمثل الذات، التي تدعو نفسها أنا. حسنًا، في كتابه، الكتاب الخاص به، كتاب حياته، إن كان له أن يُكتَب، ستكون الصورة أكثر رتابة من الصورة التي على كتاب أفلاطون. ستجلس ذاته، التي يدعوها بول ريمنت، في عربة مشدودة إلى حشد من أفراس هرمة وعربات واطئة تنفث الدخان، بعضها يجر نفسه بالكاد. بعد ستين عامًا من الاستيقاظ بسعادة كل صباح، يمضغون جرايتهم من الشوفان، يتبولون ويتبرزون، ثم استعدوا لتقلب الأيام، سيكون أعضاء فريق بول ريمنت قد قاموا بما يكفي. سيطلبون وقتًا للراحة والخروج إلى الكلأ. وإذا حُرِّمتْ عليهم الراحة، حسنًا، سيبركون ويستقرون في سيورهم؛ وإذا بدأت ضربات السياط تنهال على أطرافهم، فلتبدأ.

عليل القلب، عليل الرأس، عليلٌ حتى النخاع، وإذا قيلت الحقيقة، عليل الذات، عليلٌ حتى قبل أن يحل به عقاب الرب، على يد ملاكه واين بلايت. لا يريد أبدًا التقليل من شأن

ذاك الحادث، تلك الصدمة، لم تكن سوى فاجعة، قلَّصتْ عالمه، حوَّلتْه إلى سجين. لكن الفكاك من الموت كان يجب أن يهزَّه، يفتح نوافذ في داخله، يجدد إحساسه بعظمة الحياة، لم يحدث شيء من هذا القبيل. ذاته القديمة نفسها تحاصره كالمعتاد، فقط صار أكثر شحوبًا وأكثر كآبة، بما يكفي لدفع المرء إلى السُّكْر.

الساعة الواحدة ولم تنتهِ ماريانا من الكتب، تبدأ ليوبا في الأنين، وهي عادةً طفلةٌ هادئة، إذا جاز له أن يصنِّف الأطفال إلى هادئين وأشقياء.

يقول لماريانا: اتركي التنظيف. انتهي منه غدًا.

ترد: سأنتهي في لحم البرق. يمكن أن تقدم لها ما تأكله.

– لمح. لمح البرق. اللحم هو ما نُصنَع منه. لحم وعظام.

لا تردُّ. يعتقد أحيانًا أنها لا تهتم بما يقول.

عليه أن يقدم إلى ليوبا ما تأكله، لكن ماذا؟ ماذا يأكل الأطفال الصغار سوى الفشار والكيك والرقائق المحلاة بالسكر، ليس عنده شيء منها.

يحاول تقليب ملعقة من مربى البرقوق في علبة زبادي. تتقبلها ليوبا، ويبدو أنها تحبها.

تجلس على طاولة المطبخ، يقف بجوارها مستندًا على اختراع زيمر. يقول: تقدم لي ماما مساعدة عظيمة. لا أعرف ماذا أفعل بدونها.

– هل عندك حقًّا ساق صناعية؟ تنطق الكلمة الطويلة بتلقائية، وكأنها تستخدمها يوميًّا.

– لا، إنها نفس الساق التي كانت لي دائمًا، لكنها أقصر بعض الشيء.

– لكن في خزانتك في غرفة نومك. هل تحتفظ بساق صناعية في خزانتك؟

– لا، لا أخشى شيئًا، لا شيء كهذا في خزانتي.

– هل تضع مسمارًا في ساقك؟

– مسمار؟ لا، لا أضع مسامير. ساقي طبيعية. بها عظام، بالضبط مثل ساقيك وساقي ماما.

– أليس هناك مسمار، لتضعه في ساقك الصناعية؟

– لا، بقدر ما أعرف؛ لأنه ليست لي ساق صناعية. لماذا تسألين؟

– لأن، ولا تنطق بعد ذلك بكلمة.

مسمار في ساقه. ربما قامت ماريانا في الماضي بتمريض رجل في ساقه مسامير، مسامير وشرائح ودبابيس ودعامات وأربطة، مصنوعة كلها من الذهب والتيتانيوم، رجل

بساق عولجت بطريقة لم تمنح له؛ لأنه كان أكبر سنًّا ممن تمنح له، لا يستحق المجهود والتكلفة. ربما هذا هو التفسير.

يتذكر أنه سمع وهو طفل حكاية امرأة دخلت في كفها، في لحظة سرحان، إبرة خياطة صغيرة، وانسابت الإبرة في عروق المرأة، ولم تلاحظها، وبعد وقت كافٍ اخترقت قلبها وقتلتها. حُكيتْ له الحكاية لتحذيره من التعامل مع الإبر باستهتار، لكنه يفهم، بأثر رجعي، أنها حكاية خرافية. هل يتنافر الصُّلْب حقًّا مع الحياة؟ هل يمكن حقًّا أن تدخل الإبر تيار الدم؟ كيف لا تشعر المرأة في الحكاية بسلاح معدني صغير يطوف في ذراعها باتجاه الإبط، ملتفًّا مع انحناءة الإبط، متقدمًا جنوبًا باتجاه فريسته اليائسة المستسلِمة. هل يعيد سرد الحكاية على مسامع ليوبا، متخلِّيًا عن حكمتها الخفية مَهما تكن؟

يكرر: لا، لا توجد مسامير في جسمي. لو أن جسمي فيه مسامير لكنتُ رجلًا آليًّا. وأنا لستُ كذلك.

لكن ليوبا فقدت الاهتمام بالساق التي ليست ساقًا صناعية. بلحسة من شفتيها تأتي على الزبادي وتسحب كُمَّ ثوبها إلى فمها. يأخذ منديلًا ورقيًّا ويمسح شفتيها، وهو ما تتركه يفعله. ثم ينظف كمَّها أيضًا.

أول مرة مسَّ فيها طفلة بإصبعه. يهتز رسغها في يده وهلة. رائع: ليست هناك كلمة أخرى تعبر عن ذلك. يصلون من الرحم وكل شيء جديد، وكل شيء في أبدع صورة. حتى من يصلون بعاهة، بأطراف مشوهة أو مخ يبعث ومضات، تكون كل خلية ناضرة ونظيفة وجديدة كما كانت يوم الخلق. كل ولادةٍ جديدةٍ معجزةٌ جديدة.

٩

تأتي مارجريت لزيارته مرة أخرى، هذه المرة بدون استئذان. إنه يوم الأحد، وهو وحده في الشقة. يقدم لها الشاي، ترفضه. تدور في الغرفة، تقف وراءه حيث يجلس، تعبث في شعره. وهو ساكن مثل حجر.

تسأل: بول، هل هذه هي النهاية؟

– نهاية ماذا؟

– تعرف قصدي. هل قررْتَ أن تكون هذه نهاية حياتك الجنسية؟ كلِّمْني بصراحةٍ لأعرف كيف أتصرف في المستقبل.

لا أحد يخرج عن الموضوع، مارجريت. أَحبَّ ذلك فيها دائمًا. لكن كيف يرد؟ نعم، انتهتْ حياتي الجنسية، من الآن عامليني مثل خصيٍّ؟ كيف يمكن أن يقول ذلك وقد يكون غير حقيقي؟ ماذا إن استسلم جواد العاطفة، الجواد الأسود الصاهل، الجواد الشبح؟ شَفَقُ رجولته. يا لها من ذلَّةٍ؛ لكن يا لها من راحة أيضًا!

يقول: مارجريت، امنحيني بعض الوقت.

تقول مارجريت، واصلة إلى نقطة الضعف: ومُساعِدة النهار؟ كيف تتصرف أنتَ ومُساعِدة النهار؟

– ربما أتصرف أنا ومُساعِدة النهار بصورة جيدة، شكرًا. لكن بالنسبة لها قد لا أبالي بمغادرة السرير في الصباح. لكن بالنسبة لها قد أنتهي كحالة من تلك الحالات التي نقرأ عنها، حين يشم الرجال رائحة كريهة ويستدعون البوليس لكسر الباب.

– بول، لا تكن ميلودراميًّا. لا أحد يموت من ساق مبتورة.

– لا، لكن الناس يموتون من اللامبالاة بالمستقبَل.

– هكذا، أنقذتْ مُساعِدة النهار حياتك. ذلك رائع. تقوم بالمطلوب. وبما هو أكثر. متى أقابلها؟

– مارجريت، لا تأخذي الأمر بشكل شخصي. طرحْتِ عليَّ سؤالًا، وأحاول أن أقدم إجابة صادقة.

لكن مارجريت لا تأخذ الأمر بشكل شخصي. تقول: سآخذ طريقي الآن، لا تنهضْ، سأخرج بنفسي. اتصل بي حين تكون على استعداد للعودة إلى المجتمع الإنساني مرة أخرى.

حذَّره الأخصائي في جلسات العلاج الطبيعي من انقباض عضلة الفخذ دافعة «الورك» والعَجُز إلى الخلف. يستند على الإطار وبالبد الحرة يستكشف أسفل ظهره. هل يحس ببدايات نتوء في الظهر؟ هل يصبح نصف الساق البشع أبشع؟

لو استسلم وتقبَّل الساق الصناعية لكان هناك سبب أقوى لتدريب البتر. أما والحال على هذا النحو، فهو لا يستخدم البتر إطلاقًا. كل ما يمكن أن يفعله به هو أن يحمله هنا وهناك كطفل كريه. لا غرابة إن أراد أن يتقلص، ينقبض، ينسحب.

لكن إن كان هذا الموضوع اللحمي منفِّرًا، فكيف تكون ساق مصنوعة من البلاستيك القرنفلي بمفصلة في القمة وحذاء في القاع، جهاز تربطه بجسمك في الصباح وتفكُّه عن جسمك في الليل لتلقي على الأرضية بالحذاء وبكل شيء! يرتجف حين يفكر فيها؛ لا يريدها في شيء. العكازان أفضل. العكازان أصدق على الأقل.

ومع ذلك، يسمح لمركبة أن تعرج عليه مرة في الأسبوع وتنقله إلى شارع جورج في نُرْوود، إلى فصل للتأهيل تديره امرأة اسمها مادلين مارتن. في الفصل ستة من المبتورين الآخَرِين، كلهم فوق الستين. ليس الوحيد بينهم بدون ساق صناعية، لكنه الوحيد الذي رفضها.

لا تستطيع مادلين أن تعرف وصفًا لموقفه. تقول: ثمة أناس من حولنا في الشارع، لا يمكن أن تقول إنهم يلبسون ساقًا صناعية، إنهم يسيرون بطريقة طبيعية تمامًا.

يرد: لا أريد أن أبدو طبيعيًّا، أفضِّلُ الشعور بأني طبيعي.

تهزُّ رأسها بابتسامة تنمُّ عن الشك. تقول: إنه فصل جديد في حياتك. انطوى الفصل القديم، عليك أن تُودِّعَه وتتقبل الفصل الجديد. تقبَّلْ: هذا كل ما تحتاج إليه. وستُفتَح أمامك كل الأبواب التي تظنها مغلقة. سترى.

لا يرد.

هل يريد حقًّا أن يشعر بأنه طبيعي؟ هل كان يشعر بأنه طبيعي قبل ما حدث على طريق مَجيل؟ لا يعرف. لكن ربما هذا هو المقصود بأن تشعر بأنك طبيعي: ألا تعرف. هل يبدو تمثال فينوس في ميلوس طبيعيًّا. مع أن تمثال فينوس في ميلوس بلا ذراعين إلا أنه معروض كمثال للجمال الأنثوي. ذات يوم كان له ذراعان، كما تحكي القصة، ثم كُسِر ذراعاه؛ فقْدُهما يجعل جماله أكثر إثارة. إلا أنه لو اكتُشِف غدًا أن تمثال فينوس تمثال لنموذج مبتور، فَسيُزال في الحال إلى مخزن في بدروم. لماذا؟ لماذا يمكن أن تثير الإعجاب صورة مكسورة لامرأة ولا تثيره صورة امرأة مكسورة، بصرف النظر عن البراعة التي خيطت بها الأعضاء المبتورة؟

سيكون عليه أن يبذل جهدًا شاقًّا ليحرك دواسات الدراجة في طريق مَجيل مرة أخرى، والريح تعصف في وجهه. سيكون عليه أن يبذل جهدًا شاقًّا ليفتح الآن الفصل المغلق مرة أخرى. يتمنى لو لم يولد واين بلايت. هذا كل شيء. القول سهل. لكنه يُبقي فمه مغلقًا.

للأطراف ذاكرة، كما تقول مادلين في الفصل، وهي مِحَقَّةٌ. حين يخطو خطوة على عكازيه يلاحظ أن جانبه الأيمن ما زال يميل عبر القوس الذي كان على الساق القديمة أن تميل عبره؛ في الليل ما زالت قدمه الباردة تبحث عن طيف أختها الباردة.

وظيفة مادلين، كما تخبرهم، إعادة برمجة أنظمة الذاكرة القديمة التي هي الآن مهمَلةٌ، وهي التي كانت تُملي علينا كيف نتوازن وكيف نمشي وكيف نعدو. تقول: نريد، بالطبع، أن نحتفظ بأنظمة ذاكرتنا القديمة، وإلا فلن نكون بشرًا. لكن علينا ألا نحتفظ بها حين تعوق تقدُّمنا. ولا حين تقف في طريقنا. هل أنتم معي؟ بالطبع، أنتم معي.

ككل من التقى بهم مؤخرًا من المختصين بالصحة، تُعامِل مادلين المُسنِّين المنضوين تحت رعايتها كأنهم أطفال، أطفال ليسوا على درجة عالية من المهارة، أحيانًا كئيبين، وأحيانًا خامِلين، في حاجة إلى من يبهجهم وينشطهم. مادلين نفسها تحت الستين، بل تحت الخمسين، وربما تحت الخامسة والأربعين؛ تعدو، بلا شك، مثل غزالة.

تستخدم مادلين الرقص لإعادة برمجة ذاكرة الجسد. تعرض عليهم شرائط فيديو لمتزلجين على الجليد في ملابس قرمزية ضيقة أو في أطقم مذهَّبة، يتزلجون بشكل لولبي أو في دوائر، أولًا على القدم اليسرى، ثم اليمنى؛ وفي الخلفية موسيقى دِليب. تقول مادلين: استمعوا، ودعوا الإيقاع يشحنكم. دعوا الموسيقى تجري في أجسادكم، دعوها ترقص داخلكم. من حوله رفاقه في الفريق، وقد استخدموا الأطراف الصناعية، يقلدون حركات المتزلجين بقدر المستطاع. ولأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك — لا يستطيع التزلج، لا يستطيع

الرقص، لا يستطيع المشي، وحتى لا يستطيع الوقوف منتصبًا بدون معاونة — يغلق عينيه، يمسك بالقضبان، ويتمايل على إيقاع الموسيقى. في مكان ما، في عالم مثالي، يتزلج على الجليد ويده في يد مُعلِّمته الجذابة. يفكر مع نفسه: تنويم مغناطيسي، هذا كل ما في الأمر! كم هو جذاب؛ كم هو قديم الطراز!

يتكون برنامجه الخاص (لكل منهم برنامجه الخاص) من تمرينات على التوازن. تشرح مادلين: سيكون علينا أن نتعلم التوازن تمامًا من جديد، مع جسدنا الجديد. بهذا تصفه: جسدنا الجديد، وليس جسدنا القديم المقطوع.

يوجد أيضًا ما كان يدعى في المستشفى العلاج المائي وتدعوه مادلين عمل الماء. في حوض ضيق في الغرفة الخلفية يقبض على القضبان ويمشي في الماء. تقول مادلين: حافظ على ساقك مستقيمة. الساقان. كالمقص. قُصْ قُص قُص.

في سالف الأيام كان سيشك فيمن هم على شاكلة مادلين مارتن. وحاليًا، مادلين مارتن هي كل ما يُقدَّم له ليؤمن به. وهكذا قد ينغمس في البيت، أحيانًا تحت عين ماريانا، وأحيانًا بعيدًا عن عينيها، في برنامج تدريباته الشخصية، حتى الجزء الخاص بالتمايل مع الموسيقى.

تقول ماريانا وهي تومئ برأسها: مناسب، مناسب لك. من المناسب أن تسمع بعض الإيقاعات. لكنها لا تهتم بإخفاء نبرة السخرية المهنية في صوتها.

يود لو يقول لها: مناسب؟ حقًّا؟ لستُ متأكدًا من أن ذلك مناسب لي. كيف يكون مناسبًا، حين أشعر أن الأمر برمته مُخزٍ من البداية إلى النهاية؟ لكنه لا يتفوه بكلمة، يتراجع؛ دخل منطقة الْخِزْي، إنها وطنه الجديد، لن يبرحه أبدًا، الأفضل أن يصمت، الأفضل أن يقبل.

تجمع ماريانا كل بنطلوناته وتأخذها إلى بيتها. وبعد يومين تعيدها وقد ثُنِيَتْ أَرجُلُها اليمنى وخِيطَتْ بإتقان. تقول: لن أقطعها، فقد تغير رأيك وتلبس، تعرف، بِرُسْثيز.[1] سنرى.

بِرُسْثيز: تنطقها وكأنها كلمة ألمانية. أطروحة، تضاد، ثم ساق صناعية.[2]

---

[1] برسثيز Prosthese نطق خطأ لكلمة برسثيسس Prosthesis بمعنى الساق الصناعية.

[2] كلمات تنتهي كلها بنفس النهاية وهي بالترتيب prosthesis, antithesis, thesis.

يشعر برغبة في هرش جرح العملية، وقد كان من قبل لا يمثل له مشكلة واعتَقَد أنه التأم تمامًا. ترشه ماريانا بمسحوق مُضاد حيوي وتَلفُّه برباط نظيف، لكن الرغبة في الهرش تستمر. تزيد في الليل. عليه أن يبقى مستيقظًا ليمنع نفسه من الهرش. يشعر بالجرح وكأنه جوهرة نفيسة مُتوهِّجة تُشِع في الظلام؛ يحرسها، هو الحارس والسجين، محرَّم عليه أن يمسها، يحميها.

تخف الرغبة في الهرش، لكن ماريانا تستمر في تنظيف البتر بعناية خاصة، تضع عليه مسحوقًا، وتعتني به.

تسأل ذات يوم وعلى غير توقع: مستر ريمنت، هل تظن أن ساقك ستكبر مرة أخرى؟

– لا، لم أظن ذلك أبدًا.

– إلا أنك ربما تظن ذلك أحيانًا كطفل. يظن الطفل أن ما تقطعه يكبر مرة أخرى. تعرف ما أقصد؟ لكنك لسْتَ طفلًا، مستر ريمنت. إذن، لماذا ترفض الساق الصناعية؟ ربما تكون خجولًا مثل فتاة، إيه؟ ربما تظن أن الجميع ينظرون إليك وأنت تسير في الشارع. هذا مستر ريمنت، بساق واحدة فقط! ليس صحيحًا. ليس صحيحًا. لا أحد ينظر إليك. حين تلبس الساق الصناعية، لن ينظر إليك أحد. لا أحد يعرف. لا أحد يبالي.

يقول: سأفكر في الأمر. هناك مُتَّسَع من الوقت. كل الوقت في العالم.

ينصرف عن مادلين مارتن بعد ستة أسابيع من عمل الماء والتمايل وإعادة البرمجة. يتصل بالاستوديو بعد ساعات ويترك رسالة على مسجِّل التليفون. يتصل بخدمة النقل ويطلب منهم ألا يأتوا مرة أخرى. ويفكر في الاتصال بمسز بوتس. ولكن ماذا يقول لمسز بوتس؟ على مدى ستة أسابيع كان على استعداد للإيمان بمادلين مارتن والعلاج الذي تقدمه، علاج أنظمة الذاكرة القديمة. والآن لم يَعُد يؤمن بها. هذا كل ما في الأمر، لا شيء أكثر من ذلك. لو بداخله بقايا إيمان فقد تحول إلى ماريانا يوكتش، التي لا تملك استوديو، ولا تَعِد بالعلاج، ترعاه فقط.

ترى ماريانا، وهي تجلس بجوار سريره وتضغط على أعلى فخذه بيدها اليسرى وتومئ برأسها، وكأنه يَثْني بتره ويمده ويلفه. بلمسة خفيفة تساعده على مد ساقه المثنية. تدلِّكُ العضلة المؤلمة؛ تَقْلِبه وتُدلِّك أسفل ظهره.

من لمسات يدها يتعلم كل ما يحتاج إلى معرفته، لا ترى ماريانا هذا الجسد الضامر والرخو بغيضًا؛ إنها على استعداد، إن استطاعت، وإن سمح بذلك، أن تنقل إليه عبر أناملها قدرًا كبيرًا من صحتها الطيبة المُتورِّدَة.

ليس هذا علاجًا، وليس مبعثه الحب، ربما لا يكون أكثر من ممارسة تقليدية لمهنة التمريض، لكنه كافٍ. إن كان هناك حب فكله من طرفه.

– شكرًا، يقول حين انتهى الوقت، بشعور جعلها تنظر إليه بفضول.

ترد: لا تُبالِ.

يتصل ذات مساء بعد أن انصرفت ماريانا ويطلب التاكسي، ثم ينزل وحده ببطء على جانب السلم، قابضًا على الدرابزين بقوة، متصببًا عرقًا خشية أن ينزلق العكاز. حين يصل التاكسي يكون قد وصل إلى الشارع.

في المكتبة العامة — حيث يشعر بالامتنان؛ لأنه لن يحتاج إلى مغادرة الدور الأرضي — يجد كتابين عن كرواتيا: كتابًا إرشاديًّا عن إليريا وساحل دلماسيا وكتابًا إرشاديًّا عن زغرب وكنائسها؛ بالإضافة إلى عدد من الكتب عن الاتحاد اليوغسلافي، وعن حروب البلقان الحديثة، ولم يعثر على شيء مما جاء ليطلع عليه، سِمات كرواتيا وشعبها.

يدفع ثمن كتاب بعنوان شعوب البلقان. وحين يعود التاكسي يكون مستعدًّا في انتظاره.

شعوب البلقان: بين الشرق والغرب، هذا هو العنوان الكامل. هل هذا ما شعر به آل يوكتش في وطنهم، الوقوع بين الشرق الأرثوذوكسي والغرب الكاثوليكي؟ وإن كان الأمر كذلك، فماذا عن شعورهم في أستراليا، حيث للشرق والغرب معانٍ مختلفة تمامًا؟ يحتوي الكتاب على صفحات من الصور الفوتوغرافية، أسود وأبيض. في إحداها فتاتان قرويتان تضعان وشاح الرأس وتمسكان بحمار محمل بالحطب في طريق جبلي وعر. تبتسم الفتاة الصغرى بخجل أمام الكاميرا، كاشفة عن فجوة في أسنانها. شعوب البلقان، مؤرخ في ١٩٦٢م، ربما قبل أن تحمل أم ماريانا فيها. كيف يَتأتَّى له معرفة تاريخ الصورة. قد تكون الفتاتان جدتين الآن، وقد تكونان في عداد الأموات. والحمار أيضًا. هل هذا هو العالم الذي ولدت فيه ماريانا، عالم سحيق من الحمير والماعز والدجاج وظباء الماء وقد غطتها الثلوج في الصباح، أم أنها كانت طفلة في جنة العمال؟

من المرجح إلى حد بعيد أن يكون آل يوكتش قد أحضروا معهم من وطنهم القديم مجموعة من صورهم: المَعْمُودِيَّات، العماد، الأعراس، اجتماعات العائلة. يأسف لأنه لن يراها. يصدق الصور أكثر مما يصدق الكلمات. ليس لأن الصور لا تكذب، بل لأنها بمجرد أن تغادر الغرفة المُعتِمة، تثبت، ولا تقبل التغيير. بينما القصص — قصة الإبرة وتيار الدم، مثلًا، أو قصة التقائه هو وواين بلايت على طريق مَجيل — تتغير باستمرار.

يرى الكاميرا دائمًا، بقدرتها على احتواء الضوء وتحويله إلى مادة، وكأنها أداة ميتافيزيقية أكثر منها أداة ميكانيكية. كانت وظيفته الأولى فَنِّي غرفةٍ مُعتِمة؛ كان يجد لَذَّته العُظْمَى، دائمًا، في العمل في الغرفة المعتمة. وقد انبثقت العفريتة تحت سطح السائل، وبدأت عروق الظلام تلتئم معًا وتظهر، كان يشعر أحيانًا برجفة انتشاء، كما لو كان في يوم الخلق.

وهذا هو سبب فَقْدِه الاهتمام بالتصوير الفوتوغرافي بعد ذلك؛ أولًا حين ساد اللون، ثم حين تَبَيَّن أن السحر القديم للطبقات الحساسة للضوء بدأ يخبو أمام الجيل المتنامي من السحر الكامن في تقنية الصور بلا مادة، صور تومض في الأثير ولا تشغل حيِّزًا، صور تُمْتَص في آلة وتخرج منها مُعالَجة، صور زائفة. تخلى عن تسجيل العالم في صور فوتوغرافية، وحوَّل طاقاته إلى الحفاظ على الماضي.

هل يكشف هذا التفضيل الأصيل للأسود والأبيض وظلال الرمادي، وعدم اهتمامه بالجديد، شيئًا عنه؟ هل هذا ما تفتقده النساء فيه، خاصة زوجته؛ اللون، التفتح؟

كانت القصة التي حكاها لماريانا هي أنه احتفظ بالصور القديمة بدون الوفاء لأصحابها، الرجال والنساء والأطفال الذين عرضوا أجسادهم أمام عدسات الغرباء. لكن ليست هذه هي الحقيقة كاملة. لقد احتفظ بها أيضًا بدون الوفاء للصور الفوتوغرافية نفسها، الطبعات الفوتوغرافية، ما زال معظمها باقيًا، بشكل فريد. يمنحها بيتًا مناسبًا، ويرى أنها ستحظى، بقدر ما يستطيع، أي إنسان، ببيت مناسب بعد موته. وربما، بدوره، سيغافله شخص غريب لم يولد بعد ويحتفظ له بصورة، صورة ريمنت الهامد صاحب وصية ريمنت.

لم يسأل ماريانا أبدًا عن سياسة عائلة يوكتش، أو الموقع الذي ربما احتلته في ولاءات البلقان المتنوعة وانتماءاته، لم يسألها أبدًا ولا ينوي أن يسألها. تختلط مشاعرهم، شأن معظم المهاجِرين، تجاه الوطن القديم. الهولندي الذي تزوج أمه واصطحبها هي وأطفالها من لُرْدِز إلى بلَّرات احتفظ في غرفة نومه بصورة فوتوغرافية في برواز للملكة فلهلمينا بجوار تمثال من الجص لمريم العذراء. وفي عيد ميلاد الملكة يشعل شمعة أمام صورتها وكأنها قديسة. أوروبا الخائنة، هكذا اعتاد أن يصف أوروبا؛ حملت صورة الملكة شعار الولاء، الإيمان، الإخلاص. يقلب الراديو في الأمسيات على الموجات القصيرة في محاولة لسماع خشخشة كلمة هنا وكلمة هناك من راديو هِلفِرْسيوم. وفي الوقت ذاته يشعر باحتياج شديد للولاء لبلده الجديدة ليكون جديرًا بفكرة أنه قادِم من مكان بعيد. كانت أستراليا في عيني

زوجة ملتبسة وطفليها التعيسين؛ الأرض المشمسة المناسبة، لا يهمُّ، إن لم يرحب بهم السكان الأصليون، إن لاذوا بالصمت في حضورهم، إن سخروا من تلعثمهم في الإنجليزية؛ قد يُوهِن الزمن والعمل الشاقُّ تلك العدوانية. كان الرجل لا يزال يؤمن بذلك حين رآه آخر مرة، وقد بلغ التسعين، شاحبًا مثل عيش الغراب، مرتجفًا بين نباتات الزهريات في صوبته المتداعية. لا بد أن آل يوكتش، الرجل والزوجة، يعتنقان نوعًا من الإيمان الهولندي، بينما أطفالهما، دراجو وليوبا والفتاة الأخرى، سيكوِّنون صورتهم الخاصة عن أستراليا، صورة أنقى وأكثر اعتدالًا.

١٠

ذات صباح تظهر ماريانا بصحبة شاب طويل. إنه الولد الذي في الصورة، دراجو.

تقول ماريانا: جاء ابني يلقي نظرة على دراجتك. قد يستطيع إصلاحها.

– نعم. بالطبع. (ويتساءل، من أوحى لها بفكرة أنه يريد إصلاح دراجته المُحطَّمة؟) أهلًا دراجو، يسعدني أن ألقاك، شكرًا لحضورك. (يُخرِج مفتاح المخزن من مجموعة من مفاتيح يحتفظ بها في دُرْج ويعطيه للولد) افعل ما تراه مناسبا. أرى أن إصلاح الدراجة ميئوس منه؛ الهيكل مَثْنيٌّ، الإطار ممزق ألْفَ في المائة، لكن ألقِ نظرة.

يقول الولد: حسنًا.

تقول ماريانا حين صارا وحدهما: جئتُ به ليتحدَّث معك، كما قلْتَ.

كما قال؟ ماذا قال؟ هل يلقن دراجو درسًا عن الأمان في الطريق؟

تتبدَّى الحكاية التي نسجتها ماريانا لابنها لتظهر هذا الصباح جزءًا جزءًا؛ لدى مستر ريمنت دراجة يريد إصلاحها ليبيعها؛ ولأنه معوَّق ولا يتمتع بالبراعة أيضًا، فهو لا يستطيع إصلاحها بنفسه.

يعود دراجو من الفحص ويقدم تقريره. لا يمكن أن يقول ارتجالًا ما إن كان الهيكل مكسورًا أم لا. ربما يتمكن هو ورفاقه، وأحدهم يعرف محل آلات، من إصلاحه وَرشِّه من جديد. ومع ذلك، فإن إطارًا جديدًا ومحورًا وجادونًا وفرامل قد تكلفه، مستر ريمنت، ثمن دراجة مستخدمة في حالة جيدة.

يا لها من نصيحة دقيقة. هذا ما قاله هو نفسه.

يقول: شكرًا لإلقائك نظرة عليها على أي حال. تخبرني أمك أنك تركب موتوسيكلًا.

– نعم، اشترى لي أبي موتوسيكلًا ماركة ياماها، سعة ٢٥٠سم٣.

– رائع. يغمز لماريانا غمزة يتظاهر الولد أنه لا يلحظها. ماذا تريد أيضًا أن يقول له؟

يقول الولد: تخبرني ماما بأنك تَعرَّضتَ لحادث بشع.

– نعم. مكثتُ في المستشفى بعض الوقت.

– ماذا حدث؟

– صدمتني سيارة وأنا ألفُّ. قال السائق إنه لم يرني. قال لم أقصد. قال إن الشمس ضربت في عينه.

– هذا سيِّئ.

صمتٌ. هل يستوعب الولد ما يُفترَض أن يستوعبه؟ هل تحقق ماريانا ما تريد؟ يظن لا. تريد أن يتحدث أكثر؛ ليحذر الولد من مدى خطورة ما قد يتعرض له الكثير من راكبي الدراجات وبالتالي الكثير من راكبي الموتوسيكلات؛ أن يوضح له الآلام المبرحة نتيجة الجرح والتَّشوُّه في حالة العرج. لكنه يشعر أن هذا الشاب يفضل الإيجاز، ولن يتقبل الوعظ. وفي الحقيقة، إنْ تعاطَفَ دراجو مع أحد في حكاية التصادم على طريق مَجيل، فسيتعاطف على الأرجح مع واين بلايت؛ الشاب المسرع وراء عجلة القيادة، أكثر مما يتعاطف مع بول ريمنت، العجوز العجيب التائه على دراجة.

ما التغير الهائل الذي تريد ماريانا أن يحدثه على أية حال؟ هل تتوقع حقًّا من هذا الشاب الوسيم، الذي يتفجر بالصحة والعافية، أن يقضي الأمسيات في البيت قابعًا مع كتاب بينما يستمتع رفاقه في الخارج؟ أن يترك ياماها الجديد البرَّاق في الجراج ويركب أتوبيسًا؟ دراجو يوكتش: اسم من ملحمة شعبية، أغنية دراجو يوكتش.

(يسلِّكُ حنجرته): دراجو، طلبت أُمُّكَ مني أن أكلمك على انفراد.

تغادر ماريانا الغرفة. يتوجه إلى الولد: انظر، لستُ شيئًا بالنسبة لك، لستُ سوى رجل ترعاه أمك وأنا شاكر لها ذلك من كل قلبي. لكنها طلبتْ مني أن أتحدث إليك فوافقتُ. ما أريد أن أقوله لك هو: إن استطعتُ أن أرجع بالساعة إلى ما قبل الحادث، صدِّقْني، لفعلتُ. الآن لا يمكنني حتى أن أذهب إلى المحلات. أعتمد على الآخَرين في أتفه الأمور. حدث ذلك في جزء من الثانية، فجأة. قد يحدث لك ذلك بنفس السهولة. لا تخاطر بحياتك، يا بني، لا تستحق ذلك. تريد أُمُّكَ أن تكون حذرًا وأنت على دراجتك. أظن أن عليك أن تطيعها. هذا كل ما عندي. أمك طيبة، وتحبك. هل تفهمني؟

إذا طُلِبَ منه أن يتنبأ، فربما قال إن دراجو الشاب سيجلس في محاضرة من هذه النوع خافض البصر، يشد جلده، على أمل أن ينتهي منها العجوز العجيب، لاعنًا أمه؛ لأنها

اصطحبتْه. لكن لم يحدث شيء من هذا إطلاقًا. طوال الحديث ينظر إليه دراجو باحترام، وعلى شفتيه الجميلتين ابتسامة باهتة، لا تفتقر إلى الود. يقول في النهاية: نعم. الرسالة وصلت. سأتوخى الحذر. وبعد لحظة من التوقف: تُعِزُّ أمي، أليس كذلك؟

يومئ. يمكن أن يتحدث أكثر، لكن الإيماءة تكفي في الوقت الحالي.

– تعزك هي الأخرى.

تعزه أيضًا. قلبه مفعم بالحب بصورة غير معقولة. لا أعزها فقط، بل أحبها! تلك هي الكلمات التي كان على وشك البوح بها. لكنه قال بدلًا من ذلك: أحاول تقديم المساعدة، هذا كل ما في الأمر؛ لذلك تحدثتُ إليك، ليس لاعتقادي أني أستطيع إنقاذك بالكلام، من حدوث شيء من هذا القبيل (يضرب «الورك» المصاب ضربة هزلية خفيفة) لا يمكن أن تتنبأ بذلك، ولا يمكن أن تمنع حدوثه. لكن ربما يساعد أمك. ربما يساعدها أن تعرف أنك تعرف أنها تحبك وتريد لك الخير، تريده لدرجة أن تطلب من شخص غريب، هو أنا، أن يخبرك بذلك. نعم؟

هناك الكلمات ذاتها، ووراء الكلمات أو حولها أو تحتها توجد الغاية. وهو يتحدث كان حريصًا على ألا يرى الولد شفتيه، نابذًا مخارج الكلمات كما لو كانت من خيوط العنكبوت، ومنصتًا إلى الغاية. يكبر تقديره للولد، يكبر في وثبات وقفزات. هذا الولد ليس ولدًا عاديًّا! لا بد أن الآلهة تحسده. أغنية دراجو يوكتش. لا غرابة في أن تخشى أمه عليه. يرن التليفون في ساعات الصباح الأولى: هل أنتِ مسز يوكتش؟ هل لكِ ولد اسمه دراجون؟ هنا المستشفى في جُمْرتشيا. مثل إبرة في القلب أو سيف. ابنها البكر.

(تعود ماريانا، ينهض دراجو) يقول: أنصرف الآن، بالسلامة ماما. (ينحني من ارتفاعه السامق ويمس جبهتها بشفتيه) بالسلامة مستر ريمنت. آسف على الدراجة. ومضى.

تقول ماريانا: لاعب تنس بارع جدًّا. سباح ماهر جدًّا. بارع جدًّا في كل شيء. ماهر جدًّا.

يقول: عزيزتي ماريانا، يحدث نفسه: مشاعر سامية، حين تسمو المشاعر يمكن أن تُغفَر للمرء زلة اللسان في الكلمة الغريبة عن التعزز أنا متأكد من أنه سيكون على ما يرام. أنا متأكد من أنه سيتمتع بحياة طويلة وسعيدة، وسوف يترقى إلى رتبة الأميرال، إذا كانت هذه رغبته.

– هل تعتقد ذلك؟ لم تفارق الابتسامة شفتيها، لكنها تتحدث الآن بمتعة خالصة: بالرغم من أنه ليس لديه ما يقدمه بيديه وأنه أعرج، إلا أنها تعتقد أنه يتمتع بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل، رائع.

١١

ابتسامة ماريانا، في ذاكرته، هي سر الرغبة في الحاجة إلى التغيير طويل الأمد. تتبدد الكآبة فجأة وتنقشع كل الغيوم المعتمة. إنه مستخدِم ماريانا، رئيسها، مَن يدفع لها لتحقق أمنياته، لكنه يهتم، قبل أن تصل كل يوم، بكل شيء في الشقة، باذلًا أقصى ما في وسعه لتبدو الأشياء أنيقة في عينيها، حتى إنه طلب زهورًا ليبدد الكآبة.

وضع عبثي. ماذا يريد من المرأة؟ يريد منها أن تبتسم مرة أخرى، بالتأكيد، أن تبتسم له، يريد أن يحتل موضعًا، مَهما يكن ضئيلًا، في قلبها. هل يريد أيضًا أن يكون حبيبها؟ نعم، بمعنى ما يريد بحماس. يريد أن يحبها ويدللها هي وأبناءها، دراجو وليوبا والثالثة، التي لم يرها بَعْد. ولا يشعر بنوايا خبيثة تجاه زوجها، يُقسِم على ذلك. يتمنى له السعادة والتوفيق. ومع ذلك، فهو على استعداد لتقديم أي شيء ليكون أبًا لهؤلاء الأطفال المتازِين الرائِعين وزوجًا لماريانا، أبًا إضافيًّا إذا لزم الأمر، زوجًا إضافيًّا إذا لزم الأمر، أفلاطونيًّا إذا لزم الأمر. يريد أن يرعاهم جميعًا، أن يحميهم ويحافظ عليهم.

مم يحافظ عليهم؟ لا يعرف بعد، لكنه يريد أن يحافظ على دراجو قبل كل شيء. إنه مستعد للوقوف، كاشفًا عن صدره، بين دراجو والسهام الحادَّة التي تطلقها الآلهة الحاسدة.

إنه أشبه بامرأة، لم تلد طفلًا أبدًا، تجاوزت سن الإنجاب، تجوع الآن فجأة وبشدة إلى الأمومة، تجوع إلى درجة تدفعها لسرقة طفلِ امرأةٍ أخرى. إنه مجنون كتلك المرأة.

١٢

يسأل ماريانا، عرَضًا بقدر ما يستطيع: كيف حال دراجو؟

تهز كتفيها جزعًا: سيذهب نهاية الأسبوع مع أصدقائه إلى شاطئ تُنْكالولو. هل هذا هو النطق الصحيح؛ تُنْكالولو؟

– تُنْكالِلا.

– يذهبون بالدراجات. أصدقاء طائشون، أولاد طائشون، أنا خائفة. مثل عصابة، بنات أيضًا، لا يمكن أن تصدق كم هن صغيرات. أنا سعيدة لأنك تتحدث إليه الأسبوع الماضي. تحدثْتَ.

– لا شيء. مجرد كلمات أبوية.

– نعم، لا يسمع ما يكفي من الكلمات الأبوية، مثلما تقول، تلك مشكلته.

هذا أول انتقاد وَجَّهَته للزوج الغائب. ينتظر المزيد، لكن لا مزيد.

يرد بحذر: ليس من السهل أن يكبر الولد في هذا البلد. يسود مناخ الرجولة. ضغوط كثيرة على الولد للتفوق في مآثر الرجولة، رياضات الرجولة، يتهور، يُخاطِر، ربما تكون خلفية مختلفة عن الخلفية التي تنحدرون منها.

الخلفية التي تنحدرون منها. الآن يسمعها، تحمل الكلمات نبرة التنازل. لماذا لا يكون الأولاد أولادًا في البلاد التي ينحدر منها آل يوكتش؟ ماذا يعرف عن الأشكال التي تتخذها الرجولة في جنوب شرق أوروبا؟ ينتظر أن تخبره ماريانا بالحقيقة. لكن فكرها كان في مكان آخر.

– ما رأيك في المدرسة الداخلية، مستر ريمنت؟

– ما رأيي في المدرسة الداخلية؟ أظن أنها قد تكون باهظة المصاريف. أظن أيضًا أنه من الخطأ، الخطأ الفاحش، أن نعتقد أن الشبان في المدرسة الداخلية يُوضعون تحت

الرقابة ليلًا ونهارًا للتأكد من أنهم لن يصابوا بسوء، لكن يمكن الحصول، دون شك، على تعليم راقٍ في مدرسة داخلية، أو في أفضل المدارس الداخلية. هل تفكرين في هذا من أجل دراجو؟ هل سألْتِ عن المصاريف؟ اسألي أولًا، قد تكون المصاريف باهظة، باهظة بصورة غير معقولة، فلكية في الحقيقة.

ما يحجم عن قوله هو: باهظة لاستبعاد الأطفال الذين يعمل آباؤهم في تجميع السيارات ليعيشوا. أو مَن تَرعَى أمهاتهم المُسنِّين.

يندفع، حتى إنه يشعر وهو يتكلم بالتهوُّر فيما يقوله، لكنه لا يستطيع التوقف، لن يتوقف: لكن إن كنْتِ جادَّة في ذلك، وإن كان دراجو نفسه يريد ذلك، يمكن أن أقدم مساعدة مالية. يمكن أن نعتبرها قرضًا.

لحظة صمت. يُفكِّر، هكذا، الأمر مستبعد. لا تَراجُع.

تقول ماريانا، التي ربما لم تستوعب كلماته وما قد يكمن وراءها: نظن أنه قد يتمكن من الحصول على منحة دراسية، نتيجة تفوقه في التنس وكل تلك الرياضات.

– نعم، المنحة الدراسية مُحتمَلة بالتأكيد، يمكن أن تدرسي الأمر.

– أو يمكن أن نحصل على قرض. الآن يبدو أن صدى كلماته يصل إليها، وتقطب حاجبيها. هل يمكن أن تقرضنا مبلغًا من المال، مستر ريمنت؟

– يمكن أن أقدم لك قرضًا بدون فوائد، يمكن أن ترديه حين يكسب دراجو مالًا.

– لماذا؟

– استثمار لمستقبله. لمستقبلنا جميعًا.

تهز رأسها. تكرر: لماذا؟ لا أفهم.

كانت ليوبا معها في ذلك اليوم، في مئزرها القرمزي، وساقاها ممددتان على الكنبة، إحداهما بجورب قرمزي والأخرى بجورب أرجواني، وذراعاها متدليتان بجوارها، تشبه الدمية تمامًا، لولا العيون السوداء الثاقبة.

يهمس: ماريانا، لا بد أنك تعرفين. يجف فمه، ويدق قلبه بعنف، يرتعب ويرتعد كأنه في السادسة عشرة من عمره. بالتأكيد تعرف المرأة دائمًا.

تهز رأسها مرة أخرى. تبدو مرتبكة ارتباكًا حقيقيًّا: لا أفهم.

– أخبرك على انفراد.

تلغط في أذن الطفلة. بأدب تلتقط ليوبا صرتها القرنفلية الصغيرة وتهرول إلى المطبخ.

تقول ماريانا: إذن، تَكلَّم الآن.

– أحبك. هذا كل شيء. أحبك وأريد أن أقدم لك شيئًا. دعيني.

في الكتب التي اعتادت أمه أن تطلبها من باريس وهو طفل، وكانت تصل في رزم من الكرتون البني عليها شعار مكتبة هاشِتْ وصفٌّ من الطوابع تحمل رأس ماريان الصارمة مزينة بالكاب الفريجي، في كتب كانت أمه تتلهف عليها في غرفة المعيشة في بلَّرات حيث تغلق كل المصاريع، بحجة الحر أو بحجة البرد، كان يقرؤها سرًّا بعدها، متخطيًا الكلمات التي لا يعرفها، كجزء من سعيه الأبدي لمعرفة ما يُمتِّعُها، ربما كان سيُكتَب أن شفة ماريانا التوت ازدراءً، وربما التوت شفتها ازدراءً بينما لَمعَت عينها بنشوة دفينة. لكنه حين خلَّف طفولته وراءه فَقَدَ الإيمان بعالم هاشِت. إن وُجِدتْ في أي وقت شفرة للنظرات — وهو ما يشك فيه — يمكن للمرء، بمجرد حلها، أن ينجح في قراءة العواطف المؤقتة على شفاه الإنسان وفي عيونه، فقد ذهبت الآن، ذهبت مع الريح.

يهبط الصمت، ولا تحرك ماريانا ساكنًا. لكنها على الأقل لا تنقلب على عقبيها. سواء الْتَوَت شفتها أم لا، يبدو أنها على استعداد لسماع المزيد من هذا التصريح الاستثنائي الشاذ.

ما كان عليه أن يفعله، بالطبع، هو أن يعانق المرأة. صدرًا إلى صدر ولا يمكن أن تسيء فهمه. وحتى يعانقها، عليه أن يبعد العكازين الغريبين اللذين يساعدانه على الوقوف؛ وإن فعل ذلك يترنح في الحال، وقد يسقط. يدرك، للمرة الأولى، أهمية الساق الصناعية، ساق تمسك الركبة آليًّا وتُحرِّر اليدين.

تحرك ماريانا يدها كأنها تمسح زجاج نافذة أو تنفض قطعة لغسيل الأطباق. تريد أن تدفع ليتمكن دراجو من الالتحاق بالمدرسة الداخلية؟ تنطق الكلام مقطَّعًا.

هل هذا ما يريد: أن يدفع من أجل تعليم دراجو؟ نعم. يريد أن يحظى دراجو بتعليم راقٍ. وبعد ذلك، إذا حافَظ على طموحه، وإذا كان البحر رغبته من كل قلبه، يتخرج ضابطًا بحريًّا. يريد أن تنشأ ليوبا وأختها الكبرى تنشئة سعيدة أيضًا، وتكون لهما رغبات قلبية. يريد مد حمايته الكريمة على أطفالها. ويريد أن يحب هذه المرأة الممتازة، أمهم، وهذا هو الأهم، من أجله يدفع أي شيء.

يقول: نعم، هذا ما أعرضه.

تقابل نظراته بصلابة. يعتقد أنها خجولة إلا أنه لا يستطيع أن يُقسِم على ذلك. ثم تغادر الغرفة فجأة. تعود بعد لحظة. خلعت المنديل الأحمر وفكت شعرها. ليوبا في إحدى ذراعيها، وفي الأخرى الحقيبة المدرسية القرنفلية. تلغط في أذن الطفلة. تلتفت الطفلة، وإبهامها في فمه، وترمقه بنظرة فضولية.

تقول ماريانا: لا بد أن نذهب. شكرًا. وانطلقتا بسرعة.

فعلها. اعترف، الرجل العجوز ذو الأصابع المغضنة، بعشقه. تجرأ في لحظة بلا تروٍّ، بلا تَردُّد، على أمل أن تبادله الحبَّ هذه المرأةُ التي وضع فيها كل آماله؟

١٣

لا تصل ماريانا في اليوم التالي، ولا تأتي يوم الجمعة، تعود الظِّلال التي ظن أنها مَضتْ بلا عودة. يتصل ببيت يوكتش، يرد صوت أنثوي، ليس صوت ماريانا (صوت مَنْ؟ صوت الابنة الأخرى؟) على مسجل التليفون. يقول: أنا بول ريمنت، أطلب ماريانا. هل يمكن أن تتصل بي؟ لا اتصال.

يجلس لكتابة خطاب. يكتب: عزيزتي ماريانا، أخشى أنكِ أسأْتِ فهمي. يشطب الياء ويكتب «قصدي». لكن ما القصد الذي أساءت فهمه؟ يكتب بادئًا فقرة جديدة: حين قابلتكِ أول مرة، كنتُ محطَّمًا. وهو غير حقيقي. ربما تحطمت ركبته ومنظره، لكنه لم يتحطم. لو عرف الكلمة المناسبة لوصف حالته حين قابل ماريانا، لعرف قصده اليوم أيضًا. يشطب محطمة. لكن ماذا يضع مكانها؟

يرن جرس الباب وهو في حيرته. يثب قلبُه. لن يحتاج إلى الكلمة المزعجة، والخطاب المزعج؟

يقول الصوت في تليفون المدخل: أنا إليزابيث كُسْتِلُّو. هل لي أن أتحدث إليك؟

تأخذ إليزابيث كُسْتِلُّو، بصرف النظر عمن هي، وقتها في تسلق السلالم. وحين تصل إلى الباب تلهث. امرأة في الستينيات من عمرها، ويمكن القول، في أواخر الستينيات لا أوائلها، ترتدي فستانًا زهريًّا من الحرير مفتوحًا من الخلف، يكشف عن كتفين بلا جاذبية، بهما نمش، وممتلئتان إلى حدٍّ ما.

تقول وهي تُهوِّي على نفسها: قلب فاسد. تقريبًا بقدر إعاقة (تتوقف لتأخذ نفَسَها) الساق الفاسدة.

تصدمه الملاحَظة، وقد صدرت عن غريبة، فهي غير مناسبة وتفتقر إلى اللياقة.

يدعوها، يقدِّم لها مقعدًا. تَقْبل كوبًا من الماء.

تقول: أتيتُ لأدَّعي أني من مكتبة الولاية. كنتُ أنوي تقديم نفسي باعتباري من متطوعات المكتبة، بحجة أني جئتُ لتحديد قيمة هِبَتِك، قيمتها الفيزيقية، أعني أبعادها، حتى نضع خطتنا. ثم أكشف لك عن حقيقتي.

– لسْتِ من المكتبة؟

– بلى. كانت أكذوبة.

– إذن أنتِ؟

تتفحص غرفة معيشته وتبدو كأنها موافقة. تقول: اسمي إليزابيث كُسْتِلُّو، كما ذكرتُ.

– آه، هل أنتِ إليزابيث كُسْتِلُّو تلك؟ آسف لم أتوقع ذلك. سامحيني.

من أعماق الكنبة تصارع حتى قدميها: لا عليك. هل يمكن أن ندخل في الموضوع؟ ما قمتُ به من قبل ليس شيئًا، مستر ريمنت. هل تعطيني يدك؟

يرتبك لحظة. يعطيها يده؟ تمدُّ يدها اليمنى فيتناولها. تستريح اليد الأنثوية البضة الباردة بعض الشيء لحظةً في يده، ويلاحظ بنفور أنها ازرقَّتْ وهو ما يحدث حين يكف عن مزاولة النشاط لفترة طويلة.

تقول: هكذا. أشبه توما الشكاك، كما ترى. تُواصِل وقد بدا عليه الارتباك، ولم يعد يستطيع متابعتها: أقصد أريد أن أكتشف أي نوع من الرجال أنت. أريد أن أتأكد، من أن جسدينا لم يتداخلا. ساذجة، بالطبع. لسنا أشباحًا، لا أحد منا، لماذا أظن ذلك؟ هل نواصل؟

تجلس من جديد بصعوبة، تهز كتفها، وتبدأ السرد: تطيح به صدمة من اليمين، حادة ومفاجئة ومؤلمة، كصعقة الكهرباء، ترفعه بعيدًا عن الدراجة. اهدأْ! يحدث نفسه وهو يطير في الهواء، وهلم جرًّا.

تتوقف وتتفحص وجهه كأنها تقيس مدى تأثيرها عليه.

– هل تعرف السؤال الذي طرحته على نفسي حين سمعتُ تلك الكلمات أول مرة، مستر ريمنت؟ سألتُ، لماذا أحتاج إلى هذا الرجل؟ لماذا لا أتركه يقبع بسلام بجوار دراجته، غافلًا عن واين برايت أو بلايت، لنسمِّه بلايت، يجأر من الخلف لتفسد حياته وأودعه المستشفى أولًا ثم يعود إلى هذه الشقة ذات السلالم المُزعِجة؟ من يكون بول ريمنت بالنسبة لي؟

مَن هذه المرأة المجنونة التي سمحتُ لها بدخول بيتي؟ كيف أتخلص منها؟

يرد بحذر: وما إجابة سؤالك؟ من أنا بالنسبة لك؟

تقول: أتيْتَ إليَّ. في نواحٍ معينة لا أكون تحت أمر من يأتي إليَّ. أتيْتَ، مع الشحوب والانحناء والعكازين والشقة التي تمكث فيها بكل هذا العناد ومجموعة الصور الفوتوغرافية وكل ما لديك. وأيضًا مع ميروسلاف يوكتش المهاجر الكرواتي— نعم، هذا هو اسمه، ميروسلاف، ويدعوه أصدقاؤه مِل — وارتباطك الحديث بزوجته.

– ليس حديثًا.

– بلى، إنه حديث. تبوح لها بمشاعرك، بدل أن تكتمها، مع أنك لا تعرف شيئًا وتعرف أنك لا تعرف شيئًا عن النتائج المترتبة على ذلك. تأمَّلْ، بول؛ هل تقصد حقًّا إغراء موظفتك لهجر أسرتها والعيش معك؟ هل تعتقد أنك ستسعدها؟ سيغضب أطفالها ويرتبكون؛ ويخاصمونها؛ سترقد في سريرك طوال اليوم، تتنهد بلا سلوى. كيف يكون ذلك ممتعًا لك؟ أمْ لديك خطط أخرى؟ هل تخطط لتلتهم الأمواجُ مِلْ ويختفي، تاركًا زوجته وأطفاله لك؟

– أعود إلى سؤالي الأول. مَن أنتَ، بول ريمنت، وبم تتميز ميولك الغرامية؟ هل تعتقد أنك الرجل الوحيد في خريف العمر، وقد أقول أواخر الخريف، الذي يظن أنه عثر على ضالته، الحب الحقيقي؟ هذه القصص بالمجان، مستر ريمنت، بالمجان. عليك أن تصنع حالة أقوى لنفسك.

إليزابيث كُسْتِلُّو: يتذكرها. حاول ذات مرة أن يقرأ لها كتابًا، رواية، لكنه ترك الرواية، لم تشدَّ انتباهه. قرأ لها، من وقت لآخر، بعض المقالات في الصحف، عن البيئة وحقوق الحيوان، ويكفَّ لأن المواضيع لا تثير اهتمامه. ذات مرة (ينتشل ذاكرته الآن من الأعماق) ساءت سمعتها لسبب ما، لكن يبدو أن ذلك قد تلاشى، وربما كانت مجرد عاصفة من عواصف وسائل الإعلام. رمادية الشعر؛ رمادية الوجه أيضًا، وفاسدة القلب كما تقول. تتنفس بسرعة. وهي هنا تعظه، تخبره كيف يدير حياته!

يسأل: ما الحالة التي تفضلين أن أصنعها؟ ما القصة التي يمكن أن تجعلني جديرًا بانتباهكِ؟

– كيف أعرف؟ فكِّرْ في شيء ما.

امرأة غبية! عليه أن يلقي بها إلى الخارج.

تلحُّ: ادفعْ!

– ادفعْ؟ ماذا أدفع؟ ادفعي! الكلمة التي تقال لامرأة أثناء الولادة.

تقول: ادفعِ الغلاف المُميت. طريق مَجيل، المسار الحقيقي إلى مثوى الميت: كيف كان شعورك وأنت تتشقلب في الهواء؟ هل مر شريط حياتك أمامك؟ كيف بدت لك، بنظرة إلى الخلف، الحياة التي كنت على وشك فراقها؟

هل هذا حقيقي؟ هل كان على وشك الموت؟ ثمة فرق، بالتأكيد، بين أن تتعرض لخطر مميت وأن تكون على حافة الموت. هل هذه المرأة مطلعة على شيء لا يعرفه؟ محلِّقًا في الهواء في ذلك اليوم، فكَّرَ، ماذا؟ لم يشعر أنه حر إلى هذه الدرجة منذ كان ولدًا، حين كان يقفز بلا خوف من فوق الأشجار، وذات مرة من قمة السطح. ثم اللُّهاث حين اصطدم بالطريق، وانقطاع النفَس فجأة. هل يمكن تأويل اللُّهاث بأنه فكرة أخيرة، كلمة أخيرة؟

يقول: شعرتُ بالحزن. بدت حياتي تافهة. فكرتُ: يا له من ضياع!

– بالحزن. يحلِّق، هذا الشاب الجريء على أرجوحته الطائرة، في الهواء بأيسر ما يكون، ويشعر بالحزن. تبدو حياته، بنظرة إلى الخلف، تافهة. ماذا أيضًا؟

ماذا أيضًا؟ لا شيء. عم تبحث المرأة؟

لكن يبدو أن المرأة فقدت الاهتمام بسؤالها. تقول: آسفة، أشعر فجأة بتوعك، تغمغم، تجاهد للوقوف على قدميها. إنها بيضاء حقًّا من حول اللُّغْد.

– هل تودين أن تتمددي؟ يوجد سرير في غرفة مكتبي. هل أصنع لك كوبًا من الشاي؟

ترتجف يدها. مجرد دوخة، مِن الحَر، مِن تَسلُّق السلالم، مما لا أدري. نعم، شكرًا، أتمدد لحظة. تلمِّح إلى رغبتها في دفع مساند الكنبة.

– أساعدكِ. ينهض، يستند على عكاز، يأخذ يدها. يفكر، يقود الأعرجُ العرجاءَ. جلدها رطب بصورة ملحوظة.

إن سرير غرفة المكتب مريح. يبذل قصارى جهده لرفع ما تراكم عليه؛ تخلع الحذاء وتتمدد. يلاحظ، من خلال جوربها، عروقًا زرقاء وسمانتين ضامرتين.

تقول، وإحدى يديها على عينيها: لا تنشغل بي. أليس هذا ما نقوله، نحن ضيوف لا يُرحَّب بهم؟ تصرفْ كأني غير موجودة هنا.

يرد: أتركُكِ تستريحين. سأطلب التاكسي حين تتحسنين.

تقول: لا، لا، لا، الأمر ليس كذلك، أنا خائفة. سأبقى معك بعض الوقت.

– لا أظن.

– أوه نعم، مستر ريمنت، أنا خائفة جدًّا. عليَّ أن أرافقك في المستقبل المنظور. ترفع اليد التي كانت تغطي بها عينيها، فيراها تبتسم ابتسامة باهتة. تقول: تحمَّلْني. ليست نهاية العالم.

يلقي عليها نظرة أخرى بعد نصف ساعة. إنها نائمة. يبرز فكها السفلي، يأتي صوت خشن واهٍ، يشبه تقلُّبَ الحصاة، من أعماق حنجرتها. لا يبدو له ذلك صحيًّا.

يحاول العودة إلى الكتاب الذي يقرؤه، فلا يستطيع التركيز. ينظر من الشباك بعصبية.

ثمة كحة. تقف في المدخل بالجورب. تسأل: هل لديك أسبرين؟

– في الحمَّام، في الخزانة، تجدين باراسيتامول. هذا كل ما عندي.

تقول: لا يليق بك أن تَتجَهَّم في وجهي، مستر ريمنت. لم أطلب أكثر مما طلبْتَ.

– ماذا طلبتُ؟ لم يستطع إخفاء نبرة التوتر في صوته.

– لم أطلبْكَ أنت. لم أطلب قضاء وقت طيب بعد الظهر في شقتكَ الكئيبة.

– اخرجي! اتركي الشقة، إن كانت تضايقكِ إلى هذا الحد. حتى الآن لا أعرف شيئًا عن السبب الذي أتيتِ من أجله. ماذا تريدين مني؟

– أنت أتيْتَ إليَّ. أنتَ.

– أنا أتيتُ إليكِ أنتِ؟ أنتِ أتيْتِ إليَّ أنا.

– اسكتْ، لا تزعقْ، سيظن الجيران أنك تضربني.

تسترخي في المقعد: آسفة. أعرف أني مقتحمة. أنتَ أتيْتَ إليَّ، هذا كل ما يمكن أن أقوله. تصادف أن أتيتَ إليَّ، رجل بساق فاسدة وبلا مستقبل ومشاعره غير مناسبة. من هنا بدأ الأمر. لا أعرف إلى أين ننتقل. هل لديك اقتراح؟

يصمت.

– ربما لا ترى غاية في مطاردة الحدس، مستر ريمنت، لكن هذا ما أقوم به. هكذا بنيتُ حياتي، بمتابعة الحدس، بما في ذلك ما لا أستطيع فهمه في البداية. وقبل كل شيء ما لا أستطيع فهمه في البداية.

تَتبُّع الحدس: ماذا يعني ذلك، حرفيًّا؟ كيف تستخدم الحدس بشأن شخص غريب عنها تمامًا، شخص لم تقع عيناها عليه من قبل؟

يقول: عرفتِ اسمي من دليل التليفون. تضعين يدك بالصدفة. ليس لديك أي تصور عن حقيقتي.

تهز رأسها، وتقول بنعومة لدرجة أنه يلتقط الكلمات بالكاد: يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة.

تغرب الشمس. يصمتان، مثل زوجين عجوزين يعلنان هدنة، يجلسان لحظة، يستمعان إلى الطيور وهي تتلو صلواتها المسائية فوق الأشجار.

يقول أخيرًا: ذكرْتِ آل يوكتش. ماذا تعرفين عنهم؟

– ماريانا يوكتش، التي تقوم برعايتك، امرأة متعلمة. ألم تخبرْكَ؟ قضتْ عامين في معهد للفنون في دُبْروفنيك وحصلت على دبلوم في الترميم. عمل زوجها أيضًا في المعهد، حيث التقيا. كان فنيًّا متخصصًا في تكنولوجيا التُّحَف. أعاد، مثلًا، تجميع بطة آلية وُضِعتْ مجزَّأة في بدروم المعهد مائتي عام، يعلوها الصدأ. تصيح كبطة حقيقية الآن، تتهادى، تبيض. إنها إحدى درر مجموعتهم. لكن مهاراته للأسف ليست مطلوبة في أستراليا. لا توجد هنا بطات آلية؛ ولذا يعمل في مجال السيارات.

– بأي شيء مفيد أخبركَ أيضًا؟ وُلِدَت ماريانا في زادار، هي بنت مدينة، ربما لا تميز رأس الحمار من ذيله. وهي طاهرة. لم تخن زوجها أبدًا. لم تقع أبدًا في الغواية.

– لا أغويها.

– أفهمُ. تريد، كما قلْتَ، أن تغدق عليها من حبك ليس إلا. تريد أن تعطي. لكن هناك ثمنًا لأن تكون محبوبًا. إلا إذا افتقرنا إلى الضمير تمامًا. لم تدفع ماريانا ذلك الثمن. تعرَّضتْ لهذا الموقف من قبل، مع مرضى يقعون فيها، بلا أمل، كما يقولون. تجد ذلك مضجرًا. عليَّ الآن أن أعثر على وظيفة أخرى: هذا ما تفكر فيه مع نفسها. هل كلامي واضح؟

يصمت.

تقول: أنتَ أسير شيء ما، أليس كذلك؟ تشدك إحدى خواصها. تلك الخاصية، كما أتصور، هي التفجر، تفجر الفاكهة الناضجة. أخبرك لماذا تترك ماريانا ذلك الانطباع عندك وعند رجال آخرين أيضًا. متفجرة لأنها محبوبة، محبوبة بأقصى ما يتوقع المرء في هذا العالم. لا تريد أن تسمع التفاصيل؛ ولذا لن أقدِّمها. وقد ترك الطفلان، الولد والبنت الصغيرة، مثل هذا الانطباع عندك؛ لأنهما نشآ غارِقَين في الحب. إنهما في بيت في العالم. وهو مكان مناسب بالنسبة لهما.

– إلا أن ...

– نعم، إلا أن الولد يحمل علامة الموت. رأيناها كلانا. وسيم جدًّا. ذكي جدًّا.

يكتئبان، كلاهما، يكتئبان ويدوخان. نهض. يقول: في الثلاجة آخر ما صنعت ماريانا من كَنَّلُّوني، وجبن ريكوتا وسبانخ. هل ترغبين في شيء منها، أهلًا بك، لكن يجب أن ينتهي الأمر عند ذلك، عليكِ أن تنصرفي في الصباح.

تهز إليزابيث كُسْتِلُّو رأسها ببطء وحزم. لا يمكن، أنا خائفة. بول. سأبقى معك بعض الوقت أحببْتَ أم كرهْتَ. أَعدُك بأن أكون ضيفة مثالية. لن أعلِّق ملابسي الداخلية في حمَّامك. سأتنحى عن طريقك. آكل قليلًا. لن تلحظ وجودي معظم الوقت. مجرد لمسة على الكتف، من وقت لآخر، يسارًا أو يمينًا، لأنبِّهك.

– ولماذا أتحمل ذلك؟ ماذا لو رفضتُ؟

– يجب أن تتحمل. الكلمة ليست كلمتك.

١٤

إليزابيث كُسْتِلُّو ضيفة مثالية حقًّا. تنحني على طاولة القهوة في أحد أركان غرفة المعيشة التي استولت عليها، تقضي نهاية الأسبوع مستغرقة في نسخة ضخمة مكتوبة على الآلة الكاتبة، يبدو أنها تضع لها حواشي. لا يقدِّم لها وجباتٍ، ولا تطلب. تختفي من الشقة من وقت لآخر دون كلمة. يمكنه فقط أن يخمِّن ماذا تفعل: ربما تلفُّ في شوارع شمال أدليد، ربما تجلس في مقهى تقضم كعكة وتشاهد حركة المرور.

يبحث، في إحدى مرات غيابها، عن النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة، ليتعرف على ما بها، فلا يعثر عليها.

يقول لها مساء الأحد: هل لي أن أستنتج أنك أتيْتِ إليَّ طارقة بابي لتقومي بدراستي وتضعيني في كتاب؟

تبتسم. هل يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة، مستر ريمنت.

– لماذا لا يكون بسيطًا؟ يبدو لي شديد البساطة. تكتبين كتابًا وتضعينني فيه؟ هذا ما تفعلينه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما نوع الكتاب، ثم ألا تعتقدين أنك في حاجة إلى موافقتي أولًا؟

تتنهد. إذا كنتُ في سبيلي لأضعك في كتاب، كما تقول، فسأفعل ذلك ببساطة. أغير اسمك وظرفًا أو اثنين من ظروف حياتك، لألتف على قانون الحرية، وهو ما يحدث عادة. ولن أحتاج إلى الإقامة معك. لا، أنتَ أتيْتَ إليَّ، كما أخبرْتُكَ، الرجل ذو الساق الفاسدة.

تعب من إخباره بأنه أتى إلى هذه المرأة. يبدي ملاحظة بطريقة جافة قدر ما يستطيع: ألا ترين أن استخدام شخص أتى إليك طوعًا أسهل؟ تخلي عني. لستُ شخصًا سهل الانقياد، كما ستكتشفين قريبًا. انصرفي. لن أحتجزك. ستجدين راحة في التخلص مني. والعكس صحيح.

– وعاطفتك غير المناسبة؟ أين أعثر على شخص آخر مثلك؟

– عاطفتي، كما تقولين، لا تخصُّكِ، مسز كُسْتِلُّو.

– تبتسم ببرود، وتهز رأسها. ترد بهدوء: لسْتَ مَنْ يخبرني بما يخصني.

تقبض يده بقوة على عكازه. لو كان عكازًا حقيقيًّا، من طراز قديم، مصنوع من خشب الدردار أو خشب الأوكالبتوس، لو كان ثقيلًا بعض الشيء، بدل أن يكون من الألومونيوم، لهوى به على جمجمة العجوز الشمطاء، مرة بعد أخرى، بقدر ما تستدعي الضرورة، إلى أن تستلقي تحت قدميه وتتشرب السجادة دمها، وليفعلوا به بعد ذلك ما يشاءون.

يرن جرس التليفون. مستر ريمنت؟ أنا ماريانا. كيف حالك؟ آسفة لغيابي بضعة أيام. كنتُ مخطئة. آتي غدًا، موافق؟

هذه هي الحكاية بينهما إذن، كانت مخطئة. نعم، بالطبع موافق، ماريانا. أتمنى أن تكوني في أفضل حال. أراك غدًا كما كنتِ عادة.

يخبر ضيفته بنبرة حقيقية بقدر ما يستطيع: تعود ماريانا إلى الوظيفة غدًا. آن أن تنصرفي، يأمل لو تفهم الرسالة.

– حسن. سأبتعد عن طريقها. وحين يحملق فيها بغضب: هل تخشى أن تعتقد أني من صديقاتك القدامى؟ تبتسم له ابتسامة لا يمكن أن توصف بأقل من البهجة. لا تأخذْ كل الأمور بجدية، بول.

ينكشف السبب وراء قرار ماريانا بالعودة وهي على الباب. حتى قبل أن تخلع سترتها — تمطر، مطرًا دافئًا مشبعًا ببخار يحمل رائحة الأوكالبتوس — تلقي على الطاولة كراسة دعاية مصقولة. على الغلاف بنايات شبه غوطية أمامها مروج شاسعة؛ ثمة ولد أنيق، في مجموعة، خلع سترته، وربطة عنق بجانب لوحة مفاتيح كمبيوتر، وصديق بنفس الأناقة يحدق من فوق كتفه. وِلنْجتون كولج: خمسة عقود من التفوق. لم يسمع أبدًا عن ولنجتون كولج.

تقول ماريانا: يقول دراجو إنه سيلتحق بها. تبدو مدرسة رائعة، ألا تظن ذلك؟

يتصفح كراسة الدعاية. يقرأ بصوت عالٍ: معهد الأخت إلى ولنجتون كولج في بمبروكشير. يُعدُّ الشباب لتحديات قرن جديد ... في مجال الأعمال، والعلم والتكنولوجيا، والقوات المسلحة. أين هذا المكان؟ كيف اكتشفْتِه؟

– في كَنْبرا. في كنبرا يتعرف على أصدقاء جدد. أصدقاؤه في أدليد ليسوا طيبين، يجرونه إلى الحضيض. تنطق أدليد بالطريقة الإيطالية، في تناغم مع سبَيْدر. من دبروفنيك، على مرمى حجر من فينيسيا.

– وأين سمعْتِ عن ولنجتون كولج؟

– يعرف دراجو كل شيء عنها. مدرسة تغذي أكاديمية قوات الدفاع.

– مدرسة مغذية.

– مدرسة مغذية. لهم الأولوية كما تعرف.

يعود إلى كراسة الدعاية. نموذج الالتحاق. جدول المصروفات. يعرف أن مصروفات المدارس الداخلية باهظة؛ ومع ذلك، تصدمه الأرقام بالأسود والأبيض.

– كم سنة يقضيها هناك؟

– عامين إن بدأ في يناير. في عامين يمكن أن يتخطى العام الثاني عشر، وبعد ذلك يمكن أن يحصل على إعانة مالية. كل ما يحتاج إليه مصروفات عامين.

– دراجو متحمس للمدرسة؟ وافق على الالتحاق بها؟

– متحمس جدًّا. يريد أن يلتحق بها.

– من الطبيعي، كما تعرفين، أن يلقي الآباء نظرة على المدرسة قبل أن يتورطوا. تجولي في المباني والأفنية، تحدثي مع الناظر، استكشفي المكان. هل أنت متأكدة من أنك وزوجك ودراجو لا تريدون زيارة ولنجتون كولج أولًا؟

تخلع ماريانا سترة المطر — مصنوعة من مادة بلاستيكية نقية، عملية تمامًا — وتلقي بها على أحد المقاعد. جلدها دافئ ومتورد. لا أثر للتوتر الذي حدث في لقائمها الأخير. تقول: هل تظن أن من الضروري أن يذهب مستر ومسز يوكتش من مُنُّو بارا، ليريا إن كانت ولنجتون كولج مناسبة لابنهما؟

نبرتها هادئة. إذا كان هناك شخص مرتبك فسيكون هو.

– تعرف، مستر ريمنت، أن زوجي كان رجلًا مشهورًا ومرموقًا في كرواتيا. ألا تصدَّقُني؟ صوره في كل الصحف. ميروسلاف يوكتش والبطة الآلية. في التلفزيون — تحرك إصبعين في الهواء — البطة الآلية تمشي، وتصدر صخبًا كأنها تقول كواك، وتأكل — تربت على صدرها — وأشياء أخرى أيضًا. بطة قديمة، قديمة. تأتي من السويد. تأتي إلى دبروفنيك عام ١٦٨٠م، من السويد، لا أحد يعرف كيف يصلحها. ثم يصلحها ميروسلاف يوكتش بصورة رائعة، كان، على مدى أسبوع، أسبوعين، رجلًا شهيرًا في كرواتيا. لكن هنا

— ترفع عينيها إلى السماء — من يهتم؟ لا أحد في أستراليا يسمع عن البطة الآلية. لا أحد يعرفها. ميروسلاف يوكتش، لا أحد يسمع عنه. مجرد عامل في مجال السيارات. بلا قيمة، عامل في مجال السيارات.

يقول: لستُ متأكدًا من أني سأتفق معك. العامل في مجال السيارات ليس بلا قيمة. لا أحدَ بلا قيمة. وعلى أية حال، سواء قمتم بزيارة مسئولي ولنجتون كولج أم لا، سواء كنتم من منو بارا أو تِمْبوكتو، يمكن أن أحدس فقط بأن فلوسكم ستسعدهم. اذهبي واكتبي الطلب. سأدفع. أقدم لك الآن شيكًا بمصروفات الطلب.

هكذا تجري الأمور. بكل سهولة. يتورط. صار أبًا روحيًّا. الأب الروحي: شخص يقود طفلًا إلى الرب. هل يجد في نفسه القدرة على قيادة دراجو إلى الرب؟

تقول ماريانا: رائع. أخبرُ دراجو. تجلب له السعادة الحقيقية. وقفة. وأنت؟ ساقك بخير؟ لا تؤلمك؟ تقوم بتمريناتك؟

يقول: الساق بخير، لا تؤلمني. ما لا يقوله هو: لماذا تركْتِ الوظيفة، ماريانا؟ لماذا تخلَّيْتِ عني؟ علاقة مهنية صعبة، ألم تكن كذلك؟ أراهن على أنك لا تريدين أن تسمع مسز بوتز بذلك.

ما زال مفعمًا بالحزن، يريد إشارة من ماريانا تنم عن الندم. وينتشي، في الوقت ذاته، بعودتها، وتستثيره تمامًا الفلوس التي على وشك أن يدفعها. يبهجه العطاء دائمًا، يعرف ذلك عن نفسه. مما يدفعه إلى مزيد من العطاء. مثل المُقامِر. كل الإثارة في الخسارة. خسارة وراء خسارة. السقوط المتهور والطائش.

أرست ماريانا، في طريقة عملها المعتاد، نظامًا في العمل. تبدأ بغرفة النوم، تخلع ملاءات السرير وتفرش ملاءات نظيفة. ويمكن أن تشعر بعينيه تقع عليها، إنها على يقين من ذلك، يمكن أن تشعر بالدفء آتيًا منه، مداعبًا «وركيها» وثدييها. ينطلق إيروس منه بقوة في الصباح. لو يستطيع، بمعجزة، أن يعانق ماريانا في الحال، في هذه الحالة المزاجية، ينتهز الفرصة المواتية، قد يتغلب على استقامتها، إنه على استعداد للرهان. لكن، بالطبع، مستحيل. وقاحة. أسوأ من الوقاحة، جنون. لا يجب حتى أن يفكر في ذلك.

ثم يُفتَح بابُ الحمَّام وتدخل كُسْتِلُّو المرأة إلى المشهد، في روب وشبشب. تجفف شعرها بفوطة، كاشفة عن بقع قرنفلية في فروة رأسها. يقدمها بسرعة خاطفة: ماريانا، هذه مسز كُسْتِلُّو. تقيم هنا لفترة قصيرة. مسز يوكتش.

تقدم ماريانا يدها فتأخذها كُسْتِلُّو المرأة بهمهمة دينية. تقول: أعدك بألا أقف في طريقك.

– لا تقلقي.

يسمع، بعد دقائق، صوت غلق الباب الخارجي. يشاهد، من النافذة، كُسْتِلُّو المرأة تتسحب في الشارع باتجاه النهر. وعلى رأسها قبعة من القش، يعرف أنها قبعته، لم يستخدمها منذ سنوات. أين عثرتْ عليها؟ هل تفتش في خزانته؟

تقول ماريانا: سيدة لطيفة. هل هي صديقة؟

– صديقة؟ لا، لا إطلاقًا، مجرد زميلة. وراءها بعض المهام في البلدة، وتمكث هنا لبعض الوقت.

– حسن.

ماريانا على عجل من أمرها، أو هذا ما يبدو. من المعتاد أن أول ما تقوم به في الصباح هو الاهتمام بساقه ومرافقته في تمريناته. لكنها اليوم لا تذكر التمرينات. تقول: عليَّ أن أذهب، إنه يوم خاص، عليَّ أن آخذ ليوبيكا من مجموعة اللعب. تخرج من حقيبتها فطيرة مجمدة. أعود بعد ظهيرة اليوم، ربما. هذا بسيط شيء اشتريته لغدائك. أتركُ الفاتورة، تدفع لي فيما بعد.

يصحح لها: شيء بسيط.

تردد: شيء بسيط.

بمجرد أن تنصرف يصر المفتاح في المزلاج وتعود إليزابيث كُسْتِلُّو. تعلن: اشتريتُ بعض الفاكهة. تضع كيسًا من البلاستيك على الطاولة. ستتم مقابلة، يمكن أن أخمن. هل تظن أن ماريانا جديرة بذلك؟

– مقابلة؟

– من أجل هذه الكلية. سيطلبون مقابلة الولد وأبويه، خاصة الأبوين، ليتأكدوا من أنهما على المستوى المطلوب.

– دراجو هو الذي يطلب الالتحاق، وليس أبواه. لو أن مسئولي ولنجتون كولج لديهم أي إحساس، فسيقفزون ليأخذوا دراجو.

– ولكن ماذا لو سألوا الأبوين صراحة كيف يدبران تلك المصروفات الهائلة؟

– سأكتب لهم خطابًا. أقدم الضمانات. أفعل كل ما هو مطلوب.

تبني هرمًا صغيرًا من الفاكهة؛ المشمش، الخوخ، العنب، في سلطانية على طاولة القهوة. تقول: يا له من أمر رائع. إني جد سعيدة لأن الفرصة سنحت لي لأعرفك على نحو أفضل. إنك تمنحني الإيمان!

– أَمنحكِ الإيمان؟ لم يقل أحد ذلك من قبل.

– نعم، تمنحني الإيمان مرة أخرى. يجب ألا تأخذ ما قلتُه عنك وعن مسز يوكتش على محمل الجد. أنا مرتبكة، هذا كل ما في الأمر؛ لأني في حضرة حب حقيقي من طراز قديم. أنحني لك.

تتوقف عَمَّا تقوم به وتحني رأسها، بطريقة لا تخلو من السخرية، انحناءات بسيطة.

تواصل: مَهما يكن، تذكَّرْ، ما زال عليك تَخطِّي حاجز ميروسلاف. لا يمكن أن نسلِّم بأن ميروسلاف سيوافق على التحاق ابنه بمدرسة داخلية خيالية على بعد آلاف الأميال. وسيوافق على أن تُؤْخَذ عليه تعهدات مالية من رجل تزوره زوجته ستة أيام في الأسبوع، الرجل ذي الساق المفقودة. هل فكَّرتَ ماذا ستفعل مع ميروسلاف؟

– سيكون غبيًّا إن رفض. الأمر لا يتعلق به، يتعلق بابنه، مستقبل ابنه.

تقول بهدوء: لا، بول، ليس صحيحًا. من الولد إلى الزوجة، ومن الزوجة إليه، هكذا يسير الخيط. تمسُّ كبرياءه، شرف رجولته. عليك أن تواجه ميروسلاف عاجلًا أو آجلًا. ماذا تقول حين يأتي ذاك اليوم؟ «أحاول تقديم مساعدة ليس إلا؟» هل هذا ما ستقوله؟ لن يكون كافيًا. الحقيقة وحدها ستكون كافية. والحقيقة أنك لا تحاول تقديم مساعدة. بالعكس، تحاول أن تلقي بدلوك في شئون عائلة يوكتش. تحاول أن تمتلك نبضات مسز ي. أن تغري أطفال مستر ي بالبُعد عنه وتتخذهم أطفالًا لك، واحدًا أو اثنين أو حتى الثلاثة. لا يمكن أن أصف هذه الأجندة بالود إطلاقًا. لا، لسْتَ صديق ميروسلاف، وأرى أنك لا يمكن أن تكون صديقه بأي شكل. لن يعاملك ميروسلاف بلطف؛ وهل يمكن أن تلقي عليه باللائمة؟ كيف يمكن إذن أن تتصرف مع ميروسلاف؟ لا بد أن تفكِّر. لا بد أن تفكر. تنقر جبهتها بأنملة. وإذا أخذتْكَ أفكارُكَ إلى حيث أعتقد، إلى حائطٍ سدٍّ بالتأكيد، فعندي بديل أقترحه عليك.

– بديل لماذا؟

– بديل لهذا الوضع المُعقَّد تمامًا بينك وبين آل يوكتش. انسَ مسز يوكتش وتعلُّقَكَ بها. عد بذاكرتك إلى الوراء. هل تتذكر آخر مرة زرْتَ فيها قسم تقويم العظام بالمستشفى؟ هل تتذكر المرأة ذات النظارة القاتمة التي كانت في المصعد؟ التي كانت برفقة امرأة أكبر منها؟ تتذكر بالطبع. تركتْ تأثيرها فيك. حتى أنا أستطيع رؤية ذلك.

– لا شيء في حياتنا يحدث بلا معنى، بول، كما يمكن أن يخبرك أي طفل. هذا درس من الدروس التي نتعلمها من القصص، واحد من دروس كثيرة. هل تقرأ قصصًا؟ خطأ. لا يجب.

– أكمل لك حكاية المرأة ذات النظارة القاتمة. إنها، للأسف، ضريرة. فقدتْ بصرها منذ عام نتيجة ورم خبيث. فقدتْ إحدى عينيها بالكامل، استؤصلت جراحيًّا، وفقدت الأخرى وظيفتها أيضًا. كانت قبل الفاجعة جميلة، أو على الأقل جذابة؛ وهي اليوم، للأسف، قبيحة بقدر ما يكون الضرير قبيحًا. يفضل المرء ألا ينظر إلى وجهها. أو بالأحرى، يحدق المرء فيها ثم يشيح ببصره، نافرًا. وهي، بالطبع، لا ترى هذا النفور، إلا أنها تشعر به. تعي نظرات الآخَرين مثلما تعي الأصابع التي تتلمسها، تتلمسها وتتراجع.

– أن تكون ضريرة أسوأ من أية تحذيرات سمعَتْها، أسوأ مما تخيَّلتْ. إنها يائسة. صارت عرضة للاشمئزاز في شهور. لا تستطيع الخروج إلى النور؛ حيث يمكن أن تقع عليها العيون. تود لو تختفي. إنها مفعمة بشهوة تعيسة. وهي، كامرأة في صيف حياتها، تجأر بالشهوة، يومًا بعد يوم، كما تجأر بقرة أو خنزيرة في الحر.

هل تندهش لما أقول؟ تظن أنها مجرد قصة أخترعها؟ ليست كذلك. المرأة موجودة، وقد رأيْتَها بأم عينيك، واسمها مارينَّا. هذا العالم الذي يبدو هادئًا، العالم الذي نسكنه، مليء بأهوال لا يمكن أن تتخيلها مَهما حاولْتَ، بول. ما يحدث في أعماق المحيطات، مثلًا، في قاع البحر؛ يتجاوز كل ما يمكن أن نتخيله.

– ما تتوق إليه مارينَّا ليس المواساة، وبالتأكيد ليس التأليه، بل الحب في أقوى تجلياته الجسدية. تود أن تكون، ولو لوقت قصير، كما كانت من قبل. أقول لك: لماذا لا ترى من تستطيع أن تحقق هدفك وهدفها معًا، أنت ومارينَّا، هي ضريرة، وأنت أعرج؟

– أخبركَ بشيء آخر عن مارينَّا. مارينَّا تعرفك. نعم، تعرفك. تعارفتما، أنت وهي. هل تدرك ذلك؟

بدا الأمر وكأنها تقرأ من دفتر يوميات. وكأنه احتفظ بدفتر يوميات، وتسحَّبَتْ هذه المرأة ليلًا إلى شقته وقرأَتْ أسراره. لكنه لا يحتفظ بدفتر يوميات، إلا إذا كان يكتب وهو نائم.

يقول: أنتِ مخطئة مسز كُسْتِلُّو. لم أرَ المرأة التي تشيرين إليها، وتسمينها مارينَّا؛ إلا مرة واحدة، في المستشفى، ولا يمكن أن تكون قد رأتني. وبالتالي لا يمكن أن تكون قد تَعرَّفَت عليَّ، بمعنى من المعاني.

– نعم، قد أكون مخطئة، هذا مُحتمَل. وقد تكون أنتَ المخطئ. ربما تعود مارينَّا إلى فترة سابقة من حياتك، حين كنتما صغيرَيْن ومكتمِلَين وبحالة تَسُر النظر، وتكون قد نسيتَ ذلك ببساطة. كنْتَ مصوِّرًا محترفًا، أليس كذلك؟ ربما التقطتَ لها صورة ذات يوم، وركَّزت كل انتباهك على الصورة التي التقطتها، وليس عليها هي، مصدر الصورة.

– ربما. لكن ذاكرتي ما زالت بخير، ولا أتذكر شيئًا من هذا القبيل إطلاقًا.

– حسن، سواء كنتما صديقين قديمين أم لا، لماذا لا ترى من تستطيع أن تحقق هدفك وهدفها معًا، أنت ومارينًّا؟ سآخذ على عاتقي، واضعة في الاعتبار الظروف الاستثنائية للحالة، مسألة ترتيب لقاء بينكما، لا تحتاج إلا إلى أن تنتظر وتستعد. تأكدْ، لو أن هناك اقتراحًا أقدمه لها فسأقدمه بطريقة تجعلها تأتي بدون أن تفقد احترامها لنفسها.

– كلمة أخيرة. أَقترِح عليك، افعل ما تفعله أنت وهي، مَهما يكن، في الظلام. كما هو ظلام بالنسبة لها. اعتبِر سريرك كهفًا. حين تهب العاصفة، تدخل الصيادة البتول بحثًا عن ملاذ. تمد يدها فتلتقي بيد أخرى، يدك. وهلم جرًّا.

كان عليه أن يقول شيئًا حاسمًا، لكنه لا يستطيع، وكأنه مخدَّرٌ أو مذهولٌ.

تواصل كُسْتِلُّو: من الأحداث التي تَدَّعِي أنكَ لا تتذكرها، اليوم الذي قد تكون أو لا تكون التقطتَ فيه صورة لها، ولا يمكن أن أقول: كنْ أقل ثقة في نفسك، قلِّبْ ذاكرتك وستندهش من الصور التي تطفو على السطح، لكن لن أضغط عليك. لنشيِّد الجانب الذي يخصك من القصة بافتراض أنك لم تُلْقِ عليها سوى نظرة واحدة، في المصعد. نظرة واحدة، لكنها كافية لإشعال الرغبة. ماذا سيُولَد من رغبتك واحتياجها؟ العاطفة في أسمى صورها؟ حريق خريفي عظيم مرة أخرى؟ لنرَ. الموضوع في يدك، يدك ويدها. هل فرضيتي مقبولة؟ قل نعم إن كانت كذلك. أو إن كنْتَ خجِلًا، هز رأسك. نعم؟

– اسمها مارينًّا كما قلتُ بتضعيف النون. ليس لي شأن بذلك. ليس في استطاعتي تغيير الأسماء. يمكن أن تطلق عليها اسمًا آخر مؤقتًا إن أحببْتَ، اسم تدليل، دارلنج أو كيتِن أو ما شئت. كانت متزوجة، وانهار الزواج بعد ضربة القدر التي وصفتُها، مثلما انهار كل ما عداه. حياتها فوضى. تعيش حاليًا مع أمها، المرأة التي رأيتها معها، الحيزبون.

– تكفي هذه الخلفية حاليًا. يمكن أن تعرف البقية من شفتيها. بتضعيف النون. يُحكى أنها ابنة فلاح خنزير. هِندامُها فوضى ككل شيء آخر في حياتها، لكن يمكن التغاضي عن ذلك، من لا يخطئ أحيانًا وهو يلبس في الظلام؟

– عصبية لكنها نظيفة. منذ أن أجريت لها الجراحة، الجراحة بالغة الدقة، على العكس تمامًا من عملية البتر التي تشبه الجزارة، صارت موسوسة بشكل مَرَضيٍّ بشأن النظافة، وبشأن رائحتها، يحدث هذا مع بعض المكفوفين. من الأفضل أن تكون نظيفًا من أجلها أيضًا. سامحني إن تكلمْتُ بفجاجة. استحم جيدًا، اغسل كل جزء، وتخلَّ عن هذا الوجه الحزين. فقدان الساق ليس مأساة، على العكس فقدان الساق ملهاة، فقدان أي جزء

ناتئ من الجسم ملهاة، وإلا لما كان لدينا هذه النكات الكثيرة عن الموضوع. كان هناك رجل عجوز بساقٍ واحدة، خرج يتسول بقبعته. وهلم جرًّا.

– أنصحك، بول: الأعوام تجري بسرعة البرق، فاستمتع وأنت ما زلتَ متوردًا. الوقت متأخر دائمًا أكثر مما تظن.

– ولا، ماريانا الأخرى، المرأة الممرضة، لم تكن فكرتي، إن كان هذا ما يدهشك فهذه الأمور لا تخضع لنظام. ماريانا من دبروفنيك، عاطفتك غير المناسبة، وصلتْ عن طريق صديقتك مسز بوتس. لا تهمني في شيء.

– لا تعرف ماذا تفعل بي، أليس كذلك؟ تُفكِّر فيَّ وكأني قضية. معظم الوقت تظن أن حديثي هراء، وأني أجعل الأمور على هواي. إلا أني ألاحظ أنك لم تَثُرْ بعد. تتحملني على أمل أن أكف وأنصرف. لا تنكرْ، مكتوب على وجهك، واضح أمام الجميع. أنت أيوب، وأنا إحدى المصائب المستعصية التي نزلَتْ بك، المرأة التي لا تكف، معبَّأة بخطط لإنقاذك من نفسك، ثرثرة، ثرثرة، ثرثرة، والسلام هو كل ما تصبو إليه.

– ليس من الضروري أن تجري الأمور على هذا النحو، بول. أقولها مرة أخرى: إنها قصتك، وليست قصتي، سأختفي حين تقرر تَحمُّل المهمة، لن تسمع صوتي بعد ذلك؛ يكون الأمر وكأني لم أوجد أبدًا. أَعتزِل، وتكونان، أنت وهي، حُرَّيْن في تحقيق خلاصكما الشخصي.

– فكِّرْ كيف بدأْتَ بداية طيبة. لشد انتباه المرء، ماذا يمكن أن يكون في الحسبان أكثر من الحادث على طريق مَجيل، حين صدمك واين الشاب وطَيَّرَك في الهواء كَقِط. يا له من انحدار مؤسف منذ ذلك الوقت! أبطأ وأبطأ، حتى توقفت الآن، حبيس شقة فاسدة الهواء مع راعيتك التي ترعاك رعاية كاملة. لكن كن طيب القلب. ثمة احتمالات أمام مارينَّا، بوجهها المدمر وشهوتها المتسمة بالندم، شهوتها التي تسيطر عليها. مارينَّا امرأة بمعنى الكلمة. السؤال هو، هل أنت رجل كافٍ بالنسبة لها؟

– رد، بول. قل شيئًا.

كأن البحر يضرب جمجمته. يمكن، بكل معنى الكلمة، أن يسقط في البحر، تسحبه تيارات الأعماق. ستجرد ضربات الماء عظامه، بمرور الوقت، من آخِر شريحة من اللحم. من لؤلؤتي عينيه؛ ومن مرجان عظامه.

١٥

تتصل ماريانا. يعرف، حتى قبل أن تتكلم، ما ستقوله: إنها آسفة، ولا تستطيع أن تأتي اليوم. ثمة مسألة تخص ابنتها. لا، ليست ليوبيكا؛ بلنكا.

يسأل: هل يمكن أن أقدم أية مساعدة؟

تتنهد: لا، لا أحد يمكن أن يقدم أي مساعدة. آتي غدًا بالتأكيد، طيب؟

تقول إليزابيث كُستِلُّو متأملة: مشكلة تخص ابنتها. أتعجب أية مشكلة. إلا أن الشر كثيرًا ما ينطوي على شيء من الخير. المرأة التي ذكرْتُها، مارينَّا، المرأة الضريرة؛ لا تستطيع أن تكف عن التفكير فيها، أليس كذلك؟ لا تنكرْ، بول، أنت بالنسبة لي كتاب مفتوح. مارينَّا اليوم، بالصدفة، ليس لديها ما تفعله. لا تعرف ماذا تفعل. آتي بها إليك في المقهى التي في الركن، مقهى الفريدو، أظن أن هذا اسمها، في الخامسة بعد ظهر اليوم. آتي بها، وأنصرف. لا تسألني كيف أقوم بهذه الأشياء، ليس سحرًا، لكنني أقوم بها ليس إلا.

تختفي كُسْتِلُّو وقت ما بعد الظهيرة بطوله، تظهر من جديد في الرابعة والنصف، وهو على وشك أن يغادر الشقة، تلهث. تقول: ثمة تعديل في الخطة. مارينَّا تنتظر أسفل السلم. لا توافق على فكرة مقهى الفريدو؛ لأنها — تطلق صوتًا يعبر عن السخط — لأنها عنيدة، هل يمكن أن أستخدم مطبخك؟

تعود من المطبخ بسلطانية صغيرة بها ما يبدو أنه كريمة. مجرد عجينة من الدقيق والماء. توضع على عينيك. لا تخف، لن تؤذيك. لماذا يجب أن تضعها؟ لأن مارينَّا لا تريدك أن تراها. وتلح في ذلك. هنا، انحنِ. اسكنْ. لا ترمشْ. ولتبقى في موضعها، ورقة ليمون على كل عين. ولتبقى الورقتان في موضعهما، جورب من النايلون، مغسول جيدًا، أعدُكَ، يُربَط من خلف رأسك. يمكن أن تنزعه وقتما تشاء. لكني لا أوصي بذلك، لا أوصي حقًّا.

– هكذا. تم كل شيء. آسفة، مسألة معقدة للغاية، ولكن هكذا نحن البشر، مُعَقَّدون، كل منا بطريقته الخاصة. الآن، إذا سكَنْتَ وانتظرْت، أصطحب مارينَّا وآتي بها إليك، هل تشعر بأنك مستعد؟ هل تشعر بأنك كفؤ؟ نعم؟ حسن. تذكرْ، يجب أن تدفع لها. ذاك هو الترتيب، لتحتفظ بتقديرها لنفسها. عالَم مقلوب رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ لكن ليس لنا غيره.

– سأنسحب بمجرد أن آتي بها وأترككما معًا ليتعرف كل منكما على الآخر بصورة أفضل، لن أعود إلا غدًا وربما بعد غد. بالسلامة. لا تقلق بشأني. أنا طائر عجوز قوي.

تمضي. يقف في مواجهة الباب مستندًا على الإطار. تأتي همهمة من بئر السلم. صوت مزلاج الباب مرة أخرى.

يقول في الظلام: أنا هنا. ويدق قلبه بعنف مع أنه لا يصدق.

انزلاق، اندفاع. أريج الورقتين الرطبتين على عينيه يغطي على كل الروائح الأخرى. ضغطة على الإطار، يشعر بها عبر يديه. يقول: عيناي مغلقتان، مغماتان. لم أعتد على عدم الرؤية، أصغي إليَّ.

تلمس وجهه يد صغيرة خفيفة، تستريح عليه. يفكر، يا له من جحيم: يتجه إلى اليد ويقبِّلُها. لنلعبْ هذه اللعبة حتى النهاية.

تتحسس الأصابع شفتيه، الأظافر مقصوصة. عبر حجاب الليمون يشم رائحة صوف بالكاد. تتتبع الأصابع خط الذقن؛ تعبر الغمامة، وتتوغل في الشَّعْر.

يقول: أسمعيني صوتك.

تسلِّكُ حنجرتها، وبنبرة عالية واضحة يعرف أنه ليس صوت ماريانا يوكتش: أخف، كائن أثيري إلى حد بعيد.

يقول: لو كان لك أن تغني لكان أجمل الأصوات. نحن على مسرح، بمعنى ما، ولو لم يشاهدنا أحد.

ولو لم يشاهدنا أحد. لكن، بمعنى ما، ثمة من يشاهدهم، إنه متأكد من ذلك، خلف عنقه، يمكن أن يشعر به.

يقول الصوت الخفيف: ما هذا؟ ويشعر بالإطار يتأرجح برقة شديدة. اللهجة ليست أسترالية، ولا حتى إنجليزية. كرواتية؟ كرواتية أخرى؟ بالتأكيد لا؛ الكرواتيات لسن بهذه الوفرة على الأرض. إضافة إلى ذلك، ما معنى هذه القافلة من الكرواتيات، الواحدة بعد الأخرى؟

– إطار من الألومنيوم، اسمها بالعامية مشاية. فقدْتُ ساقًا. أجد الإطار أقل إرهاقًا من العكازين. ثم يخطر بباله أن الإطار قد يكون حاجزًا. ننحيه جانبًا. ينحيه جانبًا ويجلس على الكنبة. تجلسين بجانبي؟ هذه كنبة، خطوة أو اثنتان أمامك. أخشى ألا أستطيع مساعدتك، بسبب غمامة وضعتها لي صديقتنا المشتركة مسز كُسْتِلُّو. لديها، مسز كُسْتِلُّو، حلول لكثير من الأمور.

يلوم مسز كُسْتِلُّو على الغمامة مثلما يلومها على أمور أخرى كثيرة، لكن لن يخلعها، ليس بعد، لن يكشف بصره.

بخشخشة ماذا ترتدي المرأة ليصدر كل هذه الضوضاء؟ تجلس المرأة بجانبه — تجلس، في الحقيقة، على يده. تجلس عليها لحظة بأكثر الطرق سوقية، ثم تقوم من على يده ويسحبها. المرأة ليست ضخمة لكن مؤخرتها ضخمة، ضخمة وطرية؛ ولأن الضرير لا يمارس نشاطًا، لا يمشي، لا يجري، لا يركب دراجة، تُكبَت كل هذه الطاقة في مكان مجهول حتى تجد متنفسًا. لا غرابة في أن تكون متوترة. لا غرابة في أن تكون على استعداد لزيارة رجل غريب على انفراد.

يداه حرتان الآن، يمكن أن يلمسها كما تلمسه. لكن هل هذا ما يريد أن يفعله؟ ألا يريد أن يتحسس تلكما العينين أو أي مكان بالقرب منهما؟ هل يريد أن — ما الكلمة المناسبة؟ — يروِّع؟ الترويع: هو ما يقلب معدة المرء، يشله، يترك المرء شاحبًا ومرتجفًا. هل يمكن أن يُروِّع المرءُ بما لا يستطيع أن يراه، بما تحدده الأنامل، ولو كانت أنامل مبتدئ مثله في دنيا العَمَى؟

يمد يده بتوجس. يلتقي بعنقود جامد من شيء لا يستطيع تحديده، فقاعات، حُلِي رخيصة، بذور يابسة معقودة في خيط. لا بد أنه عنقها أو صدر ثوبها. ذقنها على ارتفاع بوصة، الذقن متينة ومحددة؛ ثم فك صغير؛ ثم بداية الوزال أو الشعر الذي يشعر أنه داكن، مثلما يشعر بأن جلدها داكن؛ ثم شيء ما جامد، حلية أذن. تلبس نظارة، نظارة تتقوس للخلف عبر عظام وجنتيها، ربما نفس النظارة التي كانت تلبسها في المصعد.

– تخبرني مسز كُسْتِلُّو أن اسمك مارينَّا.

– مارينَّا.

يقول مارينَّا، تقول مارينَّا، لكنه ليس نفس الاسم. مارينَّا كما ينطقها لها لون ماريانا، أثقل من التي تنطقها، أكثر صلابة. ولا يمكن أن يصف مارينَّا كما تنطقها إلا بأنها سائلة، فضية، ليست في سرعة الزئبق، لكنها أشبه بالماء الجاري، تيار ملتف. هل هذا ما تشبهه؛

لأنه لا يرى: هل عليه أن يزن كل كلمة بيده، يزن كل نبرة، يتحسس المترادفات التي تبدو أشبه ما تكون بشِعْرٍ رديء (تيار ملتف)؟

– ليست ماريان الفرنسية؟

– لا.

لا. ليست فرنسية. شيء مؤسف. قد تكون فرنسا شيئًا مشتركًا مثل بطانية تنشر عليهما.

تقوم قطعة العجين المصنوعة من الدقيق والماء بعملها بصورة مدهشة. حتى مع اتساع حدقتي عينيه على آخرهما، يبقى في عالم أسود تمامًا. من أين استوحتْ كُسْتِلُّو الفكرة؟ من كتاب؟ وصفة تعود إلى عصور سحيقة؟

يجذبها إليه، وأصابعه ما زالت في شعر مجعد إلى حد ما، فتطاوعه. وجهها مضغوط على وجهه، والنظارة أيضًا، ومع أن قبضتيها ترتفعان، إلا أن عقدتين تحفظان ثديها بعيدًا عنه.

يقول: شكرًا على الزيارة. ذكرتْ مسز كُسْتِلُّو مشاكلك الحالية. آسف.

لا تنطق بكلمة. يشعر برجفة خفيفة تسري في جسدها.

يواصل: لا حاجة إلى ذلك، ولا يعرف ما يأتي بعد ذلك. ما الذي يحتاج إليه، وما الذي لا يحتاج إليه؟ يجب أن يحدث شيء؛ لأنهما رجل وامرأة؛ شيء ما يخضع، يلوذ بمصطلح كُسْتِلُّو المرأة، للشهوة. لكن تنشق بينهما، رجل وامرأة، وبين تدريب الشهوة هوة سحيقة. يبدأ مرة أخرى: لا نحتاج إلى الالتزام بأي اتفاق. لا نحتاج إلى عمل شيء لا نريده. نحن عميلان حران.

ما زالت ترتجف، ترتجف أو ترتعد كطائر. يقول: تعالي إليَّ، فتقترب منه مطيعة. الأمر صعب عليها بالضرورة، عليه أن يساعدها؛ فَهُما في قارب واحد.

يتبين في النهاية أن الخيط والبذور اليابسة والفقاعات التي في عنقها مجرد زينة. ينفتح الفستان بسوستة من الخلف، ومن حسن الحظ أنها تمتد إلى الخصر. أصابعه بطيئة ومبتدئة. ربما تسخن أصابعه لو وافقت على الجلوس على يده لحظة أخرى. حرارة حيوانية. أما حمالة الصدر فهي محكمة جيدًا وثابتة، من النوع الذي يتخيل أن الراهبات الكرمليات يلبسنه. الثديان كبيران، المؤخرة كبيرة، وكل ما عداهما صغير. مارينًّا. التي هي هنا، كما تقول كُسْتِلُّو المرأة، ليس قلقًا عليه، بل لمصلحتها الخاصة؛ لأن فيها عطشًا لا يُروى. بسبب طلعتها، بسبب وجهها المدمَّر الذي حُذِّر لا من النظر إليه فقط بل وحتى من لمسه، ونتيجة لذلك صار لوحًا من الثلج.

يقول: أقترح ألا نكثر من الكلام. إلا أن ثمة مسألة واحدة يجب ذكرها لأسباب عملية. لم أجرب هذه الأمور منذ الحادثة. ربما أحتاج إلى بعض المساعدة.

– أعرف. أخبرتني مسز كُسْتِلُّو.

– لا تعرف مسز كُسْتِلُّو كل شيء. لا يمكن أن تعرف ما لا أعرف.

– نعم.

نعم؟ ماذا تعني، نعم؟

يشك أنه التقط صورة لهذه المرأة بمفردها. ما كان لينسى أبدًا لو أنه فعل ذلك. ربما كانت ضمن مجموعة، حين كان يزور المدارس لالتقاط صور جماعية، هذا محتمل؛ لكن ليس بمفردها. الصورة التي في ذهنه لها لا تأتي إلا من المصعد ومما تخبره به أصابعه الآن. وهو بالنسبة لها مجموعة من المعطيات الحسية المشوَّشة: برودة يديه؛ خشونة جلده؛ خشونة صوته؛ ورائحة قد تكون كريهة بالنسبة لمنخريها الحساسين. هل يكفي هذا لتكوِّن صورة عن رجل؟ هل هذه هي الصورة التي أُعِدَّتْ لتمنح نفسها لها؟ لماذا وافقت على الحضور، بدون تَبصُّر؟ هل ما يحدث شبيه بالتجارب الأولية في البيولوجيا؟ شبيه بجلب أنواع مختلفة معًا لنرى إن كانت ستتزاوج ثعلب وحوت، جُدْجد وقرد؟

يقول: فلوسك، أضعها على هذه الطاولة الجانبية، في ظرف. أربعمائة وخمسون دولارًا. هل هذا مبلغ معقول؟

يشعر بإيماءتها.

تمر دقيقة. لا يحدث شيء. ماذا ينتظر رجل بساقٍ واحدة وامرأة شبه عارية؟ هل ينتظران طقطقة الكاميرا؟ مشهد قوطي أسترالي. ماتيلدا وفتاها، وقد قهرتهما ضغوط عصر الفالس تدريجيًّا، تضمحل أو تتساقط أجزاء من جسميهما، أمام المصوِّر لآخر مرة.

لا تتوقف رجفة المرأة. يمكن أن يُقْسِم بأن العدوى انتقلت إليه أيضًا، رعشة خفيفة في اليد يمكن أن تُعْزَى للسنِّ لكنها في الحقيقة لسبب آخر، خوف أو توقُّع (لكن ماذا؟)

إذا كان لهما أن يُواصِلا ما دفع لها من أجله، ومن أجله قبلتْ ما دفعه، فعليها التغلب على ارتباكها الحالي والانتقال إلى الخطوة التالية. حُذِّرَتْ مقدَّمًا من ساقه الفاسدة، ومن الثقة بقدرته على التحمل عمومًا؛ ولأنه يجد صعوبة في امتطاء المرأة، فقد يكون من الأفضل أن تمتطيه. ستكون لديه، وهي تحاول عبور هذا الممر، مشاكل تخصه وعليه أن يتغلب عليها، مشاكل مختلفة تمامًا. ربما، في العمى، ينمو حدس بالجمال يتأسس على اللمس أساسًا. إلا أنه ما زال يتحسس طريقه في عالم غير المُبصِرين. لم يَحِن بعد أن يتخيل الجمال

بدون رؤية الجمال. لم تخلف حكاية المصعد، حين لفتت المرأة العجوز انتباهه بقدر ما لفتته هي، في ذاكرته إلا خطوطًا عامة بالغة الوهن. حين يحاول أن يضيف للقبعة ذات الإطار العريض، والنظارة القاتمة، وانحناءة الوجه المتجه إلى الناحية الأخرى، حين يحاول أن يضيف إلى كل ذلك الثديين الثقيلين والكبيرين، والفخذين الطريين بصورة غير طبيعية، مثل كميات من سائل في بالونات من الحرير، لا يمكن أن يكون صورة متجانسة للأجزاء. كيف له حتى أن يتأكد من أنها المرأة ذاتها؟

يحاول جذب المرأة برقة. لا تقاوم، إلا أنها تشيح بوجهها بعيدًا؛ لأنها ترفض أن تسلِّم شفتيها أو لأنها لا تريد أن تمنحه فرصة ليخلع نظارتها، ويتحسس ما يقع تحتها، لا تريد ذلك؛ لأن الرجال ينزعجون انزعاجًا شديدًا حين يتعلق الأمر بالتشوه.

منذ متى فقدتْ بصرها؟ هل يمكن أن يسأل بأدب؟ وهل يمكن أن يواصل بأدب بعد ذلك ويطرح السؤال التالي: هل مارستِ الحب منذ ذلك؟ هل الخبرة هي التي علمتها أن عينيها المدمَّرتين تقتلان رغبة الرجل؟

إيروس. لماذا تستدعي رؤيةُ الجمال إيروسَ إلى الحياة؟ لماذا تخنق مشاهدة القُبح الرغبة؟ هل تسمو بنا ممارسة الجنس مع الجمال، تجعلنا أناسًا أفضل، أم نهذب أنفسنا بعناق المرضى والمشوَّهين والمنفِّرين؟ يا لها من أسئلة! أَمِنْ أجل هذا أحضرَتْهُما كُسْتِلُّو المرأة معًا، ليس من أجل ملهاة سوقية عن رجل وامرأة فَقدَا بعض أجزاء من جسميهما يبذلان قصارى الجهد ليندمجا، لكن لأنه يمكنهما، بمجرد انتهاء العملية الجنسية، أن يلتحقا بفصل من فصول الفلسفة، وفي يدي كل منهما محاضرات عن الجمال والحب والفضيلة؟

وسط كل هذا التضاؤل والارتباك والتحاشي والتفلسف، وبصرف النظر عن محاولة قام بها لحل ربطة عنقه وقد بدأت تخنقه (لماذا يلبس ربطة عنق على هذه الأرض؟) لم يعد التصرف الأخرق، بطريقة أو أخرى، كما كان، لم يَعودَا خَجُولَين يشلُّهما الخجل، يحاولان الانزلاق إليه، إلى الفعل الجسدي الذي تَعاقَدَا عليه طوعًا أو كرهًا، فعل مع أنه ليس الفعل الجنسي كما يُفهَم عمومًا إلا أنه فعل جنسي، وهو، برغم «الورك» المقطوع من ناحية والعينين المدمَّرتين من ناحية أخرى، يتقدم ببعض السرعة من البداية إلى الوسط إلى النهاية، أي في كل أجزائه الطبيعية.

أكثر ما أزعجه فيما قالته كُسْتِلُّو عن مارينَّا كلامها عن الجوع أو العطش الذي يثور في جسدها. لم يغرم أبدًا بالإفراط والبذاءة والعواطف المتوحشة والنخر والصياح والصراخ. تعرف مارينَّا كيف تكبح نفسها. تتمالك نفسها بصرف النظر عما يعتمل في داخلها،

وبمجرد أن انتهيا، تجعل كل شيء، تقريبًا، مهذَّبا مرة أخرى وبسرعة. تأتي له العلامة الوحيدة عن العطش الجامح أو الجوع الجامح على هيئة حرارة غير عادية، وإن لم تكن غير مستحبة، من أعماق جسدها، وكأن النيران تتقد في رحمها، أو ربما قلبها.

ومع أن الكنبة لم تُعَدَّ للعلاقات الجنسية أو ما يليها من دعة فلسفية، وبرغم أنهما يرتجفان بدون غطاء، إلا أنهما لم يَجِدَا حاجة بعد ليشقا الطريق إلى سرير حقيقي في غرفة نوم حقيقية.

يقول: مارينَّا، مختبرًا الاسم على لسانه، متذوقًا النون المشددة: أعرف أن هذا هو اسمك، ولكن هل يناديك الناس به؟ أليس لك اسم آخر؟

– مارينَّا، هذا هو، هذا كل شيء.

يقول: رائع جدًّا. مارينَّا، تقول مسز كُسْتِلُّو إننا التقينا من قبل. متى كان ذلك؟

– منذ زمن بعيد. التقطْتَ لي صورة. بمناسبة عيد ميلادي. ألا تتذكر؟

– لا أتذكر ولا أستطيع؛ لأني لا أعرف شكلَكِ. ولا يمكن أن تتذكريني لأنك لا تعرفين شكلي. أين كان ذلك، التقاط تلك الصورة؟

– في الاستوديو الخاص بك.

– وأين كان الاستوديو؟

تصمتُ. تقول في النهاية: حدث ذلك منذ زمن بعيد. لا أتذكر.

– من ناحية أخرى، تَقاطَع طريقانا في وقت قريب جدًّا. ركبنا المصعد معًا في المستشفى الملكي. هل ذكرتْ مسز كُسْتِلُّو ذلك؟

– نعم.

– ماذا قالت أيضًا؟

– إنك وحيد فقط.

– وحيد. يا له من أمر مثير. هل مسز كُسْتِلُّو صديقة مقربة منك؟

– لا، ليست مقربة.

– ماذا إذن؟

صمت طويل. يداعبها من تحت ملابسها، فوق وتحت، الفخذ، الجانب، الثدي. يا لها من لذة، لذة غير متوقَّعة، أن تتعامل بحرية مع جسد امرأة مرة أخرى، حتى لو كنت لا تراها!

يقول: هل أقحمتْ نفسها عليك؟ أقحمتْ نفسها عليَّ.

يشعر بها تهز رأسها ببطء يمينًا ويسارًا.

– هل في نيتها، على ما تظنين، أن نصبح أنا وأنت زوجين؟ ربما لتتسلى بنا؟ الأعرج يقود الضريرة؟

الملاحظة مقصودة بخفة، لكنه يشعر بها تتصلب. يسمع تشقق شفتيها، يسمع صوت بلعها، تنتحب فجأة.

يقول: آسف. يمد يده ويلمس وجنتها. تغرق في الدموع. يفكر، على الأقل بقيت لها القنوات الدمعية. آسف، حقًّا. لكننا ناضجان، لماذا نترك شخصية أخرى لا نكاد نعرفها تملي علينا حياتنا؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي.

تلهث لهاثًا يفترض أنه ضحك، والضحك يسبب النحيب. تجلس منتصبة بجانبه، نصف عارية، تنتحب بشدة، هازَّة رأسها يمينًا ويسارًا. حان بالتأكيد وقت نزع الغمامة، وتنظيف القذارة التي على عينيه ورؤيتها على حقيقتها، لكنه لا يقدم على ذلك، ينتظر، يتلكأ، يؤجل.

تنظف أنفها بمنديل ورقي يبدو أنها أحضرته معها، تسلِّكُ حنجرتها. تقول: أظن أن هذا ما كنْتَ تريده.

– إنه هو، بدون شك، إنه هو. إلا أن صديقتنا إليزابيث هي مصدر الفكرة. تصدر التعليمات فنتبعها. حتى حين لا يوجد من يرى ما نطيعه.

يرى. ليست الكلمة المناسبة، لكنه يُبقِي عليها. يجب أن تعتاد عليها من الآن، على من يقولون «يرى» ويقصدون شيئًا آخر.

يواصل: إلا إذا كانت ما تزال في الغرفة، تشاهد، وتتفحص.

تقول مارينَّا: لا، لا أحد هنا.

لا أحد هنا؛ لأنها ضريرة، تستطيع التقاط أقل ما يصدر عن الكائنات الحية، لا بد أنها مُحقَّة. ومع ذلك، لم يفارقه الشعور بأنه لا يحتاج إلا أن يصل إلى أسفل لتواجه أصابعه إليزابيث كُسْتِلُّو، ممدة على السجادة ككلبة، تراقب وتنتظر.

يحرك يده بشكل غامض: أيَّدت صديقتنا هذا؛ لأنه في رأيها يمثل تخطي العتبة؛ ترى أني سأظل أسير الأعراف وعاجزًا عن التقدم حتى أتخطى عتبة معينة. تلك هي الفرضية التي تختبرها في حالتي. ربما لديها فرضية أخرى بشأنك.

يعرف، حتى وهو يتحدث، أنها كذْبةٌ. لم تستخدم إليزابيث كُسْتِلُّو في وجوده كلمة تَقدُّم أبدًا. تأتي كلمة تَقدُّم من كتيبات كيف تساعد نفسك. يعرف الرب حقًّا ما تريده

إليزابيث كُسْتِلُّو، له أو لنفسها أو لمارينًّا هذه، يعرف الرب أي نظرية تعتنق في الحياة أو الحب، يعرف الرب ما يحدث بعد ذلك.

– على أية حال، وقد تخطينا عتبتها، نحن الآن حُرَّان في الانتقال إلى ما هو أسمى وأفضل.

يتكلم ليس إلا، وهو أفضل ما يستطيع في موقف صعب، محاولًا أن يدخل البهجة على امرأة تعاني من الكآبة التي تخيم بعد الممارسة الجنسية مع رجل غريب. لا يتخلى بعد، من خلال عتمته، عن الأمل في تكوين صورة لها، يمد يده من جديد ليلمس وجهها؛ ويغرق فعليًّا في خليج عتمته. تخذله كل براعته. لماذا، لماذا وضع ثقة كافية في كُسْتِلُّو المرأة ليتورط في هذه الممارسة، ليس مجرد تهور، غباء؟ ومن تكون هذه المرأة البائسة الضريرة تعيسة الحظ لتفعل ذلك بنفسها في هذه الظروف غير المواتية على أقل تقدير وتنتظر معلمتَها المخلصة أن تعود برحمتها وتخلصها؟ هل تؤمن كُسْتِلُّو بأن بضع دقائق من الاتصال الجسدي الملتهب تتمدد كالغاز لتملأ ليلة كاملة؟ هل تؤمن بأنها تستطيع إلقاء غريبين معًا، لا أحد منهما صغير، أحدهما عجوز حقًّا، عجوز وبارد، وتتوقع منهما أن يتصرفا مثل روميو وجوليت؟ يا لها من ساذجة! وهي أديبة فنانة ذائعة الصيت أيضًا! وهذه العجينة اللعينة التي تزعجه كلما جفت وقد أقسمتْ بأنها غير ضارة، كيف استطاعت أن تتخيل أنه إذا وارى عينيه بدقيق وماء فسيغير ذلك من شخصيته، يخلق منه رجلًا جديدًا؟ العمى إعاقة خالصة وبسيطة. رَجُلٌ بدون بصرٍ رجلٌ ينقصه شيء، كما أن رجلًا بساقٍ واحدةٍ رجلٌ ينقصه شيء، لكنه ليس رجلًا جديدًا. هذه المرأة البائسة التي أرسلتْها إليه امرأة ينقصها شيء أيضًا، شيء تمتعتْ به من قبل. كائنان ينقص كل منهما شيء، معوقان، منقوصان: كيف تخيلت أن شرارة سماوية ستنطلق بينهما، أو أية شرارة أخرى؟

والمرأة ذاتها، ماذا يدور بذهنها وبرودته تزداد دقيقة بعد دقيقة؟ أي هراء قيل لها لتشجيعها على أن تأتي طارقة باب رجل غريب وتقدم له نفسها! بالضبط كما حدث معه كان هناك تمهيد طويل لهذه المواجهة المفجعة، تمهيد يمتد بعيدًا إلى ماضٍ، يكفي ليكون كتابًا في حد ذاته، بداية من واين بلايت وبول ريمنت وقد خرج كل منهما من بيته في هذا الصباح الشتوي القاتل، وكل منهما غافِل عن وجود الآخر، وفي حالتها لا بد من استهلال يبدأ بالفيروس أو بقع الشمس أو الجين الفاسد أو الإبرة أو أي شيء آخر لتلقي عليه باللائمة في عماها، وتنتقل خطوة بعد خطوة لتلتقي بامرأة عجوز تبدو مقبولة (يبدو الكل أكثر قبولًا إن لم تكن تهتدي إلا بالصوت) تخبرك بأن لديها وسائل تطفئ عطشك الملتهب

بمجرد أن تَستقِلِّي التاكسي إلى مقهى يُدْعَى مقهى الفريدو في شمال أدليد، هذا هو الحل أضعه في يدك، لا حاجة بك إلى أن تكوني عصبية، الرجل الذي أتحدث عنه ليس مؤذيًا، وحيد فقط، سيعاملك مثل بغي تُطْلَب بالتليفون ويدفع لك مقابل الوقت الذي تقضينه معه، وعلى أية حال سأكون هناك، أحوِّم في الخلفية، وأحرسك، إذا لم يكن لديك سوى الصوت لتهتدي به ولا تستطيعين رؤية الومضة المجنونة في العين.

تجربة، ليست إلا تجربة، تجربة أدبية بيولوجية تافهة. جُدْجُد وقردة. وقعا كلاهما في المطب، هو بطريقته وهي بطريقتها!

تقول المرأة، القردة: يجب أن أرحل. التاكسي في الانتظار.

يقول: حين تقولين ذلك، كيف تعرفين أن التاكسي في الانتظار؟

– طلبتْه مسز كُسْتِلُّو.

– مسز كُسْتِلُّو؟

– نعم مسز كُسْتِلُّو.

– كيف يتأتى لها أن تعرف متى تحتاجين إلى التاكسي؟

تهز كتفيها.

– حسن، توليك مسز كُسْتِلُّو رعاية طيبة. هل أدفع أجرة التاكسي؟

– لا، لا، كله ضمن الحساب.

– حسن إذن، بلغي مسز كُسْتِلُّو تحياتي. واحترسي وأنت تنزلين السلم. قد تكون السلالم مبلولة.

يجلس ساكنًا، يكبح نفسه وهي ترتدي ثيابها. إلا أنه ينزع الغمامة ويهرش عينيه لحظة انغلاق الباب وراءها. لكن قطعة العجين جمدت وتحجرت. إذا نزعها بقوة فسيفقد رموشه. يلعن: عليه أن ينقعها في الماء.

١٦

تقول مسز كُسْتِلُّو: أتتْ إليَّ كما أتيْتَ إليَّ. امرأة العتمة، امرأة في العتمة. تجري القصة كما يلي: كلمات في أذني النائمة، ينطق بها ما كنا ندعوه قديمًا ملاكًا، يدعوني إلى مباراة في المصارعة؛ ولأني لا أعرف شيئًا عن المكان الذي تعيش فيه مارينَّا، تَمَّت كل المعاملات معها بالتليفون، يمكن أن أعطيك نمرتها إذا كنْتَ تود أن تكرر الزيارة.

زيارة أخرى، ليس هذا ما يريده. ربما بعد ذلك، لكن ليس الآن. ما يريده الآن هو التأكد من أن القصة التي حدثت له قصة حقيقية، المرأة التي أتتْ إلى شقته كانت المرأة التي رآها في المصعد؛ واسمها مارينَّا؛ وتعيش مع أمها المحدودبة، وقد هجرها زوجها بسبب البلوى التي حلَّتْ بها؛ وهلم جرًّا، يريد أن يتأكد أنه لم يُخْدَع.

ولأن هناك قصةً بديلة، قصةً سهل عليه نسج خيوطها. في القصة البديلة عثرت كُسْتِلُّو المرأة على مارينَّا ذات المؤخرة الضخمة في الدليل التجاري، قد يكون اسمها ناتاشا، قد يكون اسمها تانيا، جاءت من مُلْدَفيا عن طريق دبي ونيقوسيا. دربتها في التليفون على تمثيلية. قالت لها: لزوجي أخ ربما تحتاجين إلى معرفته، له تصرفات غريبة. ولكن هل هناك رجل ليس له تصرفات غريبة؟ وماذا تفعل المرأة، إذا أرادت أن تتجنب الفشل، سوى أن تعثر على طريقة لترويضهم؟ أغرب سلوكيات أخي زوجي أنه يفضل ألا يرى المرأة التي يقيم معها علاقة. يُفضِّل عالَم الخيال، يُفضِّل أن يُحلِّق برأسه فوق السحاب. ذات مرة انقلبت حياته رأسًا على عقب في حب امرأة اسمها مارينَّا، ممثلة. يريدُ منكِ، وطلب أن أنقله إليكِ بطريقة غير مباشرة، أن تُقدِّمي نفسك له على أنك مارينَّا الممثلة، متقمصة بعض العتاد أو الصفات التي سأمدك بها. هذا دورك؛ وسيدفع لك مقابل تمثيل هذا الدور، هل تفهمين؟ قالت ناتاشا أو تانيا: بالتأكيد، لكن الاستدعاء الخارجي له سعر إضافي. توافق

كُسْتِلُّو: الاستدعاء الخارجي له سعر إضافي. من المؤكد أني سأذكِّرُه بذلك. كلمة أخيرة، كُونِي لطيفة معه. فقدَ ساقًا منذ وقت قريب في حادثة طريق، ولم يَعدْ إلى طبيعته.

ربما هذه هي القصة الحقيقية، وراء زيارة من تُدعى مارينَّا، مع اختلاف بعض التفاصيل؟ لبست النظارة القاتمة لتخفي حقيقة أنها ليست ضريرة، لا حقيقة أنها ضريرة؟ حين ارتجفت، لم ترتجف نتيجة التوتر بل نتيجة الجهد الذي تبذله لكتم الضحك والرجل الذي يلف جوربًا حول رأسه يتحسس ملابسها الداخلية. تخطينا العتبة، الآن يمكن أن نتقدم إلى ما هو أسمى وأفضل. يا لها من حماقة مقدسة! ربما ظلت تضحك في التاكسي حتى وصلَتْ إلى بيتها.

هل كانت مارينَّا مارينَّا أم كانت مارينَّا ناتاشا؟ هذا ما يجب كَشفُه في أول فرصة؛ هذا ما يجب انتزاعه من كُسْتِلُّو. وقد ينتقل، فقط حين يحصل على الإجابة، إلى السؤال الأكثر عمقًا: هل يهمه من كانت المرأة حقًّا، هل يهمه أنه خُدِع؟

يقول متذمرًا: تعاملينني كدمية. تعاملين الجميع كأنهم دُمًى. تُؤلِّفِين قصصًا ترغميننا على تمثيلها أمامك. افتحي مسرح عرائس، أو حديقة حيوانات. لا بد أن هناك حدائق الحيوانات كثيرة معروضة للبيع؛ لأنها لم تعد تساير موضة العصر. اشتري واحدة، وضعينا في أقفاص عليها أسماؤنا: بول ريمنت، كَنيس إنفليكس، مارينَّا بوبوفا، سودوسيكا (مهاجرة). وهلم جرًّا. صفوف وصفوف من الأقفاص بها أناس مِمَّن يأتون إليكِ، كما تقولين، في سياق حياتك ككاذبة ومؤلفة أكاذيب. يمكن أن تفرضي رسم دخول، يمكن أن تعيشي منها، يمكن للآباء أن يُحضِروا أبناءهم في نهاية الأسبوع للفرجة علينا وإلقاء الفول السوداني لنا. أسهل من كتابة كتب لا يقرؤها أحد.

يتوقف منتظرًا أن تثور، تصمت.

يواصل: ما لا أفهمه — لم يكن غاضبًا حين بدأ هذا التقريع، وليس غاضبًا الآن، لكن بالتأكيد يجد لذة في الاستمرار — ما لا أفهمه هو، لماذا تثابرين معي وأنت تَرَيْن أني شديد الغباء، ولا أستجيب لمخططاتك؟ أسقطيني، أَتَوسَّل إليك، اتركيني أَعِشْ حياتي. اكتبي بدلًا من ذلك عن مارينَّا الضريرة وهي تحت تَصرُّفِك. تتمتع بإمكانات لا يمكن أن أتمتع بها في أي وقت. لستُ بطلًا، مسز كُسْتِلُّو. فَقْد الساق لا يؤهل شخصًا لدور درامي، ليس فقد الساق مأساة وليس ملهاة، سوء حظ ليس إلا.

– لا تكن قاسيًا، بول. أسقطيني، ارفعي مارينَّا، قد لا أفعل، وقد أفعل، مَنْ يعرف ما قد ينجرف إليه المرء؟

– لستُ قاسيًا.

– أنتَ قاسٍ بالطبع. أَسمَع القسوة في صوتك، أنت قاسٍ، ومَن يستطيع أن يلومك بعد كل ما تعرَّضْتَ له.

يأخذ عكازيه. يقول بفظاظة: يمكن أن أَحيَا بدون تَعاطُفك. سأخرج الآن، لا أعرف متى أعود، حين تغادرين، أغلقي الباب وراءك.

– سأغلق الباب بالتأكيد إذا غادرْتُ، لكن لا أظن أني سأفعل هذا. لا يمكن أن أخبرك كم أنا مشتاقة إلى حمَّام ساخن، هذا ما سأفعله، إذا كنت لا تمانع، يا له من ترف في هذه الأيام!

لم تكن المرة الأولى التي ترفض فيها كُسْتِلُّو المرأة تفسير ما تقوم به. لكن مراوغتها الأخيرة تثيره وتُقلِقُه. قد لا أفعل، وقد أفعل. هل اهتمامها به مُؤقَّت إلى هذا الحد؟ ربما تصبح مارينَّا الشخصية التي يقع عليها الاختيار بدلًا منه؟ بصرف النظر عن جلسة التصوير المُبهَمة، التي لا يتذكر شيئًا عنها، هل كانت المواجهتان بينهما، الأولى في المصعد، والثانية على الكنبة؛ حدثين في قصة حياة مارينَّا بوبوفا وليس في قصة حياة بول ريمنت؟ بالطبع ثمة إحساس بأنه شخصية عابرة في حياة مارينَّا أو أي واحدة أخرى يصادفها في طريقه، كما أن مارينَّا أو أية واحدة أخرى شخصيات عابرة في حياته. لكن هل هو شخصية عابرة بمعنى أكثر عمقًا أيضًا، شخصية يُركِّز الضوء عليها برهة وجيزة قبل أن ترحل؟ هل يتحول ما جرى بينه وبين مارينَّا إلى مُجرَّد مَمر ضمن مَمرَّات كثيرة في بحث مارينَّا عن الحب؟ أو ربما تكتب كُسْتِلُّو المرأة قصتين في الوقت ذاته، قصتين عن شخصيتين تعانيان الفقد (البصر في حالة، والحركة في الأخرى) وعليهما أن تَتعلَّما العيش معًا؛ وكتجربة أو نكتة مهنية، ربما رتبت ليتقاطع خطَّا حياتيهما؟ ليست لديه خبرة بالرِّوائيين وتصرفاتهم في العمل، ولكن يبدو أن الأمر قابِل للتصديق.

يجد في المكتبة العامة تحت رقم ٨٢٣٠٩١٤ A صفًّا كاملًا من الكتب من تأليف إليزابيث كُسْتِلُّو: «الأتون المشتعل، منزل في شارع إكلِز» في عدة نسخ فاخرة الطباعة، إلى «جزر الصداقة، تَنْجو ومستر دُنْبار، جذور الزمن، الدَّمِث» بالإضافة إلى مجلد أزرق داكن وكالح بعنوان «لهيب مستمر: النية والتصميم في روايات إليزابيث كُسْتِلُّو»، يتفحص الفهرس. لا ذكر لمارينَّا أو ماريانا؛ لا مدخل إلى العمى.

يتفحص «منزل في شارع إكلِز». ليوبُلْد بلوم. هوج بويلان. ماريون بلوم. ما مشكلتها؟ ألا تستطيع أن تؤلف شخصيات خاصة بها؟

يعيد الكتاب إلى موضعه، ويتناول «الأتون المشتعل» يقرأ بشكل عشوائي.

يُقلِّب الصلصال بين كفيه حتى يدفأ ويلين، ثم يشكِّله على هيئة حيوانات صغيرة: طيور، ضفادع، قطط، كلاب منتصبة الأذن. يضع التماثيل على قمة الطاولة في نصف دائرة، وأعناقها مشرئبة إلى الخلف كأنها تعوي على القمر، أو تنبح، أو تنقُّ.

صلصال قديم، من مخزون الكريسماس الأخير. الكيك الطازج أحمر طوبي، الورقة خضراء، السماء زرقاء، والآن وقد نزفت كلٌّ منهما في الأخرى، أصبحت أرجوانية كئيبة. لماذا؟ يتعجب؛ لماذا يبهت اللامع ولا يلمع الباهت أبدًا؟ ماذا نحتاج ليتلاشى الأرجواني ويخرج الأحمر والأخضر مرة أخرى، كما تخرج الكتاكيت من البيض؟

لماذا؟ لماذا؟ لماذا تطرح السؤال ولا تقدم الإجابة؟ الإجابة بسيطة: لن يعود الأحمر والأخضر والأزرق أبدًا نتيجة الأنتروبيا،[1] وهي غير عكسية ويتعذر إلغاؤها، وتحكم الكون. حتى الأديب يجب أن يعرف ذلك، حتى السيدة الروائية. من التنوع إلى التَّوحُّد بلا رجعة. من الكتكوت الفصيح إلى الدجاجة العجوز المَيِّتة في الرماد.

يقلِّب الصفحات حتى يصل إلى منتصف الكتاب. لم تكن تستطيع البقاء مع رجل مرهق باستمرار. وكان من الصعب تمامًا أن تستبعد إرهاقها الخاص. لم يكن عليها إلا أن تتمدد بجانبه في السرير المألوف تمامًا حتى تشعر بالضجر يتسرب منه ويجرفها في تيار خامل بلا لون ولا رائحة. كان عليها أن تفر! الآن!

ماريون لا مارينًا. ليس هناك — بقدر ما يرى — مكفوفون أو مبتورون. يغلق «الأتون المشتعل» فجأة. لن يتعرض لمزيد من هذا الغاز الكئيب الخامل، عديم اللون والرائحة، المنبعث من صفحاته. ماذا جرى يا إلهي لتصبح إليزابيث كُسْتِلُّو مؤلفة شهيرة، إن كانت شهيرة حقًّا؟

ثمة صورة فوتوغرافية على الغلاف الخارجي: إليزابيث كُسْتِلُّو وهي أصغر ترتدي سترة قصيرة، تقف أمام ما يبدو أنها حبال يخت. عيناها مغمضتان نصف إغماضة أمام الضوء، وجلدها مصبوغ بعمق. امرأة بحر؟ هل توجد هذه الكلمة، أم يجب أن تكون امرأة البحر حورية، مثلما فرس البحر، فرس البحر،[2] سمكة؟ ليست بارعة، وقد يكون من

[1] أنتروبيا: نزوع افتراضي لكل أشكال المادة والطاقة في الكون باتجاه الخمول.

[2] بالفرنسية في الأصل.

الأفضل النظر إلى منتصف العمر لا إلى فترة الشباب. وكتاباتها مع ذلك سطحية وربما بلا معنًى. لا تتفق مع ميوله. وربما لا تتفق مع ميول أي إنسان.

المؤلفون العالميون المعاصرون، في قسم المراجع في المكتبة، به سيرة ذاتية موجزة مع نفس الصورة البحرية. ولدتْ في مِلْبورن، أستراليا، ١٩٢٨م. أقامت في أوروبا فترة طويلة. أول كتاب ١٩٥٧م. قائمة بالمكافآت والجوائز، قائمة بالأعمال بدون ملخصات. تزوجت مرتين، أنجبت ولدًا وبنتًا.

اثنان وسبعون! عجوز إلى هذا الحد! ماذا تفعل؟ تنام على أرائك المتنزهات! هل اختل عقلها؟ هل هي مخبولة؟ قد يفسر ذلك كل شيء؟ يجب وضع ابنها وبنتها في الصورة؟ هل يأخذ على عاتقه مهمة تتبعهما؟ من فضلك احضر حالًا. أمك تقيم معي، وأنا غريب عنها تمامًا، وترفض أن تغادر. وقد نفدت حيلتي. انقلها، استلمها، افعل ما أطلبك من أجله ما دمتُ حرًّا.

يعود إلى الشقة. كُسْتِلُّو ليست موجودة، لكن مفكرتها على طاولة القهوة. يحتمل أنها تركَتْها مُتعمِّدة. إذا اختلس نظرة فسيكون ذلك انتصارًا آخر لها، ومع ذلك، تكتب بحبر أسود ثقيل، بخط انسيابي كبير، بضع كلمات في السطر. يقلِّب الصفحات إلى أن يصل إلى آخر فصل، يقرأ: ظلام ظلام ظلام. كلهم غارقون في الظلام، فضاء خاوٍ بلا قمر.

يتصفح ما قبل ذلك.

يقرأ: تنحني على الجسد. تدعو، الكلمة تحتها خط. تهتز كثيرًا على جانب السرير إلى الخلف وإلى الأمام، يداها على أذنيها، عيناها مفتوحتان عن آخرهما، لا ترمش، كأنها تخشى أن تفوتها اللحظة التي ستفارق فيها الروحُ الجسدَ، مثل تدفق الغاز، لترتفع في طبقات الهواء طبقة بعد أخرى، حتى الستراتوسفير وما بعدها. خارج النافذة، الشمس ساطعة والطيور تغرد كالمعتاد. حبيسة إيقاع أساها مثل عدَّاء المسافات الطويلة. مارثون الأسى. ستواصل على هذا المنوال طوال اليوم إذا لم يأتِ أحد وينتشلها. إلا أنها لم تَلمَسْه بعد (هو، جسمه). لماذا لا؟ الهلع من اللحم البارد؟ هل الرعب أقوى من الحب رغم كل شيء؟ أو ربما صممتْ، من بين فوضى الأسى، ألا تحاول استعادته مرة أخرى. قالت بالسلامة، تصحبك السلامة. بالسلامة: الرب معك. وبعد ذلك، على الصفحة: ظلام ظلام ظلام ...

لو قرأ ما قبل ذلك بما يكفي، فسيعرف دون شكٍّ وبصورة أوضح مَن المرأة الحزينة، وجُثَّة مَنْ. لكن يبدو أن عفريت الفضول ينصرف. ليس متأكدًا من أنه يريد أن يعرف المزيد. في هذه الكتابة شيء غير موفق، الحبر الثقيل يتناثر بلا اكتراث على خطوط الترام، شيء ما عاقٌّ، مستفز، يكشف ما لا ينتمي إلى ضوء النهار.

هل المُفكِّرة كلها بهذا الشكل: استفزاز، تحدٍّ للذوق؟ يتصفحها بحذر من البداية. لا يستطيع ربط الفصول معًا نتيجة المط الطويل، تكتب وكأنها تتعجل في تدوين قصة استَرقَت السمع إليها، ضاغِطَة السرد، مُختصِرة الحوار، قافزة بنفاد صبر من مشهد إلى مشهد. لكن ثمة عبارة تسترعي انتباهه: ساق زرقاء، ساق حمراء. ليوبا؟ لا يمكن إلا أن تكون ليوبا. مهرج، ألوان جنونية. بالألمانية، البقر المخطط بقر مجنون، المسوس، الذي يقفز على القمر. ويضحك الكلب الصغير. أدخلي كلبًا، الكلب المهجن الصغير الذي يهز ذيله للجميع بلا استثناء نابحًا تواقًا للرضا؟ رد فعل ب. ر قد أكون كلبًا صغيرًا، لكن ليس إلى هذا الحد بالتأكيد! مُت وجِيف.

يغلق الكتاب فجأة. إذا لم تكن أذناه تحترقان فقد تحترقان. بَدَا خائفًا: تَعرِف كل شيء، كل كبيرة وصغيرة. عليها اللعنة! طوال الوقت الذي ظن فيه أنه سيد نفسه كان في القفص كفأر، يندفع هنا وهناك، يتذمر، تراقبه شيطانة، تشاهد وتستمع وتسجل ملاحظات، وتسجل تطور حالته.

أم إن الأمر أسوأ من ذلك، أسوأ بصورة لا تُوصَف، أسوأ لدرجة تهدد العقل بالعطب؟ هل هذا ما يمكن ترجمته بما لا يمكن إلا أن يدعوه حاليًّا الجانب الآخر؟ هل هذا ما حدث له؟ هل هذا ما يحدث لكل إنسان؟

بحذر شديد يستقر في كرسي. إن لم تكن هذه اللحظة لحظة كبرى، لحظة كونية، فماذا تكون؟ انكشفتْ له أعظم الأسرار. عالم يوجد، بلا شك، جنبًا إلى جنب مع الأول. يتحرك المرء في الأول فترة معينة؛ ثم يصل ملك الموت في شخص واين بلايت أو شخص آخر مثله. يتوقف الزمن لحظة، دهرًا؛ يسقط المرء في حفرة معتمة، ثم يُبعَث المرء، يا للعجب بسرعة، في عالم ثانٍ يشبه الأول، حيث يستأنف الزمن ويستمر الفعل — التحليق في الهواء كقط، حشد من المتفرجين الفضوليين، الإسعاف، المستشفى، دكتور هَنْسِن، وهلم جرًّا، باستثناء أن المرء عنده الآن إليزابيث كُسْتِلُّو، أو مَن يشبهها، يلتف حول عنقه.

مجرد وثبة يثبها، من كلمة ك – ل – ب في المفكرة إلى الحياة الأخرى. حدسٌ وحشي. قد يكون مخطئًا. إنه مخطئ على الأرجح. لكن سواء كان مخطئًا أم مصيبًا، سواء كان ما يدعوه في أكثر حالات الروح تذبذبًا الجانب الآخر حقيقة أم وهمًا، فأول نعت يصادفه، مكتوبًا حرفًا بعد حرف خلف جفونه بآلة كاتبة سماوية؛ هو سقيم. إذا لم يكن الموت إلا حيلة، وقد يكون أيضًا حيلة كلامية، إذا لم يكن الموت إلا غصة في حلق الزمن تستمر الحياة بعدها كما كانت من قبل، فلماذا كل هذه الجلبة؟ هل يُسمَح للمرء برفضه، رفض هذا

البقاء، هذا المصير السقيم؟ أريد استعادة حياتي القديمة، الحياة التي انتهت على طريق مَجيل.

إنه مُستنزَف، ذهنه يترنَّح، ليس أمامه إلا أن يغلق عينيه ويستغرق في النوم، لكنه لا يريد أن يرقد هنا خاملًا ومكشوفًا حين تعود كُسْتِلُّو المرأة، بدأ يُدرِك خاصية مُعيَّنة فيها، ثعلبية أكثر منها كلبية، وهو أمر لا علاقة له بمظهرها لكنه يستفزُّه ويهز ثِقَته عمومًا. يستطيع بيُسرٍ أن يتخيلها تطوف خِلْسَة من غرفة إلى غرفة في الظلام، تتشمم الفريسة.

يشعر بِهَزَّة خفيفة وهو ما زال جالسًا في الكرسي. لا تقف أمامه مسز كُسْتِلُّو الثعلبية بل ماريانا يوكتش، المرأة التي تضع على رأسها وشاحًا أحمر وهي بطريقة ما (لا يستطيع الآن أن يتذكر كيف، ذهنه مرتبك تمامًا) جذر كل هذه التعقيدات أو مصدرها أو ينبوعها.

– مستر ريمنت، أنت بخير؟

– ماريانا! نعم، بالطبع. بالطبع أنا بخير — لكنها ليست الحقيقة. ليس بخير. رائحة فمه كريهة، ظهره متصلب، لكنه يكره المباغتة — كم الساعة؟

تتجاهل ماريانا السؤال. تضع ظرفًا على طاولة القهوة بجانبه. تقول: شيكك، يقول رُدِّيه، لا نقبل فلوسًا. زوجي. يقول لا يقبل فلوس رجل آخر.

فلوس. دراجو. حديث ينتمي إلى عالَم آخر. عليه حشد حكمته. يسأل: وماذا عن دراجو نفسه؟ ماذا عن تعليم دراجو؟

– يستطيع دراجو أن يذهب إلى المدرسة كما كان، لا يحتاج مدرسة داخلية. يقول زوجي.

تلمس الطفلة ليوبا «جيبة» أمها بأصابعها، تمص إبهامها. بحذر تتسحب كُسْتِلُّو المرأة من خلفها إلى الغرفة. هل كانت في الشقة وهو نائم؟

يقول: هل تَودِّين أن أكلم زوجك؟

تهز ماريانا رأسها بقوة. لا يمكن أن تتخيل ما هو أسوأ من ذلك، وما هو أكثر غباءً.

– حسن، نفكر فيما علينا أن نفعله بعد ذلك. ربما لدى مسز كُسْتِلُّو كلمة تنصحنا بها.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: أهلًا ليوبا، أنا صديقة أمك، يمكن أن تناديني بإليزابيث أو الخالة إليزابيث. آسفة، ماريانا؛ لأني سمعتُ مشكلتك، لكني جديدة على المشهد، لا أظن أنه يجب أن أتَدخَّل.

يفكر بضغينة، تَتدخَّلِين طوال الوقت. لماذا أنتِ هنا إن لم يكن لتتدخلي؟

تلقي ماريانا بنفسها على الكنبة بتنهيدة تكاد تكون صرخة. تخبئ عينيها؛ تنهمر الدموع الآن. تتخذ الطفلة مكانها بجوارها.

تقول: مثل هذا الولد الرائع. مثل هذا الولد الرائع. يهزمها النحيب. يريد أن يواصل طريقه إلى أبعد مَدًى!

في عالَم آخر، في عالَم كان فيه شابًّا كاملًا ورائحة نفَسه زكية، كان سيضم ماريانا في ذراعيه، ويجفف دموعها، ويقول: سامحيني؛ لم أكن مخلصًا لك، لا أعرف السبب! حدث ذلك مرة ولن يتكرر مرة أخرى أبدًا! ضُمِّيني إلى قلبك وسأعتني بكِ، أقسم، حتى أموت!

تُحدِّق فيه الطفلة بعينيها الداكنتين، كأنها تقول: ماذا فعلْتَ بأمي؟ إنها غلطتك وحدك!

إنها غلطته. ترى هاتان العينان الداكنتان خبايا قلبه، تريان رغبته الخفية، تريان في أعمق أعماقه أن هذه اللمحة الأولى لصدع بين رجل وزوجة تجعله مبتهجًا، لا حزينًا. سامحيني أيضًا! يقول في صَمْت مُوجِّهًا نظرة مباشرة إلى عيني الطفلة. لا أقصد أذًى، أنا في قبضة قوة خارج سيطرتي!

يقول بنبرة شديدة الأسى: لدينا وقت كافٍ. أمامنا أسبوع قبل غلق باب تقديم الطلبات للعام الجديد، سأتكفل بمصروفات المدرسة، سأطلب من المحامي أن يكتب لهم خطاب الضمان، وبهذه الصورة لا يبدو الأمر شخصيًّا. تَحدَّثِي مع زوجك مرة أخرى بمجرد أن يهدأ. أنا واثق من قدرتك على إقناعه، أنتِ ودراجو معًا.

تهز ماريانا كتفها يأسًا. تقول للطفلة شيئًا لا يفهمه؛ تغادر الطفلة الغرفة وتعود بلفة مناديل. تجفف ماريانا أنفها بصوت عالٍ. الدموع، البصاق، مخاط الأنف: وجه الأسى الأقل رومانسية، الوجه الخفي. كالوجه الخفي للجنس: البقع، الروائح.

هل تدرك ما حدث هنا، على الكنبة حيث تجلس؟ هل تشعر بذلك؟

يواصل: إلا إذا كانت المسألة مسألة شرف، إذا رأى زوجك استحالة قبول قرض من رجل آخر، ربما يمكن تشجيع مسز كُسْتِلُّو على كتابة الشيك، وتكون بمثابة وسيط في هذا العمل الخيِّر.

المرة الأولى التي يُورِّط فيها مسز كُسْتِلُّو. يشعر بنشوة انتصار حقيقي.

تهز مسز كُسْتِلُّو رأسها. تقول: لا أعتقد أن تَدخُّلِي ممكن. إضافة إلى وجود صعوبات عملية أفضِّلُ ألا أخوض فيها.

يقول: مثل؟

تُكرِّر: أفضل ألا أخوض فيها.

يقول: لا أرى أية صعوبات عملية إطلاقًا. أكتبُ لك شيكًا وتكتبين شيكًا للمدرسة. لا شيء أبسط من هذا. إذا لم تفعلي ذلك، إذا رفضْتِ أن تتدخلي، على حد تعبيرك، فعليك أن تنصرفي. انصرفي واتركينا وَحْدَنا.

يتمنى أن تثيرها حدَّتُه. لكنها لم تُستَثَرْ إطلاقًا. تقول بهدوء: أترككما وحدكما؟ بهدوء حتى إنه لا يكاد يسمع. إذا تركتكما وحدكما (ترمش عيناها لماريانا) إذا تركتكما أنتما الاثنين معًا، فماذا تفعلان؟

تنهض ماريانا، تجفف أنفها مرة أخرى، تضع المناديل في كمها. تقول بحزم: يجب أن نمشي.

يقول: ساعديني، ماريانا، من فضلك!

على بسطة السلم، بعيدًا عن تَنصُّت كُسْتِلُّو المرأة، تتجه إليه: إليزابيث صديقة طيبة؟

– طيبة؟ لا، لا أظن. ليست صديقة طيبة، ليست صديقة حميمة، لم أرَها إلا منذ فترة وجيزة، ليست صديقة إطلاقًا، إليزابيث كاتبة محترفة، تكتب روايات وقصصًا عن الحب. تتصيد حاليًّا شخصيات لتضعها في كتاب تخطط له. يبدو أنها تضع آمالها فيَّ، وفيك أيضًا، بعد خطوة، لكني لستُ شخصًا مناسبًا. لهذا تزعجني. تحاول أن تجعلني مناسبًا.

تحاول السيطرة على حياتي. أنقذيني. هذا ما يود قوله. لكن الاستغاثة بماريانا في حالتها الحالية ظلم.

تبتسم له ماريانا ابتسامة باهتة. انتهت الدموع إلا أن عينيها حمراوان، وأنفها منتفخ. ضوء السماء الساطع يظهرها بوحشية، جلدها خشن بدون مكياج، لون أسنانها متغير. يفكر، من هذه المرأة التي أتوق إلى أن أمنحها نفسي؟ سرٌّ، كل شيء سرٌّ. يأخذ يدها. يقول: سأقف بجانبك. سأساعدك، أعدك، سأساعد دراجو.

تنتحب الطفلة: ماما!

تخلص ماريانا يدها. تقول: يجب أن نذهب، وتذهب.

١٧

يبلغ كُسْتِلُّو المرأة: عندي زوار. لن أحظى بعطفك في المساء. أخشى أنكِ قد تحتاجين لعمل ترتيبات أخرى.

– بالطبع، يسعدني أن أراك تعود إلى الدائرة الاجتماعية. أفكر ... ماذا أفعل؟ ربما أذهب إلى السينما. هل هناك ما يستحق المشاهدة، هل تعرف؟

– لم أفصح عن نفسي بوضوح. حين أقول عمل ترتيبات أخرى، أعني عمل ترتيبات أخرى للإقامة في مكان آخر.

– أوه! وفي أي مكان آخر يجب أن أقيم؟ ماذا تعتقد؟

– لا أعرف. ليس لي أن أحدد المكان الذي تخرجين إليه. ارجعي من حيث أتيْتِ، ربما.

صمتٌ. تقول: هكذا. على الأقل أنت مُتبلِّد. وبعد ذلك: بول، هل تتذكر حكاية سندباد والعجوز؟

لا يردُّ.

تقول: على شاطئ تيار جارف، يلتقي سندباد بعجوز. يقول العجوز: أنا عجوز وضعيف. احملني إلى الجانب الآخر يرحمك الله؛ ولأن سندباد طيب القلب، يحمل العجوز على كتفيه ويخوض التيار. وحين يصلان إلى الجانب الآخر، يرفض العجوز النزول. ويلف ساقيه حول رقبة سندباد حتى يختنق. يقول العجوز: أنت الآن عبد لي، عليك أن تنفذ أوامري في كل شيء.

يتذكر الحكاية. كانت في كتاب بعنوان الأساطير الذهبية،[1] الأساطير الذهبية، في كرتونة كتبه في لُرْدِز. يتذكر الرسم بوضوح: العجوز نحيف وعارٍ إلا مما يستر عورته، ساقاه النحيلتان تَلتَفَّان حول رقبة البطل، والبطل يحمله ويخوض به تيارًا يصل إلى الخصر. ماذا حدث لِلكِتاب؟ ماذا حدث لكرتونة الكتب وكل البقايا الأخرى من طفولة فرنسية عبرت المحيطات إلى البلاد الجديدة ولم تَنْسَها؟ هل يجدها في القَبْو إن عاد إلى بيت الهولندي في بلَّرات، سندباد والثعلب والغراب وجان والقوس وبقية رفاقه في القصص، محبوسين في كراتين، ينتظرون بفارغ الصبر عودة سيدهم الصغير لإنقاذهم؛ أم إن الهولندي تخلص منهم منذ زمن طويل بعد موت زوجته؟

يقول: نعم، أَتذكَّر. هل أفهم أني سندباد في الحكاية وأنتِ العجوز؟ في هذه الحالة ثمة صعوبة، لا حيلة — كيف أعبِّر بأدب؟ — لا حيلة لكِ لاعتلاء كتفيَّ. وأنا لن أساعدكِ.

تبتسم كُسْتِلُّو ابتسامة مكتومة. تقول: قد أكون فوقهما فعلًا، ولا تعرف.

– لا، لستِ فوقهما، مسز كُسْتِلُّو. لستُ تحت سيطرتك، بأي معنى، وسأثبتُ لك ذلك. أطلب منك بلطف إعادة مفتاحي، المفتاح الذي أخذْتِه بدون إذني، وتَرْك شقتي ولا تعودي مرة أخرى.

– هذه كلمات جافَّة لا يليق بكَ أن توجهها لامرأة عجوز، مستر ريمنت. هل أنت متأكِّد من أنك تعني ما قلْتَ؟

– هذه ليست مَلهاة، مسز كُسْتِلُّو. أطلب منكِ الانصراف.

تتنهد: حسن جدًّا. لكني لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لي، والمطر ينهمر والظلام يهبط سريعًا.

لا مطر ولا ظلام، عصرية رائعة، دافئة وساكنة، عصرية من النوع الذي يجعل المرء يبتهج لأنه على قيد الحياة.

تقول: هذا مفتاحك. وتضع بحذر مفرط مفتاح الباب الخارجي على طاولة القهوة. أحتاج مهلة قصيرة لجمع أشيائي وعدل وجهي، ثم أنصرف، وتعود وحيدًا من جديد، وأنا واثقة من أنك تتطلع إلى ذلك.

بنفاد صبر يشيح بوجهه. تعود بعد دقائق.

---

[1] بالفرنسية في الأصل.

– بالسلامة. تنقل كيسًا من البلاستيك من اليد اليمنى إلى اليسرى، تقدم له اليمنى. أتركُ حقيبة صغيرة. أرسل في طلبها بعد يوم أو اثنين، حين أعثر على مأوًى بديل.

– أفضِّلُ أن تأخذي حقيبتك معك.

– مستحيل.

– ممكن، وأفضِّلُ أن تأخذيها.

ينتهي الحديث بينهما هنا. يشاهدها من الباب الخارجي تنزل السلم بِتريُّث خطوة خطوة، حاملة الحقيبة. لو أنه جنتلمان لعرض المساعدة، سواء كانت ساقه فاسدة أم لا، لكنه في هذه الحالة ليس جنتلمان، كل ما يريده أن تخرج من حياته.

١٨

إنه يتطلع حقًّا لأن يكون وحيدًا، جائع للوحدة. ولكن بمجرد أن غادرت إليزابيث كُسْتِلُّو كان دراجو يوكتش بالباب وحقيبة مكتظة على كتفيه.

يحييه دراجو: أهلًا. كيف حال الدراجة؟

– لم أفعل شيئًا بشأن الدراجة للأسف. أهتم بأمور أخرى. ماذا أفعل لك؟ ها تريد الدخول؟

يدخل دراجو، يضع حقيبته على الأرض. لم تعد ثقته بنفسه لافتة كما كانت؛ يبدو مرتبكًا.

يسأل: هل تأتي بشأن ولنجتون كولج؟ هل تريد التحدث في ذلك؟

يومئ الولد.

– حسن، انطلقْ. ما المشكلة؟

– تقول ماما أنك ستدفع المصروفات.

– حقًّا. سأتكفل بمصروفات عامين. يمكن أن تعتبرها قرضًا إن أحببْتَ، قرضًا طويل الأجل. لا يهمني كيف تفكر في الأمر.

– أخبرَتْنِي ماما أن المبلغ عبء عليك. ما كنتُ أعرف أنه كبير إلى هذا الحد.

– دراجو، لا أحتاج إلى الفلوس. إذا لم نصرفها في تعليمك، فستبقى في البنك بلا جدوى.

يقول الولد بعناد: نعم، لكن لماذا أنا؟

لماذا أنا؟ يبدو أنه سؤال على شفاه الجميع. يمكن أن يراوغ دراجو ببضع كلمات مهذبة، لكن لا، جاء الولد بنفسه ليستفسر، وسيقدم له إجابة، الإجابة الحقيقية أو جزءًا من الإجابة الحقيقية.

– دراجو، في الوقت الذي عملتْ فيه أمك هنا تطور في داخلي إحساس رقيق تجاهها. غيَّرتْ حياتي تغييرًا هائلًا. نعرف كلانا أنها لا تعرف الراحة. أريد المساعدة قدر المستطاع.

تتلاشى الآن رائحة المراوغة. ينظر الولد في عينيه مباشرة بتحدٍّ: هل هذا كل ما يمكن أن تقوله؟ هل هذا أقصى ما تذهب إليه؟ وإجابته؟ نعم هذا أقصى ما أذهب إليه حاليًّا.

يقول دراجو: لن يسمح أبي بذلك.

– بقدر ما سمعتُ، قد تكون المسألة بالنسبة لأبيك مسألة كبرياء. أتفهَّمُ ذلك. لكن ذكِّرْه أن الاقتراض من صديق ليس عارًا؛ لأني أود أن ينظر للمسألة على هذا النحو: من صديق.

يهز دراجو رأسه: المسألة ليست كذلك. تشاجرَا، ماما وبابا، بسبب ذلك. ترتجف شفتاه. عمره ستة عشر عامًا، ما زال طفلًا. يواصل بهدوء: تشاجرَا ليلة أمس. ماما تركَت البيت. ذهبَت لتقيم مع العمة ليداي.

– وأين؟ أين العمة ليداي؟

– أول الطريق بالضبط، في إليزابيث. شمال إليزابيث.

يقول: دراجو، لنتكلمْ بصراحة. لم تكنْ لتأتي إلى هنا اليوم إن لم تزعجك أفكار تتعلق بأمك وبي؛ لذا أقول لك الحقيقة. لا شيء مُخزٍ بيني وبين أمك. لا شيء مُخزٍ في مشاعري تجاهها. أبجِّلها قدر ما أبجِّلُ أية امرأة على الأرض.

لا شيء مُخزٍ. يا لها من كلمات عتيقة مضحكة! أليست مجرد ورقة توت تستر شيئًا أعظم خطورة، شيئًا لا يقال: لم أضاجع أمك؟ إن كانت المُضاجَعة كل ما يشغلك، إن كانت المُضاجَعة تجعل ميروسلاف يوكتش يقع في غضب الغيرة وتجعل ابنه على وشك البكاء، لماذا يتكلم عن التبجيل؟ لم أُضاجِع أمك، ولم أتحرش بها أبدًا، اذهب وأخبِرْ أباك بذلك. لكن إن لم يكن يخطط للتحرش بماريانا، إن لم يكن يتوق إلى مضاجعتها، فلماذا، باسم الرب، يخطط أو يتوق، بكلمات يفهمها شاب وُلِد في ثمانينيات القرن العشرين؟

– آسف لأني تسببتُ في مشاكل بين أبويك. هذا آخر ما أريده. لدى أبيك فكرة غلط تمامًا عني. سيعرفني بصورة أفضل إذا التقى بي شخصيًّا.

يقول دراجو: ضَربَها، ثم يفقد السيطرة — السيطرة على صوته، السيطرة على دموعه، وربما السيطرة على حركات قلبه — أكرَهُه. ضرب أختي أيضًا.

– ضرب بلنكا؟

– لا، أختي الصغرى. بلنكا في صَفِّه. تقول: ماما تقيم علاقات، تقول: ماما على علاقة بك.

ماما تقيم علاقات. وصفَتْها كُسْتِلُّو المرأة بأنها زوجة مخلصة. قالت: عليه ألا يضيع وقته في تجريب حظه مع ماريانا يوكتش؛ لأن ماريانا يوكتش زوجة مخلصة. مَن الصادقة، الابنة الحاقدة، أم العجوز المجنونة؟ ويا لها من صورة مروِّعة! ميروسلاف، بلا شك دب كبير على هيئة رجل، وقد غضب وسكر، ينزل بقبضتيه على ماريانا، ينزل بهما أيضًا على ابنته التي تشبه قطعة من الخزف، والابن واقف يغلي! مشاعر بلقانية! كيف يا رب تَورَّط مع بلقاني، ميكانيكي بلقاني، وبطته الآلية!

يكرر بعناد: لا علاقة لي مع أمك. لا تُفكِّر في ذلك، ولا أُفكِّر فيه. يا لها من كذبة! أفكر بذلك يوميًّا. إن لم تصدقني، فقد انتهى الأمر، لن أحاول إقناعك. ماذا تنوي الآن، فورًا؟ هل ستقيم في البيت أم تقيم مع أمك؟

يهز دراجو رأسه: لن أعود. أذهب إلى بيت أحد رفاقي. يركل حقيبته: أحضرتُ أشيائي.

بنظرة إلى الحقيبة يتبين أنه أحضر الكثير جدًّا من الأشياء.

– يمكن أن تنام هنا إن أحببْتَ. في مكتبي سرير احتياطي.

– لا أعرف. أخبرْتُ صديقي بأني سأقيم معه. أخبرك فيما بعد؟ أترك حقيبتي هنا؟

– على راحتك.

يجلس إلى ما بعد منتصف الليل في انتظار دراجو. ولا يعود دراجو إلا في اليوم التالي. يخبره في تليفون المدخل: معي صديقة، ونحن في المدخل. هل يمكن أن تصعد؟

صديقة، فتاة: إذن قضى الليل هناك! نعم، تصعد. لكنه يكاد يصرخ غضبًا حين يَفتح الباب. بجانب دراجو الذي يبدو حزينًا وقذرًا تقف إليزابيث كُسْتِلُّو. ألا يمكن أن يتخلص من المرأة أبدًا؟

يتبادلان نظرات الريبة، ككلبين مُتعادِيَين. تقول: قابلتُ دراجو صدفة في ميدان فيكتوريا، حيث قضى الليلة، في صحبة بعض الرفاق الجدد. حيث كانوا يقدمون له ثمار البَرْسَّا.

يقول مخاطبًا دراجو: أظن أنك قلْتَ إنك ستقيم مع صديق.

– لم تؤثر. أنا بخير.

أنا بخير. من الواضح أن الولد ليس بخير. يبدو أنه غارق في الغم، ولم تساعده الفترة التي قضاها في الشرب.

– هل كلَّمْتَ أمك؟

يومئ الولد برأسه.

– ثم؟

– اتصلتُ بها. أخبرْتُها بأني لن أعود.

– لا أسأل عنك، أسأل عنها. كيف حالها؟

– بخير.

– خذ دشًّا، دراجو. اذهب. نظفْ نفسك. نَمْ بعض الوقت. ثم اذهب إلى بيتك. كُن مُسالِمًا مع والدك. أنا متأكد من أنه سيكون نادمًا على ما فعل.

– لا يندم. لم يندم أبدًا.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: هل أَتدخَّل بكلمة. على الأرجح، لن يندم والد دراجو طالما اعتقد أنه على حق. هكذا أظن على الأقل. وماريانا بالتأكيد، وبصرف النظر عما قالتْه لابنها في التليفون، ليست بخير. إذا لجأت إلى الإقامة مع أخت زوجها؛ فذلك لأنها لم تجد مكانًا آخر تذهب إليه. أخت زوجها ليست مُتعاطِفة معها.

– ليداي هذه؟ ليداي أخت يوكتش؟

– ليداي كَرادزيتش. أخت ميروسلاف. عمة دراجو. ليداي وماريانا لا تَتفِقان، لم تَتَّفِقا أبدًا. ترى ليداي أن ماريانا تستحق ما يحدث لها. تقول ليداي: «لا دخان بدون نار.» مَثَل كرواتي.

– كيف بحق الرب تعرفين هذه الأشياء؟ كيف تعرفين ما تقوله ليداي؟

تتجاهل كُسْتِلُّو المرأة السؤال: لا تهتم ليداي إن كانت ماريانا أقامت حقًّا علاقة خارج الزواج. ما يهمها أن تلك الحكايات يتم تداولها في الدائرة الضيقة للجالية الكرواتية. انْتَبِه بول، لا تَلوِ شفتيك ازدراء. الشائعة، الرأي العام، الفاما كما قال الرومان، تجعل العالم يلف الشائعة، لا الحقيقة. تقول إنك حقًّا لا تقيم علاقة مع أم دراجو لأنكما أنت وهي (اعذرني دراجو) لم تمارسا الجنس معًا. من يهتم بممارسة الجنس هذه الأيام؟ وكيف نَزِن نزوة سريعة في ركن مُعتم أمام شهور من لوعة الاشتياق؟ إذا تَعلَّق الأمر بالحب، كيف يتأكد مُراقِب خارجي من حقيقة ما جرى؟ ما يمكن أن نتأكد منه إلى حدٍّ بعيد هو أن الهمسات عن علاقة بين ماريانا يوكتش وأحد زبائنها انتشرت في الهواء، مَنْ يعرف ممن. والهواء مشاع، الهواء هو ما نتنفسه ونعيش به؛ كلما ازداد إنكار الشائعة ازداد شيوعها في الهواء.

– مستر ريمنت، أنت لا تحبني، تريد التخلص مني، تعبِّرُ عن ذلك صراحة. وأنا نفسي لستُ مبتهجة — أؤكد لك — بالعودة إلى هذه الشقة البشعة. بمجرد أن تستقر على فعل مع أم دراجو، أو مع الليدي التي تعيش في العتمة، التي دعيت إليك أمس، أو حتى مع مسز مكُّورد، التي لم تذكر اسمها على مسامعي أبدًا، وعلى الأرجح مع أم دراجو؛ لأنها على ما يبدو نور حياتك، بمجرد أن تستقر على فِعل وتُنفِّذه، نفترق أنا وأنت لراحتك وراحتي، لا يمكن أن أقدم نصيحة بشأن ما يتوقف عليه الفعل، يجب أن تصدر عنك. لو عرفْتُ ما جاء بعد ذلك لما كانت بي حاجة لأكون هنا، يمكن أن أعود إلى حياتي الخاصة، وهي أكثر راحة بكثير، أؤكد لك، وأكثر إشباعًا من التي أحياها هنا. وأنا في خدمتك حتى تستقر على اختيار. أنت، كما يقال، مسئول عن نفسك.

يهز رأسه: لا أفهم قصدك؛ تقولين كلامًا بلا معنى تمامًا.

– بالطبع أنت تفهم. وعلى أية حال، لا يحتاج المرء إلى الفهم قبل أن يبدأ الفعل، لا يحتاج إلى ذلك إلا إذا كان فيلسوفًا غارقًا في الفلسفة. أذكِّرك، ثمة شيء كأنه يعمل بالدفع، وكان من المُؤكَّد أن أُلِحَّ به عليك إن سُمِح لي. تقول إنك تحب مسز يوكتش أو على الأقل هذا ما تقوله حين لا يكون دراجو بالقرب منك. حسنًا، افعل شيئًا من أجل حبك. وبالمناسَبة، بعض الصراحة أمام دراجو لن تضر، أليس كذلك، دراجو؟

يبتسم دراجو ابتسامة ملتوية.

– جزء من تعليم ولد ناشئ؛ أفضل من إرساله بعيدًا إلى تلك المدرسة الأبهة في كَنْبِرَّا. أعطِه لمحة عن شواطئ الحب الجامح. دعْه يَرَ كيف يبحر المرء بالعواطف، كيف يسترشد المرء بالنجوم، الدب الكبير والصغير، القوس، وهلم جرًّا. كوكبة الصليب الجنوبي. يجب الآن أن تكون له مَشاعره الخاصة، إنه كبير بما يكفي لأن تكون له مشاعره. لك عواطف، أليس كذلك، دراجو؟

يَصمُت دراجو، والابتسامة لا تفارق شفتيه. يجري شيء بين المرأة والولد. لكن ماذا؟

– أسألكَ، دراجو: ماذا تفعل لو كنتَ مكان مستر ريمنت، إن كنت مستر ريمنت؟

– ماذا يمكن أن أفعل؟

– نعم. تخيَّلْ: عمرك ستون عامًا وذات يوم ينقلب حالك فجأة رأسًا على عقب في حب امرأة لا تصغرك فقط بربع قرن لكنها متزوجة أيضًا، زيجة سعيدة، إلى حدٍّ ما. ماذا تفعل؟

يهز دراجو رأسه ببطء: السؤال ليس مناسبًا. وأنا في السادسة عشر، كيف أعرف ما يجب أن أفعله وأنا في الستين؟ الأمر مختلف إن كنْتِ في الستين يمكن أن تتذكري. لكن ...

مستر ريمنت هو مَنْ نتحدَّث عنه، حقًّا؟ كيف يمكن أن أكون مستر ريمنت إن لم أتوغل في أعماقه؟

يصمتون، في انتظار المزيد. لكن يبدو أن ذلك بعيد بقدر ما سيغامر الولد، الذي برغم آثار السُّكْر إلا أن نظراته ما زالت نظرات ملاك رباني، بالخوض في القضايا الافتراضية.

تقول مسز كُسْتِلُّو: نطرح السؤال بشكل آخر. يرى البعض أن الحب يعيد الشباب مرة أخرى، يُسرع من دقات القلب، يُجري العصارة. يجعل صوتنا مغرِّدًا ويضفي الحيوية على مَشيَتنا. لنتفقْ جدلًا أن الأمر كذلك، وننظر على ضوء ذلك إلى حالة مستر ريمنت. يتعرض مستر ريمنت لحادثة يفقد فيها ساقه. يستخدم ممرضة لرعايته، يقع في حبها على الفور. يعلن أن ازدهار شبابه من جديد بالحب الخارق قد يكون قريب المنال؛ ويحلم حتى بأن يكون له ولد (نعم، هذا حقيقي، يكون شبه أخ له). لكن هل يثق في هذه التصريحات؟ ألا يمكن أن تكون خيالات مخرِّفٍ؟ ويكون السؤال الذي يجب التفكر فيه، واضِعِين في الاعتبار الوضع الذي وصفتُه، هو: ماذا يفعل مستر ريمنت، أو أي شخص في موقف مستر ريمنت، بعد ذلك؟ هل يَتبع بدون تَبصُّر اندفاعات رغبتِه، ورغبتُه تكافح لتتحققَ، أم يستنتج، مقدِّرًا كل الأمور، أن الانغماس بقلبه وروحه في علاقة حب مع امرأة متزوجة طيشٌ، ويزحف مرة أخرى داخل قوقعته؟

– لا أعرف ماذا يفعل. ماذا تعتقدين أنت؟

– أنا أيضًا لا أعرف ماذا يفعل، دراجو. لكن لنطرح السؤال بصورة منهجية. نضع فرضية. نفترض أولًا أن مستر ريمنت لا يحرك ساكنًا، ويقرر، لسبب ما، كبح عاطفته. ما النتائج المترتبة على ذلك؟

– إذَا لم يفعل أي شيء؟

– نعم، إن جلس هنا في شقته ولم يفعل شيئًا.

– يبقى كل شيء على حاله. الضجر. يواصل حياته كما كانت من قبل.

– إلا ...!

– إلا ماذا؟

– إلا أن الأسى سيزحف إليه بسرعة كبيرة. ستسير أيامه على وتيرة وحيدة بلا طعم. يستيقظ في الليل فجأة، يكز على أسنانه ويغمغم لنفسه لو فقط، لو فقط! تأكله الذكرى، ذكرى جبنه، كالحمض. يقول بأسى: آه، ماريانا. لو لم أترك ماريانا تبعد عني! يصبح رجلًا من الحزن، ظلًّا لنفسه. حتى يموت.

– نعم، سيأسى.

– إذن ماذا يفعل حتى لا يموت أسى؟

فاض به الكيل. يتدخل قبل أن يهم دراجو بالإجابة: إليزابيث، كُفِّي عن استدراج الولد في ألعابك. وكُفِّي عن الكلام عني كأني لستُ في الغرفة. الطريقة التي أسيِّر بها حياتي أمر يخصني، لا يجوز للغرباء الخوض فيها.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو، رافعة حاجبها: غرباء؟

– نعم غرباء. أنتِ خاصة. امرأة غريبة عني، أتمنى لو أن عيني لم تقع عليها أبدًا.

– أيضًا، بول، أيضًا. لا يعلم إلا الرب وحده كيف اجتمعنا أنا وأنت، حيث من المؤكد أن أحدًا منا لم يقصد الآخر. لَكنَّا هنا. تريد أن تكون مع ماريانا لكنك مُنهَمِك معي بدلًا من ذلك. أفضِّلُ موضوعًا أكثر أهمية من الانهماك معك، الرجل ذو الساق الواحدة الذي لا يستقر على قرار. فوضى حقيقية، أَلَا تتفق معي، دراجو؟

– أظن أن عليكما أن تَفتَرِقا. إذا لم يكن أي منكما يحب الآخر. افترقا.

– وبول وأمك؟ هل عليهما أن يفترقا أيضًا؟

– لا أعرف ما يخص مستر ريمنت. كيف أن أحدًا لم يسأل أمي عَمَّا تريده هي؟ ربما تود لو أنها لم تعمل أبدًا عند مستر ريمنت. ربما تريد لو أن كل شيء بقي على حاله، حين كنا ... أُسْرة.

– أنتَ إذن عدو العاطفة، العاطفة خارج الزواج.

– لا لم أقل ذلك. لا أحب أن تقولي عدو العاطفة. لكن ...

– لكن أمك امرأة بَهِيَّة الطلعة. حين تخرج تتبعها النظرات، وتميل إليها المشاعر، تتبرعم رغبة في قلب الغريب، وقبل أن تبدي استغرابك تكون العواطف غير المتوقعة قد تفجرت ويكون عليك مواجهتها. تأمَّل الوضع من وجهة نظر أمك. من السهل مقاومة هؤلاء الغرباء المُفعَمِين بالعاطفة بمجرد أن يعلنوا عن أنفسهم، لكن ليس من السهل تجاهلهم. تحتاج ثلجًا في عروقك لتتجاهلهم. كيف تحب أن تتصرف أمك أمام الرجال الغرباء ورغباتهم؟ تغلق على نفسها في البيت؟ تلبس الحجاب؟

يضحك دراجو ضحكة رنانة غريبة تنم عن البهجة: لا، لكن ربما لا تشعر بالرغبة في إقامة علاقة (يصدر صوتًا غريبًا وهو ينطق العبارة، وكأنها تنتمي للغة بذيئة وربما لغة بربرية غريبة) مع كل رجل يلقي عليها — تعرفين — نظرة؛ لهذا أقول لماذا لا يسألها أحد؟

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: أسألها فورًا إن استطعتُ. لكنها غير متاحة. ليست على المسرح، كما يقال. لا يمكن إلا أن نخمن. لكن الاستسلام وإقامة علاقة مع رجل في الستين تعاقدت معه على أن تراه ست مرات أسبوعيًّا، سواء سقط المطر أو الثلج أو الجليد، أتوقع أنها مسألة لا تخطر على بالها. ماذا تقول، بول؟

– لا تخطر على بالها حقًّا. أبعد ما تكون عن تفكيرها.

– وهكذا نحن. نبدو تعساء جميعًا. أنت تعيس، دراجو؛ لأن المشاجرات في البيت دفعتك إلى أن تعسكر في خيمة في ميدان فيكتوريا بين السكارى. أمك تعيسة لأن عليها أن تعيش بين أقارب يرفضونها. أبوك تعيس؛ لأنه يعتقد أن الناس يستهزئون به. بول تعيس هنا لأن التعاسة طبيعته الثانية وخصوصًا لأنه لا يعرف كيف يتعامل مع رغبات قلبه. وأنا تعيسة لأنه ليس هناك ما يبعث على السعادة. أربعة أشخاص في أربعة أركان، غارقون في الكآبة، يشبهون المُتسكِّعِين في أعمال بيكيت، وأنا في الوسط، أضيع الوقت، ويضيعني الوقت.

يخيم الصمت عليهم جميعًا. يضيعني الوقت: ذريعة من النوع الذي تتفوه به المرأة. لماذا لا يبالي؟

يقول: مسز كُسْتِلُّو، من فضلك افتحي أذنيك لما أقول. ما يدور بيني وبين أسرة دراجو ليس من اختصاصك؛ لا تنتمين إلى هنا، هذا ليس مكانك، وليس مجالك. أتعاطف مع ماريانا. أتعاطف مع دراجو ومع أختيه أيضًا وبطريقة مختلفة، وأتعاطف حتى مع والد دراجو، ولا أستطيع التعاطف معك. لا أحد منا يستطيع التعاطف معك. أنت غريبة بيننا. انضمامك لنا، مَهما تَكُن النوايا طيبة، لا يساعدنا، يربكنا. هل تفهمين ذلك؟ ألم أستحثك لتركنا وحدنا نحقق خلاصنا بطريقتنا؟

يُخيِّم صمت طويل في جوٍّ متوتر. يقول دراجو: حان أن أنصرف.

يقول: لا. لن تعود إلى المنتزه، إذا كنتَ تنوي ذلك، لا أوافق. أمر خطير؛ سيصاب والدك بالهلع إذا عرف. خذ مفتاحًا. في الثلاجة طعام، وفي غرفة مكتبي سرير. يمكن أن تأتي وتذهب كيفما تشاء. في حدود.

يبدو أن دراجو كان على وشك أن ينطق بشيء، ثم يغير رأيه. يقول: شكرًا.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: وأنا. هل أعيش في العراء وأُعاني من الحر والشمس وغضب الشتاء القاسي بينما يقيم دراجو الشاب مثل أمير؟

– أنتِ امرأة ناضجة. تستطيعين الاهتمام بشئونك.

١٩

تقف سيارة أمام شقته عبر الشارع، كُمودور واجن ستيشن حمراء حائلة اللون. تقف من الظهر، الشخص الذي وراء عجلة القيادة ليس واضحًا، لكنه لا يمكن إلا أن يكون ميروسلاف يوكتش. لكن لا يمكن الجزم بما يفعله ميروسلاف. هل يتجسس على زوجته؟ هل يحاول تهديد الرفيقين المُذنِبَين؟

يستغرق عشر دقائق كاملة لاجتياز السلم والمدخل على عُكَّازَيه، ومثلها تقريبًا لعبور الشارع. حين يقترب من السيارة، يطل الرجل الذي بداخلها من الشباك، وينفث سحابة من دخان السجائر الرخيصة.

يقول: مستر يوكتش؟

يوكتش ليس مخلوقًا ضخمًا ثقيل الحركة كما تخيله. إنه، بالعكس، طويل ونحيف، وجهه أسمر وأنفه معقوف.

– أنا بول ريمنت. يمكن أن نتحدث؟ يمكن أن أشتري لك بيرة؟ توجد خمارة قرب الزاوية.

ينزل يوكتش من السيارة. ينتعل بوت الشغل، ويرتدي بنطلونًا من الجينز الأزرق، وتي شيرت أسود، وسترة زرقاء من الجلد. فخذاه نحيلان حتى إنه يبدو وكأنه بلا مؤخرة. جسد يشبه السوط، يفكر. بلا إرادة، يرى ذلك الجسد يعتلي ماريانا، يغطيها، ضاغطًا نفسه فيها.

يشق طريقه، واثبًا بأسرع ما يستطيع.

الخمارة شبه خالية، ينزلق إلى مائدة ويتبعه يوكتش مُغلِقًا شفتيه. يلقي نظرة على يد يوكتش. أصابعه طويلة عليها خصلات من الشعر الأسود، وأظافره مقصوصة. صدره أيضًا مليء بالشعر. هل تحب ماريانا كل هذا الشعر، هذا الجلد الشبيه بجلد الدب؟

ليست لديه خبرات سابقة في مواجهات مع أزواج يشعرون بالظلم. هل من المفترض أن يشعر بالشفقة تجاه الرجل؟ لا يشعر بشيء.

– هل أدخل في صميم الموضوع؟ تريد أن تعرف لماذا أعرض مساعدة ابنك في التعليم. لستُ رجلًا غنيًّا، مستر يوكتش، لكني ميسور الحال وليس لديَّ أبناء. عرضتُ قرضًا على ابنك؛ لأني أود أن أراه في وضع جيد. أنا مُعجَب بدراجو؛ إنه واعد، والمدرسة التي اختارها، لم أسمع عنها من قبل، لكنه يخبرني بأن سُمْعَتها طيبة وأنا أقبل ذلك.

– آسف لأن عرضي أحدث اضطرابًا في بيتك، أُدرِك الآن أنه كان عليَّ أن أتحدث إليك مثلما تحدثْتُ إلى زوجتك.

– وبشأن زوجتك، أقول ببساطة كانت علاقاتي بها سليمة دائمًا. يتردد. عينا الرجل مصوبة إليه مثل فوهات البنادق. يحوِّل نظرته في الحال. لا أنشغل بالنساء، مستر يوكتش، لم أَعُد أنشغل بهن. تركتُ هذا الجزء من حياتي وراء ظهري. لو كنتُ أمارس الحب الآن فأنا أمارسه بطريقة مختلفة، ستفهمني حين تعرفني بصورة أفضل.

هل يكذب؟ ربما، لكن لا يبدو أنه يكذب. باستثناء سمانتيها، اللتين تعلقان بذاكرته، باستثناء ثدييها اللذين يمكن أن يقدم أي شيء ليدس وجهه بينهما، فهو يحب ماريانا في هذه اللحظة بقلب نقي وخيِّر، مثلما يحبها الرب، ومما ينافي الطبيعة أن يكرهه هذا الرجل، أو أي رجل آخر.

يقول يوكتش: أنا وزوجتي متزوجان منذ ٨٢. صوت عميق، على الأقل صوت دب. ثمانية عشر عامًا. حين قابلتُها كانت طالبة في أكاديمية الفنون الرفيعة في دبروفنيك. في البداية كنتُ في الجيش الفيدرالي، ثم حصلْتُ على وظيفة في الأكاديمية، لحَّام، لحَّام وحرفي، لحام غالبًا. نلتقي هناك. ثم نذهب إلى ألمانيا. نشقى في العمل، نوفر فلوسنا، نعيش حياة تقشف — تعرف قصدي؟ — نقدم طلب هجرة إلى أستراليا. أختي أيضًا. نحن الأربعة معًا. كان دراجو طفلًا آنذاك. في البداية نعيش في ملبورن، أعمل في ورشة لحام، ثم أذهب إلى كوبر بيدي مع بعض الرفاق، لنجرب حظنا مع الأحجار الكريمة. هل تعرف كوبر بيدي؟

– أعرف كوبر بيدي.

– مكان شديد الحرارة. ثم تأتي ماريانا. نقيم ثلاث سنوات في كوبر بيدي. حياة صعبة جدًّا على امرأة. تعتمد الأحجار الكريمة على الحظ. أنا لم أكن محظوظًا، تعرف قصدي؟ لكن رفاقي يساعدونني، كل منا يساعد الآخر.

– نعم.

– حياة صعبة جدًّا على امرأة معها أطفال. ثم أحصل على وظيفة في هُلْدِن ونأتي إلى إليزابيث. وظيفة جيدة وبيت رائع. يضع كأسه الفارغة. صمتٌ. تنتهي الحكاية. يبدو وكأنه يقول تلك قصتي، وكأنه يكشف أوراقه على الطاولة. اسحبْ، أيها السيد القاطن في ممر كُنِستون!

– هل تَصادَف أن عرفتَ امرأة اسمها إليزابيث كُسْتِلُّو، امرأة عجوز، كاتبة محترفة؟

يهز يوكتش رأسه.

– لأنه يبدو أنها تعرفك. حكتْ لي أجزاء من القصة التي أخبرتني بها الآن، كيف التقيْتَ أنت وماريانا؟ ماذا كنتما تعملان في دبروفنيك؟ وهلم جرًّا. لم تذكر شيئًا عن ملبورن أو كوبر بيدي. على أية حال، تعمل إليزابيث كُسْتِلُّو في كتاب جديد، ويبدو أنها تُوظِّفُني كشخصية، إذا جاز التعبير. قادها الاهتمام بي إلى الاهتمام بماريانا وبك. واضح أنها تُحَوِّم حول ماضيكما.

ينتظره يوكتش ليكمل الفقرة، لكنه لم يستطع، تبدو منافية للعقل تمامًا. ما يتردد في قوله هو: هذا الوضع المُعَقَّد الذي نقع في شباكه أنا وأنت من فعل إليزابيث كُسْتِلُّو. إذا كان من شخص تلومه فلُمْها. إنها وراء كل ذلك. إليزابيث كُسْتِلُّو مصدر الأذى.

يواصل بدلًا من ذلك: إذا كنتَ لا تشك في كلامي، فعليك أن تصالح ماريانا. أيضًا، اقبل القرض لمصلحة دراجو. دراجو وضع قلبه في ولنجتون كولج، يستطيع أي شخص أن يدرك ذلك، يمكن أن تجعل القرض رسميًّا أو غير رسمي كما تحب. يمكن أن تكتب ورقًا ويمكن أن تستغني عن الورق، لا فرق بالنسبة لي.

عليه عند هذه النقطة أن يقدم زجاجة بيرة أخرى إلى يوكتش، عليه أن ييسر على يوكتش بقدر المستطاع ابتلاع غروره، ويصبح، ولو على مضض، صديقًا حميمًا، لكنه لا يفعل، تكلم بما فيه الكفاية؛ جاء دور يوكتش، دور يوكتش لدفع حساب المشروبات، دور يوكتش ليفضي بما عنده، ويأمل أن ينتهي هذا اللقاء بعد ذلك، هذا المشهد، الذي استسلم له على مضض. ومع أن هذا الرجل له من ماريانا طفلان ملائكيان، وربما ثلاثة، إلا أنه لا يجد في نفسه فضولًا تجاهه. اهتمامه بماريانا: ماريانا وبصرف النظر عما لدى ماريانا وجد اهتمامه بها طريقه إلى أطفالها. هل اهتمامه بماريانا اهتمام أناني أم نزيه. هل الرب الذي يقارن حبه لماريانا بحبه لها رب أناني أم نزيه؟ لا يعرف. السؤال مجرد بطريقة لا تستوعبها حالته المزاجية حاليًّا.

يقتحم يوكتش أفكاره. لديك شقة رائعة.

سؤال؟ تقرير؟ إنه سؤال لأن يوكتش لم يدخل شقته أبدًا. يومئ برأسه.

– مريحة. تقول إنك مستريح. هل أنت مستريح في شقتك.

– ما قلته هو «ميسور الحال.» وهو تعبير يستخدمه من يربكهم الحديث عن الفلوس، وفي حالتي يعني أن دخلي مريح. يعني أن لديَّ ما يكفي احتياجاتي ويفيض. يمكن أن أقدم إحسانًا إن أحببْتُ، أو أقوم بعمل طيب من قبيل إرسال ابنك إلى المدرسة.

– يذهب ابني إلى مدرسة خيالية، له أصدقاء خياليون، يريد كل ما هو خيالي، هل تعرف ماذا أقصد؟

– نعم. مدرسة خيالية قد تعلِّمه أن يحتقر أصوله. لا أستطيع إنكار ذلك. لا تُسئ فهمي، مستر يوكتش، أنا لا أشجع على المدارس الخيالية، لم آتِ باسم ولنجتون. لكن سأساند دراجو إن كان يود أن يلتحق بها، وأظن أن ولنجتون ليست خيالية كما يدَّعى. المدرسة الخيالية حقًّا لا تحتاج إلى الدعاية.

يستغرق يوكتش في التفكير. يقول: ربما، ربما نستطيع عمل وثيقة ائتمان من أجل دراجو. ومِن ثَمَّ، كما تعرف، لا تكون المسألة شخصية.

وثيقة ائتمان؟ ليست فكرة سيئة، مع أنها حل مكلِّف لمشكلة بسيطة. لكن كيف يَعرِف هذا المهاجِر القادم من دولة اشتراكية الوثائق الائتمانية؟

يقول: يمكن أن نفكر في ذلك. إذا أردْتَ أن تكون قانونيًّا تمامًا، قانونيًّا بطريقة لا تمرر المياه، يمكن أن نتحدث مع محامٍ.

يقول يوكتش: أو مع البنك. يمكن أن نعمل حسابًا باسم دراجو، حساب ائتمان، يمكن أن نضع الفلوس في حساب ائتمان، ليكون الأمر مضمونًا. في حالة ... كما تعرف.

في حالة ماذا؟ في حالة أن يغير هو، بول ريمنت، فكرته، ويترك دراجو في وضع حرج؟ في حالة موته؟ في حالة انتهاء حبه لزوجة ميروسلاف يوكتش؟

يقول، بِتوجُّس متزايد: نعم، يمكن أن نفعل ذلك. هل حكاية وثيقة الائتمان وكل ذلك مطلوب لتسكين غرور يوكتش؟

– وماريانا.

– نعم، ماريانا. ماذا تريد أن تقول عن ماريانا؟

– ماريانا مُرهَقة طوال الوقت، من التمريض. تقوم بوظيفتين، مهمتين، أنت وهذه السيدة العجوز الأخرى، مسز إيلُّو. ليس تمريضًا حقيقيًّا، مهنة أقرب ما يكون لشغل البيوت. إذا جمعْتَهما، خمسين ساعة أسبوعيًّا، ستين ساعة، والقيادة، قيادة كل يوم.

شخصية مثقفة. شغل البيوت هذا لا يناسب شخصية مثقفة. كل مرة تأتي إلى البيت مرهقة. لذا نفكر في أن تتخلى عن التمريض، وتبحث عن عمل آخر.

– آسف. لم أكن أعرف أن ماريانا تقوم بوظيفتين. لم تذكر لي الوظيفة الثانية.

يحدق فيه يوكتش بحدة. هل يفشل في استيعاب شيء؟

يقول: سأفتقدها إذا ارتحلت. إنها امرأة ذات كفاءة عالية.

يقول يوكتش: نعم. بالنسبة لي، أنا مجرد ميكانيكي، كما تعرف. الميكانيكي ليس شيئًا، لا في كرواتيا، ولا في أستراليا. لكن ماريانا شخصية مثقفة. دبلوم في الترميم، هل أخبرتك بذلك؟ لا توجد أعمال ترميم في أستراليا حتى الآن. في منو بارا، مع مَنْ يمكن أن تتكلم؟ حسن، دراجو مهتم بأشياء كثيرة، يمكن أن تتحدث معه. ثم تقابل مستر ريمنت.

يرد بحذر: كانت محادثاتي مع ماريانا محدودة. مثلما هو حال كل جوانب علاقتي بها. محدودة جدًّا. لم أعرف عن خلفيتها الفنية إلا منذ وقت قريب، من مسز كُسْتِلُّو، المرأة التي ذكرْتُها لك.

ببطء بدأ يتكشف له سبب استعداد يوكتش، وقد ضربها وطردها من البيت، للحصول على يوم إجازة من العمل، وقضائه جالسًا في سيارة في ممر كُنِستون. لا بد أن يوكتش يؤمن أن زوجته، سواء فهمت تمامًا أم لم تفهم، تحت تأثير إغواء بالبعد عن المأوى والبيت بواسطة زبون معه فلوس كثيرة وعلى دراية بالفن والفنانين؛ عَلَّمَتْها أيضًا البيئة الراقية في ممر كنستون أن تنظر باحتقار إلى الطبقة العاملة، يستغيث يوكتش، يستغيث بطبيعته الطيبة. وإن فشلتْ تلك الاستغاثة، ماذا؟ هل يخطط يوكتش لضربه هو الآخر؟

يود لو يعترض، تطلَّعْ إليَّ، إلى منافسِكَ البغيض! ما زلْتَ بالساقين اللتين وهبَهما الرب لكَ، بينما أنا أجرُّ هذا الشيء البشع والقذر معي حيثما ذهبتُ! نصف الوقت أتبول، أتبول على الأرضية! لا أستطيع إغراء زوجتك إذا حاولْتُ، لا أستطيع بكل معنى الكلمة!

في اللحظة نفسها يتذكر مرة أخرى صورة ماريانا وهي تتمطى لتنظف الرفوف العليا، ماريانا بساقيها القويتين الجميلتين. لو كان حبه لماريانا نقيًّا حقًّا، فلماذا لم تحتل مكانًا في قلبه إلا بعد أن رأى ساقيها؟ لماذا يحتاج الحب، حتى هذا الحب الذي يدَّعي أنه يمارسه، إلى الجمال ليبعثه إلى الحياة؟ ما علاقة الساقين الجميلتين، بصورة مجردة، بالحب؟ وما علاقة تلك المسألة بالرغبة؟ أم إن هذه هي طبيعة الطبيعة، التي على المرء ألا يطرح أسئلة عنها؟ كيف يكون الحب بين الحيوانات؟ بين الثعالب؟ بين العناكب؟ هل توجد أشياء من قبيل السيقان الجميلة بين سيدات العناكب؟ وهل قوة جاذبيتها تربك ذَكَر

العناكب وهي تجتذبه؟ لا يدري إن كان يوكتش له رأي في الموضوع. لكنه بالتأكيد لن يسأله. سمع من يوكتش ما يكفي اليوم، ومن المتوقع أن يوكتش سمع منه ما يكفي.

يسأل، بصورة شكلية: تأخذ زجاجة بيرة أخرى؟

– لا، يجب أن أذهب.

يجب أن يذهب يوكتش. يجب أن يذهب هو. أين يجب أن يذهبا، هما الاثنان؟ واحد، إلى سرير خالٍ في منو بارا؛ الآخر إلى سرير خالٍ في ممر كُنِستون، حيث يستلقي مستيقظًا طوال الليل، إذا أحب، يسمع دقات الساعة في غرفة المعيشة. يمكن بالمثل أن يقيما معًا في بيت واحد. مُت وجِف.

٢٠

يستغرق حوالي ساعة، متجولًا في المنتزه، ليعثر على إليزابيث كُسْتِلُّو. يجدها أخيرًا على شاطئ النهر، تجلس على أريكة، وحولها مجموعة من البط يبدو أنها تطعمه. يتفرق البط مذعورًا حين يقترب، وينزلق في جلبة عائدًا إلى المياه.

يقف أمامها على العشب مستنِدًا على عكازيه. تجاوزت السادسة، لكنه ما زال يشعر بوطأة شمس الصيف. يقول: أبحث عن دراجو. هل تعرفين أين يمكن أن أعثر عليه؟

– دراجو؟ لا أعرف. اعتقدْتُ أنه يقيم معك. ألن تسأل عني؟ ألا يدفعك الفضول لتسمع كيف قضيْتُ الليلة بعد أن طردْتَني بقسوة؟

يتجاهل السؤال: كان لي لقاء مع زوج ماريانا منذ لحظات.

– ميروسلاف. نعم، يا له من مسكين، يشعر بإهانة بالغة. في البداية نتيجة الغيرة، والآن بعد أن اكتشف مُنافِسه. ماذا قلْتَ له؟

– طلبْتُ منه أن يفكر من جديد. طلبتُ منه أن يعطي الأولوية لاهتمامات دراجو. كررْتُ أن عرضي لا يرتبط بنوايا.

– تقصد أنه لا توجد نوايا مرئية.

– لا توجد نوايا على الإطلاق.

– ماذا عن نوايا القلب، بول، نوايا العاطفة؟

– نوايا العاطفة لا علاقة لها بالموضوع. الفلوس لتعليم دراجو. من العبث الإيماء إلى أنني أريد أن أشتري أمه.

– من العبث؟ علينا أن نسأل ماريانا عن ذلك. ربما لها رأي آخر. قد تقول الشيء بالشيء. كل شيء مقابله شيء. عرضْتَ شيئًا. المسئولية عليها الآن لتأتي بالشيء الصحيح، الشيء المناسب.

– لا تكوني بذيئة.

– حسن، أعترف بأن عليَّ حتى الآن أن أقدِّر ما تراه في سيدتك البلقانية، أراها بعيني قصيرة وبدينة إلى حد ما وحالتها أسوأ نتيجة الإرهاق، لا أظن أنك تحب هذا النوع من النساء، رجل طويل وامرأة بدينة. جزء من فريق كوميدي. رفيق مثلك يمكن أن يفعل الأفضل، لكن كل واحد وذوقه،[1] على ما أظن.

– رأيي الشخصي، المكافأة الجديرة، إن كان من مكافأة تقدمها، مكافأة للحب، فهي الانسحاب من طريق مسز يوكتش. ليستْ لك. تبقى مارينَّا الاختيار الأفضل (مارينَّا بتضعيف النون). سيكون الترتيب مع مارينَّا، أو من تشبهها، مناسبًا للغاية، سيكون من المناسب تمامًا، لجنتلمان أعزب في مثل عمرك، غير متحمس بسبب إعاقته للظهور على الملأ، أن يستضيف في بيته مرة أسبوعيًّا، بعد الظهيرة، صديقة غير مرتبطة مثل مارينَّا، قد توافق من حين لآخر أن تقبل هدية صغيرة لطيفة مقابل العلاقة الجنسية.

– نعم، بول، الهدايا، الهبات. يجب أن تهيئ نفسك للدفع. لم يعد هناك حب بلا ثمن.

– قد لا أحب مَن أختار؟

– بالطبع قد تحب من تختار. لكن ربما يكون عليك من الآن فصاعدًا أن تحتفظ بحبك لنفسك، كما يحتفظ المرء برأس بارد لنفسه، أو إصابة بطفح جلدي بعيدًا عن أعين جيرانه.

– ومع ذلك، إذا كنتَ ترى أن مارينَّا غير مناسبة، فمَن أنا لأعترض؟ في هذه الحالة؟ لماذا لا تتصل تليفونيًّا بمسز بوتس؟ أخبِرْها أنك تبحث في السوق عن ممرضة جديدة، أخبِرْها بأنك تريد واحدة لا صغيرة جدًّا ولا كبيرة جدًّا، لها ثديان رائعان، وسمانة جميلة، غير مرتبطة، الأطفال ليسوا عقبة، والأفضل ألا تكون مدخنة. ماذا أيضًا؟ متلهفة، متلهفة وسهلة الإرضاء.

– أو لماذا تشغل نفسك بمسز بوتس؟ لماذا لا تستسلم لهراء الممرضات المستأَجَرات والوقوع في حبهن؟ انشر إعلانًا في الصحافة. «جنتل، في الستين، بدون أبناء، يعاني من صعوبة في الحركة، يبحث عن سيدة، ٣٥–٤٥، بهدف الحب، أبوة روحية. رائعة الثديين، إلخ. غير مصابة بقرح الزهري.»

[1] بالفرنسية في الأصل.

– لا تبحلق، بول. أمزحُ، لتستمر المحادثة. تأكَّدْ أني تعلمتُ الدرس. أعد بأني لن أحاول بعد الآن التوفيق بين شخصين. إذا قررْتَ أنه لا توجد مَن تحل مكان ماريانا في وجدانك، إما ماريانا وإما لا، أستسلمُ، أوافقُ. إلا أن عليَّ أن أخبرك بأن مارينَّا الأخرى، مارينَّا المسكينة، مستاءة بعمق من الطريقة التي عاملْتَها بها. تنتحب في منديلها. أقول لها، كوني طيبة القلب، في المحيط أسماك كثيرة. لكن ذلك لم يعزِّها. بعد أن سلَّمتْ نفسها لك جُرِح كبرياؤها. تقول، يجدني بدينة جدًّا! تنتحب. أقول، هراء، قلبه في مكان آخر، هذا كل ما في الأمر.

– لكن ربما أُسيءُ تفسير موقفك بالكامل. ربما لا تبحث عن مكافأة الحب. أو ربما البحث عن الحب قناع للبحث عن شيء مختلف تمامًا. رغم كل شيء، بول، كم من الحب يحتاج إليه شخص مثلك، إذا تحدثنا بموضوعية؟ أو شخص مثلي؟ لا شيء. لا شيء إطلاقًا. لا نحتاج إلى الحب، في هذه السن. نحتاج إلى العناية: شخص يأخذ بيدنا من حين لآخر حين نرتجف، يصنع لنا كوبًا من الشاي، يساعدنا في نزول السلالم. شخص يغلق عيوننا حين يحين الأجل. العناية لا الحب. العناية خدمة يمكن أن تقدمها أية ممرضة جديرة بالحياة، ما دمنا لا نطلب منها المزيد.

تتوقف لتلتقط أنفاسها؛ أخيرًا أمامه فرصة للحديث. يقول: جئتُ إلى هنا بحثًا عن دراجو، لا لأستمع إليك وأنت تستعرضين حكمتك. أفهم جيدًا الفرق بين الحب والعناية. لم أتوقع أبدًا أن تحبني ماريانا. أتمنى، كجنتلمان في الستين، أن أفعل ببساطة أفضل ما أستطيع لها ولأبنائها. وأمَّا مشاعري، مشاعري أمر يخصني. بالتأكيد لن أفرضها على ماريانا مرة أخرى.

– كلمة أخرى، إذا كنْتِ مصممة على أن تكوني شكَّاكة، فلا تقللي من شأن الرغبة في كل منا، الرغبة الإنسانية، لتمدي جناح الحماية.

– في كل منا؟

– نعم، في كل منا. حتى فيك. إنْ كنْتِ إنسانًا.

كفى كلامًا. تؤلمه ذراعاه، يشعر بسخونة، يود أن يجلس. لكنه لو استقر بجوار مسز كُسْتِلُّو، لظهرا بشكل يختلف تمامًا عن الحقيقة: زوجان عجوزان يلتقطان أنفاسهما. إلا أن هناك، مع ذلك، شيئًا آخر يجب أن يقال.

– لماذا تبذلين كل هذا الجهد معي، مسز كُسْتِلُّو؟ أنا سمكة صغيرة، حقًّا. ألم تسألي نفسك أبدًا ما إن كان موقفك مني خطأً؟ ما إن كنْتُ غير مخطئ من البداية إلى النهاية؟

يمر بهما رفيقان في مركب ببدَّال، صورة عظيمة فائقة الجمال، يبتسمان في سعادة.

– بالطبع طرحتُ على نفسي ذلك السؤال، بول. مرات عديدة. وبالطبع أنت، ببعض المعايير، سمكة صغيرة. السؤال هو، بأية معايير؟ السؤال هو صغير إلى أي حد؟ أقول لنفسي اصبري، ربما ينبثق منه شيء، كآخر نقطة عصير في ليمونة، أو مثل آخر نقطة دماء من حصاة. لكن نعم، قد تكون مصيبًا، وقد تكون مخطئًا، سأسلم بذلك. إذا لم تكن مخطئًا فربما لم أكن هنا في أدليد حتى الآن. أنا هنا لأني لا أعرف ماذا أفعل بشأنك.

– هل يجب أن أستسلم؟ هل أتخلى عنك وأبدأ من جديد في مكان آخر؟ أنا واثقة من أني سأجلب لك السعادة، لكني لا أستطيع. تعرض كبريائي لضربات كثيرة. لا، يجب أن أصمم حتى النهاية.

– حتى النهاية؟

– نعم، حتى النهاية المرَّة.

يتمنى أن يسمع المزيد. يتمنى أن يعرف النهاية. لكن فمها انغلق فجأة، تحدق بعيدًا عنه.

يلاحقها: على أية حال، في محاولة لفهم ما تقومين به في حياتي، أتوصل إلى عدة فرضيات متتالية. لن أذكرها كلها، مع أنه يمكن القول إنه ليس فيها ما يشبع غرورك. الأولى، وهي الأكثر قبولًا، أنك تريدين استخدامي نموذجًا في كتاب. في هذه الحالة، سأكرر ما كنْتُ أقوله منذ لحظة، ويبدو أن لديك مشكلة في قبوله. منذ يوم الحادث الذي تعرضتُ له، آنذاك كان من الممكن أن أموت لكن يبدو أني أفلتُّ، فسيطرت عليَّ فكرة تقديم الخير. أود، قبل فوات الأوان، أن أقوم بعمل سيكون — أعذريني على الكلمة — نعمة، مَهما تكن متواضعة، لحياة الآخرين. تسألين لماذا؟ بالأساس؛ لأني بلا أبناء من صلبي يمكن أن أنعم عليهم كما ينعم الأب. أقول لك، الغلطة الكبرى في حياتي أني لم أنجب. لهذا ينزف قلبي طوال الوقت. لهذا في قلبي جرح.[٢]

– ابتسمي إن أحببْتِ، مسز كُسْتِلُّو. لكن تذكَّري أني كنتُ ذات يوم ولدًا كاثوليكيًّا صغيرًا من الطراز الأول. قبل أن يقتلعنا الهولندي ويحضرنا إلى آخر الدنيا كنتُ أتلقى دروسًا على أيدي الأخوات الطيبات في لُرْدِز. وبمجرد وصولنا إلى بلَّرات دخلتُ في رعاية الأخوة المسيحيين. لماذا تريد أن تفعل ذلك يا ولد؟ لماذا تريد أن تقترف إثمًا؟ ألا ترى كيف

[٢] بالفرنسية في الأصل.

ينزف قلب ربنا حين يراك تقترف الإثم؟ لم تشحب صورة يسوع وقلبه الذي ينزف في ذاكرتي أبدًا، مع أني أعطيتُ ظهري للكنيسة منذ وقت طويل. لماذا أذكر ذلك؟ لأني أريد أن أكف عن إيذاء يسوع بأفعالي. لا أريد لقلبه أن ينزف. تحتاجين إلى فهم ذلك لو أردْتِ أن تؤرخي لي.

– ولد كاثوليكي صغير من الطراز الأول. يمكن أن أرى ذلك، بول. يمكن أن أراه بوضوح. لا تنسَ أني فتاة كاثوليكية أيرلندية حقيقية، كُسْتِلُّو من نورثكوت في ملبورن. لكن واصلْ، واصلْ، أرى حديثك ثريًّا، أراه فاتنًا.

– في حياتي الباكرة لم أتحدث عن نفسي مثلما أفعل اليوم، مسز كُسْتِلُّو. يمنعني الأدب، الأدب أو الخجل. لكني أذكِّرُ نفسي بأنك محترفة، محل ثقة، مثل الطبيب أو المحامي أو المحاسب.

– أو القس. لا تنسَ القساوسة، بول.

– أو القس. على أية حال، منذ الحادث الذي تعرضتُ له بدأتُ أتخلى عن بعض هذا التكتُّم. أقول لنفسي، إذا لم تتكلم الآن فمتى تتكلم؟ وبالتالي: هل يرضى يسوع عن ذلك؟ هذا هو السؤال الذي أضعه، هذه الأيام، نصب عيني باستمرار. هذا هو المعيار الذي أحاول تحقيقه. ليس بالدقة التي يجب، التي لا بد أن أَقْبلها. التسامح، مثلًا: لا أنوي أن أسامح الولد الذي صدمني بسيارته، مَهما يكن رأي يسوع. لكني أريد أن أمد يد الحماية إلى ماريانا وأبنائها، أريد أن أُسعِدهم وأجعلهم يزدهرون. عليك أن تضعي هذا في اعتبارك حين يتعلق الأمر بي، ولا أظن أنك ستضعينه.

لم يكن ما قاله عن الإعلان عما يتكتمه، عن الإفصاح عما في قلبه، صحيحًا، إذا شئنا الدقة. حتى ماريانا لم يفتح لها قلبه حقًّا. لماذا إذن يتعرى أمام كُسْتِلُّو المرأة، وهي بالتأكيد ليست صديقة؟ لا توجد إلا إجابة واحدة فقط: لأنها أنهكتْه. أدت دورها المهني بدقة. يتخذ المرء موقعه بجوار فريسته، وينتظر استسلام الفريسة في النهاية. يعرف ذلك كل قس. أو كل جشع. إنها معرفة جشعة.

تقول: اجلس، بول. لا أستطيع أن أواصل النظر إليك.

يرتمي بجانبها.

تُهَمْهم: قلبك الدامي. تومض الشمس الغاربة وهي تخترق المياه بحيث تضطر إلى أن تحجب عينيها عن الشمس. تجتمع عائلة البط، أكثر من عائلة البط، عشيرة البط، تجتمع لتشن هجومًا آخر على الأرض. من الواضح أنها قيَّمته، ذلك المقتحم، وتبينتْ أنه غير مؤذٍ.

– نعم، قلبي النازف.

– يمكن أن يكون القلب عضوًا مُبهَمًا، القلب وحركاته، مُعتِمًا، كما يصفه الإسبان، القلب المعتم، القلب المعتم.[٣] هل أنتَ متأكد من أن قلبك ليس سوى قلب صغير مُعْتِم، بول، بالرغم من نواياك الحسنة الكثيرة؟

فكَّرَ في تقديم اقتراح للسلام؛ فكَّر في أن يعرض على المرأة، إن لم يكن سقفًا يظلها في الليل، فعلى الأقل تذكرة عودة بالطائرة إلى ملبورن. لكن الانزعاج القديم يغمره الآن من جديد. يرد ببرود شديد: وهل أنتِ متأكدة من أنكِ لا ترين تعقيدات حيث لا تكون هناك تعقيدات، لتكتبي تلك القصص السخيفة؟

تدس مسز كُسْتِلُّو يدها في حقيبة من البلاستيك عند طرف ثوبها، وتفتت قطعة من الخبز، وتقذفها باتجاه البط. يجتمع البط في جلبة شديدة حول النعمة.

تقول: بول، نود جميعًا أن نكون بسطاء، هذا ما نتمناه جميعًا. خاصة حين نقترب من النهاية. لكننا، نحن البشر، كائنات مُعقَّدة، هذه طبيعتنا. تريد أن أكون أبسط. أنت نفسك تريد أن تكون أبسط، أن تتعرى أكثر. حسن، أحدِّقُ مندهشة، صدِّقْني، في جهودك لتعرية نفسك. لكن القلب البسيط الذي تريده، الطريقة البسيطة في رؤية العالم، مسألة مكلفة. انظرْ إليَّ. ماذا ترى؟

يصمتُ.

– أخبركَ بما ترى، أو بما تحدِّث نفسك بأنك تراه. عجوز تطعم البط على شاطئ نهر تورنس، عجوز تصادف أنها تقترب من النهاية بثياب داخلية نظيفة، عجوز تزعجك بتلميحاتها الماكرة كما تعتقد.

لكن الواقع أكثر تعقيدًا من ذلك، بول. ترى في الواقع أكثر من ذلك — تراه ثم تستبعده. ثمة ضوء بقوة معينة، مثلًا. الشخصية التي يقع عليها هذا الضوء تجلس بالقرب من مياه تنساب في هدوء. تطعنها رماح الضوء، تهدد باختراقها.

– تعقيد غير ضروري؟ لا أظن ذلك. تمدُّدٌ. كالتنفس. شهيق، زفير. تمدد، تقلصٌ. إنه إيقاع الحياة. بول، بداخلك استعداد لأن تكون شخصًا أكمل، أكبر وأرحب، لكنك لن تسمح بذلك. ألحُّ عليك: لا تقطعْ تيارات أفكارك. تتبعْها حتى نهايتها. أفكارك ومشاعرك. تتبعْها وستكبر معها. ماذا قال الشاعر الأمريكي؟ ثمة ذبذبات من شيء إلى شيء يغطيها الخيالي.

---

[٣] بالإسبانية في الأصل.

ذاكرتي تخفت. أصبح أكثر إبهامًا مع كل يوم يمر. يا له من أمر يثير الشفقة. هذا هو الدرس الذي أحاول أن أعلمك إياه. يجدها على شاطئ النهر، تجلس على أريكة، يحيط بها بط يبدو أنها تطعمه، قد يكون وصفًا بسيطًا، وقد تكون بساطته خادعة، لكنها ليست رائعة بما فيه الكفاية. لا تدفعني إلى الحياة، قد يكون دفعي إلى الحياة لا أهمية له عندك، لكن عيبه أنه لا يدفعك إلى الحياة أنت الآخر. أو البط، في هذه المسألة، إذا كنتَ تفضل ألا أكون في مركز الصورة. ادفع هذا البط التافه إلى الحياة وأعدُكَ بأنه سيدفعك إلى الحياة. ادفع ماريانا إلى الحياة، إذا كان لا بد أن تكون ماريانا، وستدفعك إلى الحياة. المسألة بهذه البساطة. لكن من فضلك، خدمةً لي، من فضلك كف عن التردد. لا أعرف إلى متى يمكن أن أدعم طريقة وجودي الحالية.

– إلى أية طريقةِ وجودٍ تشيرين؟

– الحياة العامة. الحياة في الأوساط الاجتماعية، معوِّلة على اللياقة العامة. الحياة برفقة السكارى والمتشردين الذين نَصِفُهم عادة بالهيبز. ألا تتذكر؟ حذَّرْتُك من أني لم يكن لي مأوى أذهب إليه.

– كلامك لا معنى له. يمكن أن تحجزي غرفة في فندق. يمكن أن تركبي طائرة وتعودي إلى ملبورن أو تذهبي إلى حيث تريدين. سأسلِّفُكِ الفلوس.

– نعم، تستطيع أن تفعل ذلك. بالضبط مثلما تستطيع التخلص من آل يوكتش المُزعِجين المتقلِّبين وتبيع شقتك وتنتقل إلى دار للمسنين معدَّةٍ جيدًا. لكنك لا تفعل. نحن لا نتغير، بول. هذه هي الحياة التي تُمنَح لنا، حاليًّا لنحياها، ويجب أن نحياها. حين أكون معك يكون لي مأوى؛ وأتشرد حين لا أكون معك. هكذا قرر الزَّهْر. هل كلامي يدهشك؟ لا تندهشْ. ولا تؤنب نفسك. صرتُ في حالة طيبة بشكل مدهش في هذه الحياة الجديدة. انظر إليَّ، لا يمكن أن تقول إني أعيش في حقيبة سفر، أليس كذلك؟ أو أني لم أتناول الطعام في بعض الأيام. باستثناء حبة أو حبتين من العنب.

يصمتُ.

– على أية حال، يكفي الحديث عن نفسي. وأنا أتحدث عن نفسي، بصبر، لم يطلب مني بول ريمنت أن أنزل من فوق كتفيه. ومع ذلك، لو أسرع بول ريمنت فستكون مساعدة عظيمة. قد أكون، كما ذكرْتُ، قريبة من النهاية، لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى إرهاقي، ليس إرهاقًا يمكن علاجه بالنوم ليلة هادئة في سرير حقيقي، الإرهاق الذي أقصده صار جزءًا مني يشبه الصبغة التي تتسرب إلى كل ما أفعله، وكل ما أقوله. أشعر — بتعبير

هوميروس — أنني مرخية الأوتار، وهي كلمة مألوفة لك، على ما أذكر، لم تعد هناك قوة شد، ارتخى وتر القوس الذي اعتاد أن يكون مشدودًا، صار مثل جديلة من القطن، وهذا ليس حال الجسد فقط، العقل — أيضًا — مرتخٍ، مستعدٌّ لنوم هادئ.

مضى وقت طويل ولم يتطلع إلى إليزابيث كُسْتِلُّو، لم يتطلع إليها حقًّا؛ وذلك يعود — في جانب منه — إلى أنها أَتَته في غيمة من السخط، وفي جانب آخر إلى أنه يجدها بلا لون وبلا ملامح، بالضبط مثلما لا يجد تميزًا في ملابسها، لكنه ينتبه إليها الآن بكل تركيز وتروٍّ، وكانت في الحقيقة — كما تقول — فقدتْ جزءًا من وزنها، لحم ذراعها مُترهِّل، وجهها شاحب، أنفها ناتئ.

يقول: لو طلبتِ مني أن أساعدك لساعدْتُكِ، بشكل عملي، أنا على استعداد لمساعدتك الآن. وبشأن الأمور الأخرى — يهزُّ كتفيه — لسْتُ مترددًا، على الأقل في نظر نفسي، أعمل بسرعة طبيعية، لستُ رجلًا استثنائيًّا، مسز كُسْتِلُّو، ولا أستطيع أن أصير استثنائيًّا من أجْلكِ، آسف.

سيساعدها، يعني ما يقول، يشتري لها وجبة، يشتري لها التذكرة، ويذهب معها إلى المطار، يودِّعُها.

تقول: أنتَ رجل بارد تنطق كلمة الإدانة ببساطة، بابتسامة، أنتَ رجل مسكين بارد، بذلتُ قصارى جهدي لتفهم، لكنك لم تفهم شيئًا. بُعِثْتَ إليَّ، بُعِثْتُ إليكَ. لماذا يجب أن يَحدُث ذلك؟ الرب وحده يعلم. عليك الآن أن تُشفي نفسك قدر ما تستطيع، لن أحاول استعجالك بعد الآن.

تقف على قدميها، بصعوبة، تطوي حقيبتها الفارغة، تقول: سلام.

يبقى مكانه مدة طويلة بعد انصرافها، يبحلق في النهر، ويرتجف. سكونه يشجع البط الذي اعتاد أن يُقدَّم الطعام له، فيقترب من قدميه، لكنه لا يلتفت إليه.

بارد: هل هكذا يبدو حقًّا في أعين الغرباء؟ يريد أن يعترض، يتمنى بصدق، سيشهد أصدقاؤه على ذلك، أولئك الذين يعرفونه أفضل بكثير مما تعرفه كُسْتِلُّو المرأة، حتى المرأة التي كانت زوجته ستُسلم بذلك، يتمنى بصدق، يتمنى الأفضل. كيف يوصف إنسان بالبرود وهو يتمنى الخير من كل قلبه، وحين يعمل، يعمل مِن قلبه؟

بارد، ليست الكلمة التي استخدمَتْها زوجتُه. ما قالتْه كان مختلفًا تمامًا، قالت: أظن أنك كنْتَ فرنسيًّا، أظن أن لديك فكرة. فكرة عن ماذا؟ بعد أن تركَتْه بسنوات، حيَّرتْه الكلمات. فكرة عن ماذا، تلك التي يفترض أن تكون عند من كان فرنسيًّا، حتى لو كان

فرنسيًّا أسطوريًّا؟ عمَّا يُسعد المرأة؟ ما يسعد المرأة لغز في عمر أبي الهول. لماذا يجب على الفرنسي أن يتمتع بالقدرة على حَلِّه، ناهيك أن يكون فرنسيًّا نظريًّا مثله؟

بارد، أعمى. شهيق، زفير. لا يتقبل المهمة؛ لا يؤمن بحقيقتها. الحقيقة لا تقال لحظة الغضب. الحقيقة تقال — إن قيلتْ — بالحب، نظرة الحب لا تَخدع. يرى الحب أفضل ما في المحبوب، حتى لو كان من الصعب أن ينبثق أفضل ما في المحبوب إلى النور. مَنْ ماريانا؟ ممرضة من دبروفنيك. خصرها قصير وأسنانها صفراء وساقاها لا بأس بهما. من يُتوقَّع منه أن يرى — بنظر الحب — عيني غزالة خجولتين داكنتين مختبئتين وراء ذلك؟

هذا ما تعجز إليزابيث كُسْتِلُّو عن فهمه، تفكر فيه إليزابيث وكأنه عِقاب حلَّ بها ليفسد عليها آخِر أيام حياتها، كفَّارة غير مفهومة يُحكَم عليها بنطقها، بسردها، بتكرارها. تنظر إليه بنفور، بفزع، بسخط، بقلب أسود، بأي شيء إلا الحب. حسن، حين يصطادها في المرة القادمة سيلقنها درسًا. سيقول: لستُ باردًا، ولسْتُ فرنسيًّا أيضًا. رجل يرى الدنيا بطريقته ويحب بطريقته. رجل فقد منذ فترة وجيزة جزءًا من جسمه، لا تنسي ذلك، سيقول: بقليل من المحبة ربما تجدين في نفسك القدرة على الكتابة.

٢١

دراجو. ما زال يأسره مدى عدم إدراك دراجو لطَلْعته البهية، ليس نرجسيًّا؛ ليس مولَعًا بالنظر إلى صورته. ومن ناحية أخرى، لو كان أكثر إدراكًا لنفسه فربما فَقَد جزءًا من صراحته التي لا تعرف الخوف من نظرة المحارب.

هل هناك معادِل أنثوي لصراحة دراجو؟ النقاء الأمازوني؟ بَلَنْكا، الأخت، الكمية المجهولة، ماذا تشبه؟ هل يقابلها ذات يوم؟

اكتشف نرسيس توءمًا في الحوض ولم يستطع الانفصال عنه. كلما ابتسم، ابتسم التوءم بدوره. إلا أنه كلما انحنى ليقبِّل الشفاه الفاتنة، تلاشى التوءم في رقرقة المياه.

لا يَتَّسم دراجو بالنرجسية، ليس حتى الآن، وربما إلى الأبد. ولا تتسم ماريانا أيضًا بالنرجسية، سمة تثير الإعجاب بطريقة ما. يرى بفضول، وقد وقع في حب ماريانا، أنه وقع في الماضي، دائمًا، في حب نساء يعشقن أنفسهن.

هو نفسه لم يتعامل بيُسر مع المرايا. منذ وقت طويل وضع قطعة قماش على مرآة الحمَّام وتَعلَّم أن يَحلق عِميانيًّا، وقد انزعج؛ لأن كُسْتِلُّو المرأة انتزعتْ، أثناء إقامتها معه، قطعة القماش. وحين انصرفتْ وضعها في الحال من جديد.

لا يغطي المرآة لمجرد أن يحمي نفسه من بشاعة صورته العجوز، لا؛ يرى التوءم المحبوس وراء الزجاج مُضجِرًا أكثر مما ينبغي. يفكر مع نفسه، شكرًا للرب لأن يومًا سيأتي لن يكون عليَّ أن أرى ذلك الشخص مرة أخرى!

مضتْ أربعة شهور على خروجه من المستشفى والسماح له بالعودة إلى حياته السابقة. قضى معظم الوقت منعزلًا في هذه الشقة، لا يكاد يرى الشمس، منذ انقطعت ماريانا إلى الحضور لم يتناول وجبة حقيقية؛ فقَد شهيته، لا يعتني بنفسه. الوجه الذي يخشى أن يواجهه في المرآة وجه غير حليق لمتسوِّل عجوز، إنه أسوأ من ذلك. التقط ذات يوم من

كشك كتب على نهر السِّين، كتابًا في الطب يحتوي على صور لمرضى من مستشفى سلبترير: حالات هوس، عَته شيخوخة، منخوليا، كوريا هنجتون. رأى فيهم على الفور — رغم اللحى الشَّعْثاء ورغم قمصان النوم الخاصة بالمستشفى — رفاق روحه، أبناء عمومة سبقوه وسيتبعهم ذات يوم في نفس الطريق.

يفكر في دراجو؛ لأن دراجو لم يَعُد ولم يرسل كلمة بعد ليلة قضاها في شقته، ويفكر في المرايا بسبب حكاية مسز كُسْتِلُّو عن العجوز الذي استعبد سندباد. تريد مسز كُسْتِلُّو أن تؤثر عليه ببعض الحكايات التي في رأسها. يود أن يصدق أنه، منذ حلقة ماريانا، قاوم مخططاتها، وجعلها في وضع حرج. لكن هل هو مصيب؟ يرتجف حين يفكر فيما قد تَكشِف عنه لمحة عابرة في مرآة: حيزبون على كتفيه مكشرة، تقبض على حنجرته، منكوشة الشعر مكشوفة الثديين، تلوَّح بالسوط.

لا بد أن يكتب خطابًا إلى ماريانا، سواء كانت في بيت أخت زوجها أو بيتها أو أي مكان. من فضلك لا تنقطعي عني. مَهما يكن ما قلتُ، أعدُكِ بألا أعيده أبدًا، كانت غلطة، لن أحاول أن أجذبك إلى مزيد من الألفة، حتى مع أنك فعلْتِ من أجْلي أكثر، أكثر بكثير مما يَتطلَّبه واجبكِ، لن أكون أحمق وأخلط عطْفَك بالحب، بالشيء الحقيقي. ما أعرضه على دراجو، وعليكِ من خلال دراجو، ليس إلا تعبيرًا عن العرفان بالجميل. من فضلكِ اقبليه بهذا المعنى؛ قمْتِ برعايتي؛ أريد الآن، إذا سمحْتِ لي، أن أردَّ الجميل. أعرض أن أرعاك أو على الأقل، أخفف عنكِ بعض الأعباء، أعرض القيام بذلك؛ لأني من قلبي، من أعماقي، أهتمُّ بكِ أنتِ وأبنائكِ.

رعاية: يمكنه أن يضع الكلمة على الورقة لكنه يجدها مختلفة تمام الاختلاف حين يضعها في فمه وينطقها، كلمة إنجليزية أكثر مما ينبغي، كلمة شخص مُسيطِر. ربما ستشاركه ماريانا البلقانية، الراعية، وقد اضطرت أكثر منه إلى التعبير عن حياتها بلسان أجنبي، إحساسه بهذا الاختلاف. وربما لا، ربما قبلتْ بدون تفكير ما قالته لها هيئة الترخيص: إن المهنة التي كانت على وشك العمل بها تُعرف في العالم الناطق بالإنجليزية باعتبارها مهنة رعاية؛ ومن ثم فإن مُهمتها الاهتمام بالناس أو تقديم الرعاية لهم؛ وهذه الرعاية لا علاقة لها بالقلب، إلا في حالات القلب بالطبع.

ومع ذلك ألم يَتحوَّل خلال الشهور الأربعة الماضية بكل معنى الكلمة إلى حالة قلب، مريض قلب؟ كان قلبه، ذات يوم، أقوى أعضائه، قد يخذله أي عضو آخر من إخوانه؛ الأمعاء، الطحال، المخ إلا قلبه، اختُبِرَ وامتُحِن أولًا على طريق مَجيل ثم في غرفة العمليات، سيخدمه بصدق حتى النهاية.

ثم قابَل ماريانا، وعانى قلبه من التغير. لم يعدْ قلبه كما كان من قبل. يؤلمه الآن ليخدم ماريانا، ماريانا وكل من ينتمون إليها. مثلما أعطتْ له، يريد قلبه أن يرد الجميل، يجب أن يضيف في الهامش: رد الجميل ليس مثل رد الدَّين. سامحيني على درس اللغة، أنا أيضًا أتحسس طريقي، أنا أيضًا على تربة غريبة.

يكتب هذه المرة بقلم حقيقي على ورق حقيقي.

عزيزتي ماريانا، هل تعتقدين أن زوجك يعتقد أني سأحاول فرْض نفسي عليك مقابِل مصروفات مَدرسة دراجو؟ لا أحلم بذلك؛ وعلى أية حال، مسز كُسْتِلُّو تحوم دائمًا، لتتأكد من أني على الصراط المستقيم. تقول مسز كُسْتِلُّو: لا توجد امرأة لها عينان في رأسها يمكن أن يكون لها رفيق مثلكَ. لا أوافق على أكثر من ذلك.

كان عليكِ أن تَرَي الكثير مني وأنتِ تُؤدِّين مهمتك، ربما الكثير جدًّا. أقول ببساطة هذه الكلمات: سأبقى شاكرًا لك، رعايتكِ المخلصة لي، حتى يوم موتي. إذا كنتُ أعرض أن أتكفَّل بتعليم دراجو، فذلك ببساطة مجرد طريقة لرد الدَّيْن.

ناقشْنَا أنا وميروسلاف مسألة وثيقة الائتمان، إذا كانت وثيقة الائتمان هي ما يريح ميروسلاف، فسأرى مسألة عمل وثيقة؛ من أجل دراجو، بل ومن أجل أبنائك الثلاثة.

عرفتُ عنوانك من مسز كُسْتِلُّو، التي يبدو أنها تعرف كل شيء. من فضلكِ فكِّري أنت وميروسلاف مرة أخرى، وامنحيني شرف قبول هبة بدون أية نوايا، كما يقال بالإنجليزية.

المخلص للأبد

بول ريمنت

٢٢

أرسل الخطاب الذي كتبه إلى ماريانا على عنوان مسز ليداي كرازدتش، شمال إليزابيث. يتمنى ألا تكون في شمال إليزابيث إلا كرازدتش واحدة، يتمنى أن يكون قد وضع النقط بشكل صحيح.

يأتي رد ماريانا بعد يومين، ليس في خطاب — شكل لم يتوقعه أبدًا، يمكن أن يخمن الصعوبة التي قد تعانيها لتكتب بالإنجليزية — بل في مكالمة تليفونية.

تقول: آسفة لأني لا آتي لرؤيتك مستر ريمنت، لكن لدينا كل أنواع المشاكل. بَلَنْكا — تعرف بلنكا؟ — لديها مشكلة. وتحكي حكاية طويلة عن سلسلة فضية، ليست حتى من الفضة الحقيقية، يمكن أن تشتريها بدولار ونصف من السوق الصيني، يَتَّهم بائع يهودي، بلنكا بأخذِها، مع أن بلنكا لم تأخذها، أخذَتْها إحدى صديقاتها ودسَّتها لها وأرادت أن تعيدها لكن الوقت لم يسعفها؛ ويقول اليهودي إن السلسلة وهي ليست من الفضة الحقيقية تساوي تسعة وأربعين دولارًا وخمسة وتسعين سنتًا، ويريد أن يأخذها إلى المحكمة لهذا السبب، إلى محكمة الشباب؛ لهذا ترفض بلنكا الآن أن تأكل، وترفض الذهاب إلى المدرسة، مع أن الامتحانات لم يَبقَ عليها إلا أسبوع، تبقى في غرفتها طوال اليوم إلا أنها ارتدت ملابسها وخرجت في مساء السبت ولم تقل إلى أين ذهبتْ. ولا يعرف مِلْ ماذا يفعل وهي لا تعرف ماذا تفعل. فهل يعرف هو، بول ريمنت، شخصًا يمكن أن يتكلم مع بلنكا، شخصًا يكلم اليهودي وينهي القضية؟

يسأل: ماريانا، كيف تعرفين أنه يهودي؟

– حسن، لا يهم إن كان يهوديًّا أو لم يكن يهوديًّا.

– ربما أكون يهوديًّا. هل أنتِ متأكدة من أني لستُ يهوديًّا؟

– حسن، انسَ، زلة لسان، لا شيء. لا تريد أن تتكلم معي، قل ذلك، انتهى.

– بالطبع أريد أن أتكلم، بالطبع أريد أن أساعد. ما معنى حياتي إن لم أساعد؟ أعطيني البيانات، أخبريني متى وأين حدث ذلك، حكاية السلسلة الفضية. وحدثيني أكثر عن صديقة بلنكا، الصديقة التي كانت معها في المحل.

– سجلتُها هنا، المحل هو هَبِنْستانس — تتهجى الكلمة — في رَنْدل مول، والمدير اسمه مستر ماثيوز.

– ومتى حدث ذلك؟ ما حدث في هَبِنْستانس؟

– الجمعة. الجمعة بعد الظهر.

– وصديقتها؟

– لا تريد بلنكا أن تذكر اسم صديقتها، ربما تراسي، لا أعرف.

– سأرى ما يمكن أن أفعله، ماريانا. لستُ أفضل شخص في مثل هذه الأمور، لكن سأرى ما يمكن أن أفعله. أين يمكن أن أصل إليكِ؟

– يمكن أن تتصل بالتليفون، معك نمرتي.

– أتصل بك في البيت؟ أعتقد أنك تقيمين مع أخت زوجك. كتبتُ لك على عنوان أخت زوجك. ألم تستلمي خطابي؟

صمتٌ طويل. تقول ماريانا في النهاية: انتهى كل شيء. يمكن أن تتصل بي.

تريد ماريانا رجلًا له نفوذ، وهو ليس رجلًا له نفوذ، وليس متأكدًا حتى من أنه يوافق على ظاهرة الرجل صاحب النفوذ، لكن لا بد أن الأمور تجري على هذا النحو في كرواتيا، ومن أجل ماريانا ومن أجل ابنتها التعيسة، التي لا بد أنها استوعبت الدرس — أي أن تكون أكثر حذرًا وهي تسرق — فهو مستعِد للمحاوَلة، لكن، هل تخطئ ماريانا لاعتقادها أن رجلًا يحمل اسمًا رقيقًا مثل ريمنت ويعيش في بيت مريح في حي راقٍ من أحياء المدينة ومعه فلوس يبذلها بسخاء يمكن أن يحل أمورًا لم يستطع حلَّها ميكانيكي له اسم مضحك مثل يوكتش؟

يقول: مستر ماثيوز؟

– نعم.

– هل يمكن أن نتكلم على انفراد؟

إلا أن هَبِنْستانس — الذي يبيع بضائع — ليس مكانًا يمكن أن يتحدث فيه المرء على انفراد، مساحته لا تتجاوز خمسة أمتار مربعة، به رفوف بها ملابس مرصوصة بإحكام،

به منضدة ودُرْج، وموسيقى تُقعقِع من مكان ما فوقها، ولا شيء غير ذلك. وبالتالي فإن ما سيقوله لمستر ماثيوز سيقوله علانية.

يقول: احتجزتَ هنا فتاة لسرقة بعض المعروضات، الجمعة الماضي، بلنكا يوكتش، هل تتذكر الموضوع؟

يتصلب مستر ماثيوز، الذي ليس يهوديًّا وليس غير يهودي، ويخلو من أي قدر من الدماثة، يتصلب بوضوح. مستر ماثيوز في العشرينيات من عمره؛ طويل ونحيف؛ حاجباه واسعان وداكنان وشعره مقصوص ويقف كالشوك.

يقول ضاغطًا على الكلمات: اسمي بول ريمنت. أنا صديق لعائلة يوكتش. هل أحدثك عن بلنكا؟

يومئ الولد — هل يمكن أن يكون إلا ولدًا؟ — بتحفظ.

– لم تفعل بلنكا شيئًا مثل هذا من قبل. تعاني منذ الجمعة الماضي قدرًا عظيمًا من العذاب، عذاب الذات، تشعر بالعار مما اقترفَته، ترفض الظهور على الملأ، يمكن أن أتجرأ وأقول: إنها تعلمت الدرس، مجرد طفلة؛ لا أظن أن هناك خيرًا يُرجى من وراء محاكمتها. لهذا جئْتُ باقتراح، أريد أن أدفع ثمن ما أخذتْه، وقد فهمْتُ أنها سلسلة من الفضة ثمنها حوالي خمسين دولارًا.

– تسعة وأربعون دولارًا وخمسة وتسعون سنتًا.

– بالإضافة إلى ذلك، إن وافقت على التنازل عن القضية، أنا مستعد لشراء بضائع منك، بقيمة، قلْ، خمسمائة دولار. تعبيرًا عن حسن النية. هذا كل ما عندي بلا مواربة.

يهز مستر ماثيوز الشاب رأسه. يقول: إنها سياسة الشركة. كل سنة تفقد خمسة في المائة من المعروضات، في كل الفروع، بسبب السرقة. نبعث برسالة لسارقي المعروضات: اسرقْ من عندنا تُحاكَم. القانون بحذافيره. لا تسامح على الإطلاق. تلك سياستنا. آسِف.

– تَفقِد خمسة في المائة لكنك تضيف هذه الخمسة في المائة إلى أسعارك. لا أنتقدُكَ، أشير إلى حقيقة ليس إلا، لكن السياسة مُوجَّهة إلى سارقِي المعروضات، سياسة عادلة تمامًا، لكن بلنكا ليست سارقة معروضات، إنها مجرد طفلة تُفكِّر بغباء كما يفكر الأطفال. تفكر، الحظ السيئ يصادف الآخَرين لكنه لن يصادفني. وتعرف الآن أن الأشياء السيئة تصادفها هي الأخرى. إذا أردْتَ أن تلقِّنَها درسًا فقد لقَّنْتَها الدرس، لن تنساه، لن تسرق مرة أخرى، لا يجدر بها، السرقة جعلَتْها في وضع مُزْرٍ؛ لذا فلنَعدْ إلى العرض الذي قدمْتُه. اتصل تليفونيًّا، تنازَلْ عن القضية؛ أدفعُ ثمن السلسلة وأشتري من هنا، في الحال، بضائع بما قيمته خمسمائة دولار.

يتردد مستر ماثيوز ترددًا واضحًا.

– ستمائة، هذا كارتي، البوليس لا يرحب بمقاضاة هذه الحالات؛ يشغلون أوقاتهم بما هو أكثر أهمية.

– لا يمكن أن أتخذ مثل هذا القرار، سأتحدث إلى المدير.

– أنتَ المدير.

– أنا مدير هذا الفرع فقط، يوجد مدير للمنطقة، سأتحدث إليه، لكن لا يمكن أن أعدك؛ المقاضاة، كما قلتُ، سياسة الشركة، تلك هي الطريقة الوحيدة لنبعث رسالة بأنَّنا جادُّون.

– تحدَّثْ إلى مدير منطقتك الآن، اتصل به تليفونيًّا، سأنتظر.

– مستر دي فيتو خارج البلدة، سيعود يوم الاثنين.

– قد يكون مستر دي فيتو خارج البلدة، لكن لا يمكن أن يكون الوصول إليه مستحيلًا، اتصل به، احسِم هذه المسألة.

يتراجع مستر ماثيوز الشاب خلف الدرج، ويعطيه ظهره، ويخرج تليفونه المحمول. يحاول مستر ماثيوز الشاب أن يفسد عليه يومه، ويعطله أيضًا. ليس متنمرًا بطبعه، لكنه يمر بتجربة مزعجة وهو يبحث عن نقطة ضعف في الولد، ويضغط عليه، ويحدق فيه. بلنكا يوكتش، لن ينسى ماثيوز الاسم بسرعة.

كانت المساعِدة، وهي فتاة تضع مكياجًا أبيض رهيبًا وتلون شفتيها بالبنفسجي، تراقبهما خفية، يشير إليها، يقول: ساعديني في اختيار بعض البضائع — بسرعة — مناسبة لفتاة في الرابعة عشرة.

صديق للعائلة. هكذا يقدم نفسه إلى هَبِنْستانس، وهكذا يراه هَبِنْستانس: شخص عجوز معوَّق لا يعلم إلا الرب وحده سر اهتمامه بسعادة فتاة اسمها مضحك. وهذا صحيح، إنه ذلك الشخص العجوز، ذلك المحسن طيب القلب، هذا صحيح، لكنها ليست الحقيقة بِرُمَّتها. إذا كان يصارع وسط الزحام في رَندل مول، إذا كان يساوم ويداهن ويدفع في بضائع لا يحتاج إليها، فذلك ليس، أو ليس بالضبط، من أجل طفلة لم يرها أبدًا.

كيف يبدو ذلك في عين ماريانا، هل سينسجم مع فكرة أنه يطاردها بعناد؟ هل لها زبائن مثله، مُسنِّون آخرون شغوفون بها؟ من المؤكَّد أنكِ تعرفين، بالتأكيد المرأة تعرف دائمًا. كم ضايقَتْها وأزعجَتْها كلمات حبٍّ من شخص تُمرِّضه فقط، ترعاه فقط. مزعجة لكنها، في النهاية، ليست خطيرة. فنتازيا رجل تعوَّد أن يكون وحيدًا، تشق طريقها إلى السطح؛ فتنة؛ ليست الشيء الحقيقي.

ماذا يحدث ليجعل ماريانا تراه كأنه الشيء الحقيقي؟ ما الشيء الحقيقي؟ الرغبة الجسدية؟ الألفة الجنسية؟ يألف، هو وماريانا، كل منهما الآخر منذ فترة أطول مما تستمر بعض العلاقات الغرامية التي تبدأ لتنتهي، لكن الألفة كلها، التجرد كله، اليأس كله صار من جانب واحد. طريق باتجاه واحد؛ لا تَبادُل؛ ولا حتى قُبلة، مجرد قُبلة سريعة على الخد. أوروبيان سابقان!

يقول صوت: هل أنت بخير؟

يحدق في عينين، عينين عطوفتين تمامًا، لامرأة شابة ترتدي زيًّا أزرق، ضابطة بوليس.

– نعم. لماذا يمكن ألا أكون بخير؟

تلقي ضابطة أخرى نظرة بطرف عينيها إلى الرجل: أين تسكن؟

– في شمال أدليد. في ممر كنستون.

– وكيف تعود إلى البيت؟

– أمشي إلى شارع بُلْتِنِسي ثم آخذ التاكسي. هل هناك خطأ في ذلك؟

– لا شيء. لا شيء خطأ.

يعلق حقائب هبنستانس في ذراعه، ويقبض على عكازيه، ويخلص نفسه من إناء نفايات كان يستريح عليه. يشق طريقه في الزحام، صامتًا، رافع الرأس.

٢٣

تقول ماريانا: لا يمكنها أن تأخذها، لا، هذا مستحيل.

لم يَعُد يستطيع أن يوافق، هذا مستحيل. واحدة يُقبَض عليها وهي تسرق سلسلة فضية ليست حتى فضية، لا تساوي أكثر من دولار ونصف في السوق الصيني، وماذا يحدث؟ تُكافَأ ببضائع تساوي ستمائة دولار! أين العدل في ذلك؟ ماذا يقول دراجو حين يعرف؟

بلنكا العنزة السوداء في العائلة. دراجو الضوء الساطع، ملاك يحمل سيفًا. القائد دراجو يوكتش، الأسطول الملكي الأسترالي.

يقول مخاطبًا ماريانا: أَغلِقي الخزانة على الملابس. روحه المعنوية مرتفعة. هو وهي على التليفون مرة أخرى، مثل صديقين قديمين، رفيقين قديمين. هذا ما كان عليَّ أن أفعله. أظهريها كحافز، قطعة قطعة، إذا وافقَت أن تذهب إلى المدرسة وهلم جرًّا. لكن بسرعة. ستصبح موضة قديمة بعد شهر.

ماريانا لا تستجيب. لا يتذكر أنها استجابت ذات مرة لدعابته. هل هو طائش بدرجة لا تستسيغها؟ هل تجده خفيفًا جدًّا، تافهًا جدًّا، يشبه مهرِّجًا؟ أم أنها ببساطة لا تثق في لغتها الإنجليزية بدرجة تجعلها لا تبادله الكلمات. يجب أن يقول لها: إنها مجرد مباراة، مزاح كما يقال في بعض الأحياء، عليكِ أن تشاركي، ليست لعبة صعبة، لا تتطلب تغييرًا في الروح.

روح ماريانا صلبةٌ، حقًّا، ميروسلاف أقل رسوخًا، ميروسلاف الذي قضى عامًا من حياته يركِّب بطة من تروس ويايات، وظهر مع بطته المدلَّلة في تليفزيون كرواتيا، من المؤكَّد أنه يتمتع بحس الدعابة. دراجو أيضًا، بضحكته البرية المصطنَعة. يتأرجح دراجو بين أبيه وأمه. تقول ماريانا إنه لاعب تنس جيد في الإرسال والصد، ثلاثة أنماط بلقانية، ثلاث أرواح

بلقانية، لكن منذ متى صار خبيرًا في الخفة، أو في البلقانيين؟ تقول شعوب البلقان: ينكر كثير من الكروات انتماءهم إلى البلقانيين، يقولون: كرواتيا جزء من الغرب الكاثوليكي.

تقول ماريانا في التليفون: شجار دائم.

– شجار؟ مَن يتشاجر؟

– دراجو مع أبيه. يقول دراجو إنه يريد أن يأتي ويقيم في مخزنك.

– في مخزني؟

– أقول لا، أقول مستر ريمنت رجل طيب، عانى مشاكل كثيرة بسبب آل يوكتش.

– مستر ريمنت ليس رجلًا طيبًا، يحاول فقط أن يساعد. لا يمكن أن يقيم دراجو في مخزني أو في مخزن شخص آخر، هراء. ولكن إذا كانت علاقته بأبيه متوتِّرة، وإذا وافقْتِ، قولي له أهلًا به ليأتي ويقيم هنا بضعة أيام. ماذا يحب أن يأكل في العشاء؟ بيتزا؟ أخبريه أني سأطلب له بيتزا كبيرة كل مساء، من أجله فقط. اثنتين كبيرتين، إذا أحب؛ إنه ولد يافع.

هكذا تجري الأمور. في لمح، إن كانت هناك غيوم فقد انقشعت.

يخبر دراجو: إنها ما نطلق عليها طبعات الزُّلال. تُغطَّى الورقة ببياض بيض مُخفَّف فيه بلورات معلَّقة من كلوريد الفضة. ثم تعرض للضوء تحت عدسة سالبة. ثم تُعالج كيميائيًّا. كانت هذه طريقة الطبع الوحيدة التي ابتكرت أيام فوشي. انظر، هذه طبعة قبل الزُّلال لتقارن بينهما، على ورقة منقوعة وليست مغطاة، منقوعة في ملح من أملاح الفضة. هل ترى مدى اكتمال صورة فوشي وسطوعها؟ يعود هذا إلى عمق طبقة الزلال. أقل من ملليمتر عمقًا، لكن الملليمتر يُؤدِّي إلى كل هذا الاختلاف. انظر في الميكروسكوب.

يريد أن يبدو شيقًا في عيني دراجو، إذا جاز التعبير، في عيني ممثِّل ذكي للعصر الآتي، لكن الأمر ليس يسيرًا؛ ماذا يقدم؟ دراجة مكسورة، طرفًا مقطوعًا، قد يكون منفِّرًا أكثر منه جذابًا، وخزانة مليئة بصور قديمة؟ باختصار، ليس كثيرًا، ليس كثيرًا ما يجذب به ولدًا إليه كابنٍ روحي.

لكن دراجو، ابن رائع لأم رائعة وربما — من يعرف؟ — لأب رائع أيضًا، مَؤدَّب بمعنى الكلمة. يُمعِن النظر بأدب في الميكروسكوب، ملاحظًا الملليمتر من بيض الدجاج المجفَّف الذي يُدَّعى أنه وراء كل هذا الاختلاف.

– كنْتَ أنت نفسك مصوِّرًا فوتوغرافيًّا، مستر ريمنت، أليس كذلك؟

– نعم، أدرْتُ استوديو في أَنْلي. قدمتُ في فترة دروسًا مسائية في التصوير الفوتوغرافي، لكني لم أكن أبدًا — كيف أقولها؟ — فنان كاميرا. كنتُ تقنيًّا دائمًا.

هل هذا شيء يجب الاعتذار عنه، ألا يكون فنانًا؟ لماذا يعتذر؟ لماذا يتوقع دراجو الشاب منه أن يكون فنانًا؟ دراجو الشاب، الذي هدفه في الحياة أن يكون تقنيًّا في الحرب.

يقول: فُوشي نفسه لم يكن فنانًا، على الأقل لم يكن فنانًا حتى جاء إلى أستراليا. جاء من باريس أثناء طفرة الذهب في خمسينيات القرن التاسع عشر. وقام ببعض الحفريات كهاوٍ، في فيكتوريا، ليتذوقه، لكنه كان يلتقط الصور أساسًا. يومئ باتجاه مجموعة من النساء عند باب الكوخ الخشبي. تلك حين اكتشف موهبته، أتقن حرفته أيضًا، سيطر بالكامل على أدواته، مثلما يفعل أي مصور فوتوغرافي عظيم.

– ماما كانت تريد أن تكون فنانة، حين كانت في كرواتيا.

– حقًّا!

– إيوه. التحقتْ بمدرسة للفنون، وبعد مدرسة الفنون التحقت بالترميم، تَعرف، وقامت بترميم لوحات جصية قديمة وأشياء من هذا القبيل.

– يا له من أمر مثير! لم أعرف ذلك عنها. الترميم مهنة مهارة، يمكن حتى أن تقول إنه فن، إلا أنه ليس فنًّا أصيلًا. القاعدة الأولى في الترميم: اتبعْ قصد الفنان، لا تحاولْ أبدًا أن تعدِّله. لا بد أن أمك وجدت أن الانقطاع للعمل الفني صعب عليها فانتقلت إلى التمريض، هل ما زالت ترسم؟

– ما زال لديها، تعرف، الفُرَش والأدوات والخامات. لكن لم يَعُد لديها وقت.

– لا، أنا متأكد من أنه لا وقت لديها. إلا أنها ممرضة من الطراز الأول، إنها تشرِّف المهنة. أتمنى أن تعرف أنت ذلك.

يومئ دراجو برأسه: من أين حصلْتَ على هذه الصور، مستر ريمنت؟

– جمعتها في سنوات. ذهبتُ إلى محلات التحف، ذهبتُ إلى المزادات، اشتريتُ الألبومات القديمة، اشتريتُ ما استطعتُ من الصناديق المليئة بصور قديمة، تافهة في معظمها، من حين لآخر كان هناك ما يستحق أن أحتفظ به، وحين تكون الصورة في حالة سيئة، أرمِّمها بنفسي، المسألة ليست في صعوبة ترميم اللوحات الجصية، لكنه، مع ذلك، عمل متخصِّص، كانت هوايتي لسنوات. هكذا كنتُ أقضي وقت الفراغ. إذا كان وقتك غير مُهم في ذاته، فعلى الأقل يمكنك أن تُحسِن استخدامه. هذا ما قلتُه لنفسي. تبرعتُ بالمجموعة بعد موتي، ستصبح ملكية عامة. إنها جزء مُسجَّل من تاريخنا. ويشير بيديه في إشارة غريبة غير متعمدة، ويا للدهشة تكاد الدموع تفر من عينيه. لماذا؟ لأنه يتجرأ ويذكر موته أمام هذا الولد، طليعة الجيل الذي سيتولى أمور عالمه ويسيطر عليه؟ ربما، لكن ربما على الأرجح

بسبب الضمير المتصل العائد علينا. تاريخنا، تاريخك وتاريخي، ربما لمجرد وجود هذه الصورة أمامهما، هذا الانتشار لجزيئات الفضة مسجلًا طريقة سقوط ضوء الشمس، ذات يوم في عام ١٨٥٥م، على وجه امرأتين أيرلنديتين ماتتا منذ زمن بعيد، صورة لا علاقة له — الولد الصغير من لُرْدِز — بمن فيها ولا علاقة لدراجو، ابن دبروفنيك، بما فيها هو الآخَر، ربما، مثل التعويذة السحرية — كنتُ هنا، عشْتُ، عانيتُ — صورة لها القدرة على توحيدهما.

يقول: على أية حال، إذا أصابك الملل، إذا لم يَعُد هناك ما تفعله، أنتَ حر في إلقاء نظرة على بقية الصور، لا تُخرجْها من أغلفتها فقط، وتأكد من إعادتها كما كانت.

بعد ساعة، وهو يستعد للنوم، يطل دراجو برأسه من الباب: عندك كمبيوتر مستر ريمنت؟

– نعم. على الأرض قرب المكتب. لا أستخدمه كثيرًا.

يعود دراجو بسرعة: لا أجد التوصيلة مستر ريمنت. توصيلة المودم.

– آسف، لا أفهم.

– الوصلة. هل لديك كابل في مكان ما يوصلك بالإنترنت؟

– لا، هذا الكمبيوتر ليس من هذا النوع. أستخدمه أحيانًا لكتابة خطابات. ماذا تحاول أن تفعل؟ ماذا تحتاج؟

يبتسم دراجو ابتسامة استغراب: مع ذلك، متى اشتريتَ هذا الكمبيوتر؟

– لا أتذكر، منذ سنوات، ألف وتسعمائة وثمانين تقريبًا. من طراز قديم، يمكن أن أساعدك إذا احتجْتَ شيئًا أكثر تطورًا.

لم يترك دراجو الموضوع عند هذا الحد. في مساء اليوم التالي وهما في المطبخ، يتناولان العشاء، لم يطلب بيتزا، كما قال، بل طبخ رِسُتو بعيش الغراب والسوترنيه.[١]

يقول دراجو على غير توقُّع: هل تكره الأشياء إن كانت جديدة، مستر ريمنت؟

– لا؛ لماذا تقول ذلك؟

– لستُ، تعرف، ألومكَ، إنه مجرد أسلوب، أسلوب كل شيء. يتراجع في كرسيه، يشير بيده بتلقائية، وهو يقول: كل شيء. ممتاز. أتساءل فقط. ألا تحب شيئًا جديدًا؟

[١] نوع من النبيذ الأبيض.

الشقة في ممر كنستون في بناء تم تجديده، يعود إلى ما قبل الحرب. عالية السقف وفسيحة، إلا أنها ليست واسعة جدًّا. اشتراها بعد الطلاق؛ وكانت ما يريده بالضبط كعائد إلى حياة العزوبية، يعيش هنا من وقتها.

وكجزء من الصفقة حين اشترى الشقة اشترط عليه المالك السابق أن يشتري العفش، كان العفش ثقيلًا وقاتمًا ولا يناسب ذوقه؛ كان ينوي استبداله باستمرار، لكنه كان يفتقر إلى الطاقة اللازمة لذلك، وبدلًا من ذلك، وبمرور الوقت، تواءَم مع ما يحيط به، صار هو نفسه بطيئًا وكئيبًا.

– دراجو، أُقدِّم لك إجابة صريحة، لكن لا تسخر منها. سيطر عليَّ الزمن والتاريخ، سيطرَت عليَّ هذه الشقة وكل ما فيها. لا غرابة في ذلك، أن يسيطر عليك الزمن. سيحدث لك ذلك أنتَ الآخَر، إذا طال بك العمر. أخبِرْني الآن: لماذا هذه المحادَثة؟ بسبب كمبيوتر لا يتفق مع المستوى الذي تطلبه؟

يُبحلِق فيه دراجو بارتباك هائل، يندهش من نفسه حقًّا. لماذا هذه الكلمات الحادة؟ ماذا فعل الولد المسكين ليستحقها؟ هل تكره الأشياء إن كانت جديدة؟ السؤال مناسب تمامًا لرجل عجوز. ما الخطأ فيه؟

يقول مشيرًا بيده كما فعل دراجو بالضبط: ذات يوم كان هذا كله جديدًا. ذات يوم كان كل ما في العالم جديدًا، حتى أنا كنتُ جديدًا، في الساعة التي وُلِدتُ فيها كنتُ آخر شيء وأحدث شيء على وجه البسيطة. ثم أثَّرَ الزمن، كما سيؤثر فيك الزمن، سيأكلك الزمن، دراجو! ستجلس ذات يوم في بيتك الجديد الرائع مع زوجتك الجديدة الرائعة، ويحوم ابنكما حولكما ويقول: لماذا أنتما من طراز قديم إلى هذا الحد؟ أتمنى أن تتذكر هذه المحادثة حين يأتي هذا اليوم.

يتناول دراجو آخر شوكة من الرستو، آخر شوكة من السلطة. يقول: ذهبنا إلى كرواتيا في الكريسماس الماضي. أنا وماما وأُختاي. إلى زَدار؛ حيث يعيش والِدا ماما، إنهما الآن عجوزان لطيفان، سيطر عليهما الزمن أيضًا، كما قلتَ، اشترَت ماما لهما كمبيوتر وعلَّمنَاهما طريقة استخدامه، وهما الآن يستطيعان الشراء عن طريق الإنترنت، يستطيعان إرسال رسائل إلكترونية، نستطيع أن نرسل لهما صورًا. وهما يحبان ذلك، وهما عجوزان لطيفان.

– هكذا؟

يقول دراجو: هكذا يمكن أن نختار، هذا كل ما عندي.

٢٤

حين دعا دراجو للإقامة معه، لم يكن، وراء الدعوة، ما يمكن أن يعتبره يلتقط كلمة اليوم، الكلمة المتكلَّفة المستهجَنة، يزنها ويختبرها، غير مناسب. كان قلبه — بقدر ما يرى ما في قلبه — نقيًّا وما زال نقيًّا، ودوافعه بريئة. إنه مُعجَب بدراجو بشكل معقول ومناسب، كما يعجب رجل بابن يتبناه أو ابن حقيقي.

التعايش الذي تصوره بينهما كان معقولًا، يقضيان معًا بعض الأمسيات، ينهمك دراجو في واجباته على طاولة الطعام، وهو يجلس في كرسي في يده كتاب، في انتظار أن تهدأ الأحوال في بيت يوكتش.

لكن الأمور تسير على نحو آخر. يأتي دراجو بأصدقائه؛ بسرعة امتلأتِ الشقة بالصخب والضوضاء وكأنها محطة قطار، المطبخ فوضى مليء بكراتين الوجبات السريعة والأطباق القذرة؛ الحمَّام مشغول باستمرار، لا شيء من التطور الهادئ في الألفة التي تَطلَّع إليها، يشعر أن دراجو يبعده عن طريقه، بعد أمسية الرستو بعيش الغراب لم يأكُلا معًا.

يعلن بأقصى ما يستطيع من تلقائية: سأعد لنفسي طبق بيض للعشاء. هل أعد لك طبقًا أيضًا؟ فخذ خنزير بالطماطم؟

يقول دراجو: لا تعد لي؛ سأخرج، أحد أصدقائي ينتظرني، سنشتري ما نأكله.

– معك فلوس؟

– إيوه، شكرًا، ماما أعطتني فلوسًا.

الرفيق المقصود اسمه شون، رأسه أحمر مليء بالبثور، كرهه من أول نظرة. يكثر شون من التردد على الشقة، وهو طبقًا لكلام دراجو لا يذهب إلى المدرسة؛ لأنه يعزف في فرقة. يخرج مع دراجو بعد أن يحل الظلام، ويبقيان في الخارج حتى وقت متأخر، ثم يعودان ويغلقان الباب عليهما في الغرفة التي كانت مكتبًا، وهي الآن غرفة دراجو.

الموسيقى وهمهمة صوتيهما تجعله مستيقظًا حتى الساعات الأولى من الصباح، يستلقي في الظلام، في نكد وبؤس، يستمع إلى البي بي سي.

يشتكي إلى إليزابيث كُسْتِلُّو. ليست مجرد ضوضاء. دراجو متعود على أسرة كبيرة. لا أتوقع منه صمت الرهبان. لا، ما يزعجني طريقة رد فعله حين أتجرأ وأسأل عن أبسط الأمور.

– كيف يكون رد فعله؟

– يخيم الصمت. لا يراني بعدها، قد أكون مثل قطعة من الأثاث. تقول ماريانا: إنه على خلاف دائم مع أبيه.

اعتقد أنه قد لا يرى إليزابيث كُسْتِلُّو مرة أخرى، بعد كلماتها الباردة على شاطئ النهر، لكن لا، تعود؛ ربما لأنها لا تستطيع أن تتخلى عنه، وربما أيضًا لأنها ليست على ما يرام. فقدَت وزنها؛ تبدو في حالة وهن شديد، تعاني من كحة مستمرة.

تقول: بول المسكين! وقت متأخر جدًّا من الحياة، رهباني جدًّا، كما تقول، كثير من التمسك بأساليبك، والآن كثير من النكد أيضًا! يا لها من مُغامَرة طائشة في عقل طفل! بصورة مجردة أنا متأكِّدة من أنك توَد أن تحب دراجو الشاب، لكن حقائق الحياة تستمر في طريقها. لا يمكن، بول، أن نحب بالإرادة، علينا أن نتعلم. لهذا تولد الأرواح مرة أخرى، وهكذا، وهم يكبرون في صُحبتنا، يمكن أن يقودونا عَبْر وعورة طريق الحب. لمحْتَ من البداية شيئًا ملائكيًّا في دراجو، وأنا واثقة من أنك مُحق، دراجو بقي على اتصال بأصوله الدنيوية الأخرى أكثر من معظم الأطفال. تغلَّبْ على غضبِك، وانزعاجك، تعلَّمْ من دراجو كلما استطعْتَ. ذات يوم ستتلاشى في الهواء خصلات الأُبَّهة التي يجرها وراءه ويصبح ببساطة واحدًا منا.

– تعتقد أني مجنونة، أليس كذلك، أو مخرِّفة؟ لكن تذكَّرْ: ربَّيْتُ ابنين، حياة حقيقية، ابنين ليسا روحيين؛ لم تربِّ أحدًا. أعرف لماذا ننجب أبناء؛ ما زلْتَ جاهلًا. ومن ثم انتبِهْ إليَّ حين أتكلم، حتى لو كنتُ أتكلم بالمجاز. ننجب أطفالًا لنتعلم، ربما، أن نحب ونخدم، مِن خلال أبنائنا نصبح خدمًا للزمن. تطلَّعْ في قلبك. اسألْ نفسك إن كان لديك مخزون من الجَلَد والقدرة على الاحتمال للقيام برحلة. انسحب إن كانت الإجابة بالنفي. الوقت ليس متأخرًا.

حديث مَجازي. ملائكة من أعلى. حديثها الأكثر إلغازًا منذ الهراء الخادع عن المرأة ذات النظارة القاتمة. هل أصابها دوار نتيجة الجوع؟ هل تحاول خداعه مرة أخرى؟ هل

عليه أن يقدم لها أكثر من كوب الشاي؟ ينظر إليها بقسوة، بقدر ما يستطيع من قسوة، لكنها لا تهتز، يبدو أنها تؤمن بما تقول.

يبدو أن العقد القانوني، المبرَم بينه وبين ماريانا، تبخر في الهواء. تبقى بعيدة يومًا بعد يوم بدون كلمة تبرر غيابها. وعلى الجانب الآخر، ينعم ابنها بمكالمات تليفونية عديدة. مع انتهاء دراجو من المحادَثات بينهما، التي تدور بالكرواتية، لا يسمع سوى مقطع من حين إلى آخر.

وذات يوم، بعد الظهيرة، تهبط ماريانا فجأة، وعلى غير توقُّع. لم يعد دراجو من المدرسة؛ وهو في غفوة.

– مستر ريمنت، أيقظْتُكَ؟ آسفة طرقْتُ الباب ولم يأتِ أحد. تريد شايًا؟

– لا، شكرًا. كان مستاءً؛ لأن النوم ما زال مسيطرًا عليه.

– كيف حال ساقك؟

– ساقي؟ ساقي بخير.

سؤال غبي وإجابة غبية. كيف تكون ساقه بخير؟ لا ساق. الساق المقصودة قُطِعتْ منذ فترة طويلة وأُحْرِقتْ. كيف حال غياب ساقك؟ هكذا كان يجب أن يُطرَح السؤال. غياب ساقي ليس بخير، إن أردْتِ الحقيقة، غياب ساقي ترك فجوة في حياتي، كما يرى كل من له في رأسه عينان.

أحضرتْ ماريانا ليوبا معها. يحاول أن يخفي انزعاجه من أجل الطفلة.

تشق ماريانا طريقها عبر الفوضى الموجودة على الأرض، وتجلس في آخر سريره. تقول: تحيَا حياة لطيفة، ثم هب! تصدمك سيارة، ثم هب! تصدمك عائلة يوكتش؛ لم تَعُد لطيفة بعد ذلك، إيه؟ آسفة! لا تريد شايًا؟ أنت متأكد؟ كيف حال دراجو معك؟

– لا شيء يستدعي الشكوى، العلاقة بيننا طيبة، أنا متأكد من أنه شيء رائع بالنسبة لي أن أكون مع شُبَّان. ينعشونني.

– أنتَ وهو صِرتُما صديقين، إيه؟ حسن! بلنكا تشكرك.

– لا شيء.

– ذات يوم تأتي بلنكا تشكرك بنفسها، لكن ليس اليوم؛ ما زالتْ — تعرف — بنت أبيها. ما يتعود أن يفهمه، ثمة معسكَران في عائلة يوكتش، معسكر الأب ومعسكر الأم، وكله على حسابك، بول ريمنت. بسبب عاطفة أطلقْتَ لها العنان، بسبب عاطفة وليدة تجاه سيدتك الشريفة، كنْتَ أحمق لدرجة أن تعلنها.

– هكذا! لديك زائرة جديدة!

للحظة لا يفهم ما ترمي إليه، ثم يعرف ما تنشدُّ إليه لتفحصه، الجورب النايلون الذي استخدمتْه مسز كُسْتِلُّو لتغميه، الجورب الذي ربطه لسبب ما حول قاعدة لمبة بجوار السرير ونسيه.

تُقرِّب ماريانا الجورب برقة من أنفها، تقول: نكهة الليمون، رائع جدًّا! صديقتك تحب الليمون، إيه؟ في كرواتيا، تعرف، نلقي بزهور الليمون على المرأة والرجل أثناء زواجهما في الكنيسة؛ عادة قديمة، ليس الأرز، زهور الليمون، ليرزقا بعدد وافر من الأطفال.

دعابة ماريانا، لا خبث فيها. كان عليه أن يتكيف، إذا طمح أن يكون ذات يوم عريسها الروحي، مع تساقط زهرات الليمون عليه.

يقول: الأمر ليس كما يبدو، لن أقدم تفسيرًا، تَقبَّلي فقط ما أقوله لكِ، الأمر ليس كما تظنين.

تُمسِك ماريانا الجورب بطول الذراع وتتركه بتباهٍ يسقط على الأرض: هل تريد أن تعرف ماذا أظن؟ لا أظن شيئًا، لا شيء.

يسود الصمت. يقول لنفسه: الآن يعرف كل منا، ماريانا وأنا، الآخَر معرفة جيدة حقًّا، بما يسمح بأن يكون لنا نزوة صغيرة.

تقول ماريانا: حسن! الآن أفحَص ساقَك وأغسلك ثم نقوم بتدريبنا كالمعتاد، نتَخلَّف عن تدريبنا، إيه؟ ربما لا تتدرب بصورة جيدة وأنت وحدك، هل أنت متأكد من أنك لا تريد برسْتيز؟

– لا أريد ساقًا صناعية، لا الآن ولا في أي وقت آخر، الموضوع مغلق، لا تَتحدَّثي عنه من فضلكِ.

تغادر ماريانا الغرفة. تواصل ليوبا التحديق فيه بنظرة هائلة من عين داكنة يزداد شعوره أكثر وأكثر بأنها مخيفة. يقول: أهلًا ليوبا. ليوبكا.

يبدو التحبب غريبًا في فمه، وقاحة. الطفلة لا ترد.

تعود ماريانا ومعها إناء كبير للغسيل. تقول: وقت خاص من أجل مستر ريمنت. اذهبي وارسمي صورة ماما. تخرج الطفلة، تغلق الباب. تخلع صندلها. يلاحظ، لأول مرة، أن قدميها عريضتان ومفلطحتان؛ أصابع قدميها مصبوغة بأحمر غامق مدهش، أرجواني تقريبًا، لون كَدْمة ملتهبة.

تقول: تحتاج إلى مساعَدة؟

يهز رأسه، يخلع بنطلونه. تقول: استلقِ. تَفرِد فوطة على وسطه، ترفع البَتْر على طرف ثوبها، تفك الضمادة برشاقة، تربِّتُ على الشيء العاري تربيت قبول. ولا برسثيز، إيه؟ هل تعتقد أن ساقك تكبر مرة أخرى، مستر ريمنت؟ هذا ما يعتقده الأطفال فقط. ما تقطعه يكبر مرة أخرى.

– ماريانا، تَوقَّفي من فضلكِ. تكلمنا في هذا من قبل. لا أريد أن أتكلم.

– نعم، نعم، لن أتحدث ثانية عن البرسثيز. تمكث في البيت، تزورك صديقاتك، هذا أفضل. تتحسس الندبة بإبهامها. أَبْسَط. لا ألم؟ لا رغبة في الحك؟

يهز رأسه.

تقول: حَسن؛ وتبدأ في غسل البتر بالصابون.

يتبخر مزاجه السيِّئ كنَدَى الصباح. يفكر بينه وبين نفسه، أي شيء؛ يجب أن أعطي؟ أي شيء لـ... يعتقد وهو يفكر بهذا الحماس باستحالة ألا يتصل بماريانا. لكن وجه ماريانا لا تبدو عليه انفعالات. يفكر مع نفسه: مُتيَّم، أنا مُتيَّم بهذه المرأة! رغم كل شيء! وأيضًا: تضعني في قبضة يدها!

تنتهي من غسل البتر، تجففه، تبدأ التدليك الأول، بعد التدليك الأول تأتي تمرينات المد. بعد تمرينات المد يأتي التدليك الثاني والأخير.

ليستمرَّ هذا إلى الأبد!

لا بد أنها تعودت على ذلك، لا بد أن كل المرضات تَعوَّدْن على ذلك، يُستثار الرجال الذين في رعايتهن جسديًّا. ولا بد أن ذلك هو السبب في أنها سريعة، عملية، وتتجنب مواجهة عينه. ربما تعلَّمْن أن يَتصرَّفْن مع استثارة الذكور بهذه الطريقة. يحدث أحيانًا أن ... من المهم أن تَفهمْن أن ... مثل هذه النزعات لا إرادية وهي تُربِك المريض بقدر ما تُربِك المرضة ... من الأفضل أن ... لحظات حيَّة في محاضرة مُملَّة.

قال أوجستين: قبل الهبوط كانت الروح، التي هي جزء من جوهر الرب، تسيطر على كل نزعات الجسد. وإن وجدنا أنفسنا اليوم تحت رحمة نزعات نزوات أعضاء الجسد، فذلك نتيجة لطبيعة هبطت، هبطت بعيدًا عن الرب. لكن هل كان أوجستين المبارك على صواب؟ هل نزعات أعضاء جسده مجرد نزوات؟ هل تبدو كلها واحدة بالنسبة له؟ حركة واحدة: تورم الروح، تورم القلب، تورم الرغبة، لا يمكن أن يتخيل أنه يحب الرب أكثر مما يحب ماريانا في هذه اللحظة.

لا ترتدي ماريانا زيها الأزرق، مما يعني أنها لا تعتبر اليوم من أيام العمل، أو على الأقل لم تكن تعتبره كذلك حين تركَتِ البيت، ترتدي بدلًا منه فستانًا أخضر زيتونيًّا بحزام

أسود وفتحة صغيرة على الجانب الأيسر تكشف الركبة وومضة من الفخذ، ذراعاها البنيتان مكشوفتان، ساقاها البنيتان ناعمتان، يفكر مرة أخرى، أي شيء؟ يجب أن أعطي أي شيء! وبطريقة أخرى هذا أي شيء! وقبوله للثوب الأخضر الزيتوني، الذي يراه فاتنًا فتنة لا تُقاوَم، لا تختلف عن حبه للرب، الذي، إن لم يكن موجودًا، فهو على الأقل يملأ ما كان يمكن أن يكون فجوة واسعة تفترس كل شيء.

تضغط على البتر إلى الخلف؛ يُفترَض أن يضغط إلى الأمام بقدر مساوٍ. باختصار وصلًا معًا إلى الوضع: تقبض على الفخذ المبتور بيديها الاثنتين، وتميل بوزنها في اتجاهه، ويَقبض على حافَّة السرير ويقاوِم. يفكر: يا لها من بعيدة! يا لها من قريبة بعيدة! الصدر على الصدر كما ينبغي، يدفعان نَفْسَيهما الهابطتين في بعضهما. إذا سمع واين بلايت بهذا، فماذا يقول؟! لأنه بدون واين بلايت ما كان ليلتقي أبدًا بماريانا، وبدون واين بلايت ما كان له أن يعرف هذا الضغط، هذا الحب، هذا الإلحاح. فِلِكس، فِلِكس. فِلِكس لَبْسوس. كل شيء إلى الأفضل، رغم كل شيء.

تقول ماريانا: حسن، استرخِ الآن. رائع! الآن إلى الأمام.

ترفع ثوبها وتفرشخ حوله. في الراديو الذي نام على صوته في البداية ولم يغلقه، يتحدث رجل عن صناعة السيارات الكورية، أرقام تصعد، أرقام تهبط.

تنزلق يدَا ماريانا تحت قميصه، يعثر إبهاماها على جزء مؤلم في أعلى «الورك» وتبدأ تدليكه بلطف. يفكر: أحمدك، يا رب، وأحمدك يا رب؛ لأن كُسْتِلُّو المرأة ليست هنا لترى وتعلِّق.

– ستو تو راديس، ماما؟

يفتح عينيه فجأة. ليوبا على بعد ذراع تُحدِّق فيه مباشرة. لا خطأ في حدة البحلقة. هنا هو، عجوز بشع مشعر شبه عارٍ ولا شك أن رائحته كريهة في منخاريها الملائكيين، يصارع أمها، وهُما الاثنان في وضع لا يتسم حتى بالعظمة البغيضة للمضاجَعة الجنسية.

للحظة، حين تكلَّمَت الطفلة، يشعر بماريانا تتجمَّد، تعود الآن إلى إيقاع التدليك مرة أخرى. تقول: مستر ريمنت يتألم. تَذكَّري أن ماما ممرِّضة؟

يقول متعجِّلًا تغطية نفسه: يكفي هذا اليوم، ماريانا. شكرًا.

تقفز ماريانا من فوق السرير، تنتعل صندلها، تأخذ ليوبا من يدها. تقول: لا تمصِّي إصبعك؛ هذا بشع. حسن، مستر ريمنت، أتمنى أن يكون الألم قد تلاشى الآن.

٢٥

إنه السبت. اختلت ماريانا بدراجو في غرفة المكتب؛ بينهما ما يشبه المُشاجَرة. صوتها سريع وملحٌّ، يرتفع من وقت إلى آخر فوق صوت ابنها، ثم تخفضه.

ليوبا على السلم، تقفز السلالم صعودًا وهبوطًا، مُحدِثة صخبًا.

يناديها: ليوبا! تعالَي لأعطيك بعض الزبادي!

تتجاهَلُه الطفلة.

تخرج ماريانا من غرفة المكتب. هل يمكن أن أترك ليوبا هنا، تبقى مع دراجو؟ لا مشكلة. أعود فيما بعدُ لآخذها.

كان يأمل أن يتلقَّى من ماريانا بعضًا مما يدفع لها مقابله، ولو جلسة أخرى من رعاية الجسد؛ آلة صغيرة في البنك تُحوِّل فلوسًا من حساب ريمنت إلى حساب يوكتش. في مقابل فلوسه، في مقابل المأوى الذي يقدمه في بيته لدراجو، يتلقى ماذا؟ خدمة التسوق، التي تقل باستمرار؛ خدمة مهنية صحية في أوقات متباعِدة. ليست صفقة خاسرة، من منظور ماريانا. ومن ثم، كما تقول كُسْتِلُّو المرأة باستمرار، إذا أراد أن يكون أبًا فمن الأفضل أن تكون أبوة حقيقية، أبوة ليست روحية.

ما تكاد ماريانا تنصرف إلا وتأتي أصوات من بئر السلم وتظهر ليوبا مرة أخرى مع كُسْتِلُّو المرأة تَجرُّ معها شون صديق دراجو، يرتدي شون اليوم تي شيرت واسعًا وشورتًا يصل إلى سمانتيه.

تقول كُسْتِلُّو المرأة: أهلًا، بول. أتمنى ألا يزعجك هبوبنا عليك. عزيزتي ليوبا، أخبري دراجو أن شون هنا.

هو وهي، الاثنان الكبيران، وحدهما للحظة.

تقول كُسْتِلُّو: إنه، صديقنا شون، ليس في فصل دراجو. لكن هكذا تبدو الآلهة والملائكة: تختار أبشع الفانين وتوفق بينهم.

يصمتُ.

تواصل: ثمة حكاية أنوي أن أحكيها، وأظن أنها ستسليك. تعود إلى زمن بعيد، إلى أيام شبابي. كان هناك ولد في شارعنا يشبه دراجو إلى حد كبير. نفس العينين الداكنتين، نفس الرموش الطويلة، نفس النظرات الإنسانية الطيبة وإن لم تكن بالضبط. فُتِنْتُ به. كنتُ في الرابعة عشرة آنذاك، وكان أكبر مني بقليل. كنتُ متعوِّدة على الدعاء في تلك الأيام، كنتُ أقول: «يا رب، دعْه يجود عليَّ بمجرد ابتسامة وسأخلص لك إلى الأبد.»

– ثم؟

– لم يهتم الرب، ولا الولد، لم تُلبَّ أشواقي العذرية. وهكذا، يا للأسف، لم أصبح أبدًا ابنة الرب! آخر ما سمعتُه عن مستر رموش، أنه تزوج وانتقل إلى ساحل الذهب حيث كان يجني أرباحًا كثيرة من العقارات.

– هل هذا كل مضمونها؛ من تحبه الآلهة يموت شابًّا؟

– أخشى. أخشى أن الآلهة لم يَعُد لديها وقت لنا، سواء لِتُحبَّنا من ناحية أو لِتعاقِبَنا من الناحية الأخرى؛ لديهم مشاكل كافية في بيئتهم المغلقة.

– لا وقت حتى من أجل دراجو يوكتش؟ هل هذا مغزى حكايتك؟

– لا وقت حتى من أجل دراجو يوكتش. دراجو حر نفسه.

– مثل بقيتنا.

– مثل بقيتنا، يمكن أن يسترخي، ليس هناك حُكْمٌ مثير مُعلَّق على رأسه؛ يمكن أن يكون بحارًا أو جنديًّا أو سمكريًّا أو ترزيًّا، كما يختار، يمكن حتى أن يدخل مجال العقارات.

هذا أول حوار بينه وبين كُسْتِلُّو المرأة يمكن أن يصفه بالودِّي، وربما حتى باللطيف. يقفان مرة في صف واحد، عجوزان يثرثران عن الشباب.

ربما هذا هو التفسير الحقيقي لهبوط المرأة عليه من حيث لا يدري، ليس لتكتب عنه في كتاب ولكن لتدخله في زمرة المُسنِّين؟ ربما كل العلاقة مع يوكتش، وفي مركزها عاطفته، المهمَلة العقيمة، تجاه مسز يوكتش، ليست في النهاية سوى طقس مُعقَّد للمرور أُرسِلتْ خلاله مسز إليزابيث كُسْتِلُّو لترشده؟ واعتقدَ أن واين بلايت كان الملاك المكلَّف بحالته؛ ولكن ربما يعملون جميعًا معًا، هي وواين ودراجو.

يطل دراجو برأسه من الباب: مستر ريمنت، هل يمكن أن نلقي نظرة أنا وشون على كاميراتك؟

– نعم. لكن بحذر، وأعيداها إلى أغلفتها حين تنتهيان.

تهمهم إليزابيث كُسْتِلُّو: دراجو مهتم بالتصوير الفوتوغرافي؟

– بالكاميرات. لم يرَ أبدًا مثل كاميراتي. لا يعرف إلا الأنواع الإلكترونية الجديدة. هَسِلْبلاد تشبه سفينة شراعية بالنسبة له، أو قاربًا بمجاديف. تحفة. إنه يقضي الساعات أيضًا في تأمل صوري الفوتوغرافية، صور القرن التاسع عشر. اعتقدتُ في البداية أن ذلك غريب، لكن ربما كان خاليًا من الغرابة تمامًا. لا بد أنه يتحسس طريقه وكأنه يود أن يكون له ماضٍ أستراليٌّ، أصل أسترالي، أسلاف أستراليون روحيون. بدل أن يكون مجرد طفل مهاجر اسمه يوكتش.

– هذا ما يقوله لك؟

– لا، لا يحلم بأن يقوله، لكن يمكن أن أخمن، يمكن أن أتعاطف، خبرة المهاجر ليست غريبة عليَّ.

– نعم، بالطبع. أنسى. جنتلمان أنجلو-أدليدي حقيقي لدرجة أني أنسى أنك لست إنجليزيًّا. مستر ريمنت على وزن بيمنت.[١]

– على وزن فريمنت.[٢] تناولتُ ثلاث جرعات من خبرة المهاجر، لا جرعة واحدة؛ ولذا فهي عميقة التأثير. الأولى حين اجتُثِثْتُ وأنا طفل وأُحضِرْتُ إلى أستراليا؛ ثم حين أعلنتُ استقلالي وعدْتُ إلى فرنسا؛ ثم حين غادرتُ فرنسا وعدْتُ إلى أستراليا. تساءلْتُ مع كل انتقال. هل هذا وطني الحقيقي؟

– عدْتَ إلى فرنسا؟ نسيتُ ذلك. لا بد أن تحكي لي ذات يوم عن تلك الفترة من حياتك. ولكن ما إجابة سؤالك؟ هل هذا وطنك الحقيقي؟ تحرك يدها في إشارة لا تتجاوز الغرفة التي يجلسان فيها بل المدينة أيضًا، ووراء ذلك هضاب القارة وجبالها وصحاريها.

يهز كتفيه. وجدتُ دائمًا أن مفهوم الوطن مفهوم إنجليزي خالص. يقول الإنجليز: الصحة والوطن. الوطن بالنسبة لهم هو المكان الذي تشتعل فيه النار في المدفأة، حيث تأتي لتتدفأ. المكان الذي لن تغادره في البرد. لا، لا أشعر بالدفء هنا. يحرك يده في إشارة

---

[١] Payment: كلمة إنجليزية بمعنى دفْع.

[٢] Vraiment: كلمة فرنسية بمعنى حقًّا أو صدقًا.

تشبه إشارة يدها، تحاكيها بطريقة ساخرة. أشعر بالبرد حيثما ذهبتُ. أليس هذا ما قلْتِه عني: أنت رجل بارد؟

تصمتُ المرأة.

– عند الفرنسيين، كما تعرفين، لا يوجد وطن. أن نكون في الوطن عند الفرنسيين يعني أن نكون معًا، مع نوعنا. لستُ في وطني في فرنسا. لا بوضوح، لا أنضوي تحت أي نحن.

إنها خلوة دخلها، مع كُسْتِلُّو المرأة، للنواح على مشاكله الكثيرة، وهي خلوة تُمْرِضه بشدة. لا أنضوي تحت أي نحن، كيف تستطيع أن تنتزع منه مثل تلك الكلمات؟ سقطتْ إيماءة هنا، وسقط اقتراح هناك، وهو ينساق كالحَمَل.

– وماريانا؟ ألا تود أن تنضوي تحت نحن ماريانا ودراجو؟ وليوبا؟ وبلنكا، التي لم تقع عينك عليها حتى الآن؟

– تلك مسألة أخرى، يسكت فجأة. ولن ينساق أكثر من ذلك.

تمر الظهيرة، ولا تظهر ماريانا. علق دراجو دمية على ظهر أخته الصغيرة بشريط مطاطي؛ تهرول من غرفة إلى غرفة، فاردة ذراعيها، ومصدرة أزيزًا يشبه أزيز الطائرة. انهمك شون في لعبة إلكترونية. يجلس الولدان أمام شاشة التلفزيون التي ينبعث منها هتافات منخفضة وطنين.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: تعرف، ليس علينا أن نتحمل هذا. هؤلاء الشبان ليسوا في حاجة لرعاية أحد. علينا أن نخرج بهدوء ونعود إلى المنتزه. يمكن أن نجلس في الظل ونستمع إلى تغريد الطيور، يمكن أن نعتبرها نزهة عطلة الأسبوع، مغامرتنا الصغيرة.

إنه مستعد لتقبُّل يد المساعدة من ماريانا، وهي رغم كل شيء ممرضة تتقاضى أجرًا، لكنه ليس مستعدًّا لتقبلها من امرأة تكبره. تسبقه كُسْتِلُّو وتنتظر في المدخل بينما هو يناوش الدرج بعكازيه.

أثناء النزول يلتقي بإحدى جيرانه، فتاة نحيلة بنظارة من سنغافورة، هي وأختاها يشبهن الفئران، يشغلن الشقة التي فوق شقته. يومئ لها؛ لا ترد التحية. لم تشعر الفتيات بوجوده طوال إقامتهن في ممر كنستون. كل واحدة تعتمد على نفسها. لا بد أن هذا ما تعلمنه في جزيرتهم. الاعتماد على الذات.

وجد هو وكُسْتِلُّو أريكة خالية، ثمة كلب يهرول، ينظر إليه نظرة مرحة خاطفة، ثم ينتقل إليها. يحتار دائمًا حين يدفع كلب أنفه في انفراجة ساقي امرأة. هل هذا تذكير

بالجنس، جنس كلبي، أم مجرد تشمم للروائح الجديدة المعقدة؟ فكَّر دائمًا في كُسْتِلُّو باعتبارها كائنًا لا جنسيًّا، لكن ربما يعرف الكلب أفضل، وقد وضع ثقته في أنفه.

تتحمل إليزابيث الفحص بشكل جيد، تاركة الكلب يشق طريقه معها، ثم تدفعه بعيدًا بلطف.

تقول: هكذا. كنْتَ تقول لي.

– ماذا كنْتُ أقول لك؟

– كنْتَ تحكي قصة حياتك، تحكي عن فرنسا، كنتُ ذات يوم زوجة لفرنسي. هل أخبرْتُكَ؟ زوجي الأول. أيام لا تُنسى. تركني، في النهاية، من أجل امرأة أخرى، تركني ومعي طفل على يدي. كنْتُ، في رأيه، متقلبة. حية سامة،[٣] مصطلح آخر من المصطلحات التي وصفني بها، وهو بالإنجليزية أفعى أكثر منها حية سامة. حية سامة مدنسة،[٤] تلك كانت كلماته. لم يعرف مكانه أبدًا معي. الفرنسيون أعظم من أن يخضعوا للنظام، أعظم من أن يعرفوا مكانهم معك. لكن هذا يكفي، كنا نتحدث عنك.

– اعتقدتُ أنك اعتقدتِ أن الفرنسيين أعظم من أن يخضعوا للعاطفة. للعاطفة وليس النظام.

تنظر إليه في تأمل. العاطفة والنظام، بول. الاثنان، لا أحدهما. لكن واصلْ قصة حبك في فرنسا.

– ليست قصة طويلة. في المدرسة كنتُ شاطرًا في العلوم، لم أكن متفوقًا، لم أكن متفوقًا في شيء، مجرد شاطر؛ ولذا اخترْتُ العلوم حين التحقْتُ بالجامعة، بدت العلوم الرهان الرابح في تلك الأيام، بدا أنها تَعِد بالأمان، وهذا ما تريده أمي لي ولأختي في المقام الأول، أن نجد محرابًا آمنًا في هذه الأرض الغريبة حيث كان الرجل الذي تبعته، يعرف الرب لماذا، ينكمش أكثر وأكثر في نفسه، ولم تكن لنا عائلة نعوِّل عليها، وكانت تتخبط في اللغة ولا تتمكن من عمل شيء. التحقتْ أختي بالتعليم، وهو من طرق الأمان، والتحقْتُ بالعلوم.

– لكن أمي رحلت، وبدا لي أنه لم تعد بي حاجة لارتداء السترة البيضاء والتحديق في أنبوبة الاختبار؛ تركتُ الجامعة واشتريتُ تذكرة إلى أوروبا، أقمْتُ في تولوز مع جدتي

---

[٣] بالفرنسية في الأصل.

[٤] بالفرنسية في الأصل.

وعملتُ في معمل تصوير، وبدأت مسيرتي في التصوير الفوتوغرافي. لكن ألا تعرفين كل هذا؟ اعتقدْتُ أنك تعرفين كل ما يتعلق بي.

– هذه معلومات جديدة بول، أَعِدُكَ. أتيتَ إليَّ بدون تاريخ. رجل بساقٍ واحدة وعاطفة تعيسة تجاه ممرضة، هذا كل شيء. حياتك السابقة أرض بكر.

– أقمتُ مع جدتي وقدمتُ اقتراحات، بقدر ما استطعْتُ، إلى عائلة أمي؛ لأن العائلة في فرنسا التي أتينا منها، ريف فرنسا، هي كل شيء، قد يكون أبناء عمومتي ميكانيكي سيارات ومُساعِدِين في محلات ومُشرِفِين في محطات، لكنهم ما زالوا فلاحين في أعماقهم، على بُعد جيل واحد من الخبز الأسود وروث البقر. أتكلم عن ستينيات القرن العشرين بالطبع، عن عصر انقضى، الوضع مختلف الآن؛ تغير كل شيء.

– ثمَّ؟

– لم أنجح، أو لنقلْ لم أوفَّقْ. افتقدتُ الكثير جدًّا مما يمكن أن يكون تكويني، ليس فقط التعليم الفرنسي الحقيقي لكن الشباب الفرنسي أيضًا، بما في ذلك صداقات الشباب، التي كانت في قوة الحب وطويلة. كان أبناء عمومتي ومن قابلتهم عن طريقهم، أناسًا في سني، استقروا في حياتهم، حتى قبل أن يتركوا المدرسة كان يعرفون المهنة[٥] التي سيلتحقون بها، الولد أو البنت التي سيتزوجونها، والمكان الذي سيعيشون فيه. لم يستطيعوا أن يتفهموا ما كنت أفعله هناك، هذا الشخص المسافر الذي يتكلم بلهجة مضحكة ونظرته مربكة، ولم أكن أستطيع أن أخبرهم؛ لأني لم أكن أعرف. كنتُ دائمًا الشخص الشاذ، الغريب الذي يجلس في الركن في اجتماعات العائلة. كانوا يسموننني فيما بينهم الإنجليزي.[٦] صُدمْتُ حين سمعت ذلك أول مرة؛ لأنه لا يوجد أي ارتباط لي بإنجلترا، ولم أزرها أبدًا. لكن أستراليا خارج مجال إدراكهم. كان الأستراليون في عيونهم إنجليزًا ببساطة، المعاطف الواقية من المطر، الكرنب المسلوق وغيرها، وقد أعيد غرسها في آخر الأرض، يحفرون حياتهم بين الكنجارو.[٧]

كان لي صديق، روجر، يحضر طلبات للاستوديو الذي أعمل به. كنا أيام السبت نحزم حقائبنا وننطلق بعد الظهيرة إلى سان-جيرو أو تَرَسكو؛ أو أعمق إلى البرانس أو

---

[٥] بالفرنسية في الأصل.

[٦] بالفرنسية في الأصل.

[٧] بالفرنسية في الأصل.

بعيدًا إلى أوست أو أولوس-لي-بيه. نأكل في المقاهي، نقضي الليالي في الهواء الطلق، نقود الدراجات طوال اليوم، ونعود في وقت متأخر من يوم الأحد مُرهقين ومُفعمين بالحياة، لم يكن هناك أبدًا ما يقوله أحدنا للآخر، أنا وهو، إلا أنه يبدو لي الآن أفضل صديق عرفته، أفضل صاحب.[٨]

– كان ذلك قبل قصة الحب الفرنسية وقد أقلعت السيارة كما ينبغي. كانت الطرق أروق، ولم يكن الوصول إلى الريف على دراجة غريبًا.

– ثم تعرفتُ على فتاة، وفجأة بدأتُ أستخدم العطلات الأسبوعية استخدامات أخرى. كانت من المغرب، وهذا في الحقيقة سبب الانفصال، كانت أول عاطفة غير ملائمة، كان من الممكن أن أتزوجها إلا أن أُسرتها جعلتْ زواجي منها مستحيلًا.

– يصيبك سهم العاطفة البرَّاق! ومع سيدة غريبة أيضًا! مادة تصلح لكتاب في حد ذاتها! يا لكَ من رائع! يا لكَ من مُتهوِّر! تذهلني، بول.

– لا تَسخري، كانت علاقة لائقة وجديرة بالاحترام تمامًا، كانت تدرس لتكون أمينة مكتبة، حتى استُدْعِيتْ إلى الوطن.

– ثم؟

– هذا كل شيء، استدعاها والدها، أطاعت، وانتهت العلاقة. بقيتُ في تولوز ستة أشهر أخرى، ثم غادرْتُها.

– أتيتَ إلى الوطن.

– الوطن ... ماذا يعني؟ حدَّثتُكِ عن فكرتي عن الوطن. للحمامة وطن، وللنحلة وطن. وربما للإنجليزي وطن. لي مسكن، لي مأوى. هذا مأواي، هذه الشقة، هذه المدينة، هذا البلد، الوطن مفهوم روحي لا أدركه.

– لكنكَ أسترالي، لسْتَ فرنسيًّا، حتى أنا يمكن أن أرى ذلك.

– يمكن أن أمرَّ بين الأستراليين، لا يمكن أن أمرَّ بين الفرنسيين، هذا هو كل ما هناك، فيما يتعلق بي، بالنسبة لمسألة الهوية والجنسية؛ حيث يمر المرء وحيث لا يمر، أو على العكس يقف المرء خارجه، مثل إبهام مؤلم، كما يقول الإنجليز؛ أو مثل صبغة، كما يقول الفرنسيون، صبغة على مفارش نظيفة. فيما يتعلق باللغة، لم تكن الإنجليزية لغتي أبدًا، مثلما هي لغتك. الأمر لا علاقة له بالحديث بطلاقة، أتحدَّث بطلاقة تامة كما تسمعين، لكن

[٨] بالفرنسية في الأصل.

الإنجليزية أتت إليَّ متأخرة جدًّا؛ لم تأت مع حليب أمي، في الحقيقة لم تأتِ على الإطلاق. بشكل شخصي أشعر دائمًا أني أخرس يتكلم من بطنه، لستُ أنا الذي ينطق اللغة لكن اللغة تُنطَق من خلالي، لا تأتي من الأعماق، من قلبي.[٩] يتردد، يراجع نفسه، كان على وشك أن يقول: أنا مجوَّف في الأعماق، مثلما أنا متأكِّد من أنكِ تسمعين، لكنه، بدلًا من ذلك، يقول: لا تحاولي أن تعولي على هذه المحادَثة بأكثر مما تَتحمَّل، إليزابيث! لا أهمية لها، مجرد سيرة ذاتية مفككة.

– لكنها مُهمَّة، بول، مهمة حقًّا! تعرف هناك ما أطلق عليهم الأرضيين؛ أولئك الذين يقفون وأقدامهم مغروسة في الأرض التي وُلِدوا فيها؛ وهناك الفراشات، مخلوقات الضوء والهواء، سكان مؤقَّتون، يحطون هنا وهناك. تزعم أنك فراشة، تريد أن تكون فراشة؛ وذات يوم تقع، وقعة مفجعة، تُصدَم وتسقط على الأرض؛ وحين تلتقط أنفاسك تجد أنك لم تَعُد تستطيع الطيران مثل كائن أثيري، ولا تستطيع المشي، لسْتَ سوى كتلة من اللحم الجامد، إنه بالتأكيد درس واضح، درس لا يمكن أن تغمض عينيك وتصم أذنيك أمامه.

– حقًّا. درس، درس قاسٍ، يبدو لي، مسز كُسْتِلُّو، يمكن للمرء أن يستخلص درسًا من أكثر الأحداث عشوائية. هل تحاولين أن تُفهِميني أن الرب كان في عقله خُطة ما حين صدَمني على طريق مَجيل وحوَّلني إلى أعرج؟ ماذا عنكِ؟ أخبرْتِني بأنكِ تعانين من حالة في القلب. فسِّري لي حالة قلبك. ما الدرس الذي كان في عقل الرب حين صدمك في القلب؟

– صحيح، بول، أعاني من حالة في القلب، لم أكذب، لكني لا أعاني من ذلك وحدي، أنت الآخَر تُعاني من حالة في القلب، ألا تعرف ذلك حقًّا؟ حين أتيْتُ طارقةً بابك، لم آتِ لأكتشف كيف يقود رجل درَّاجة بساقٍ واحدة. أتيتُ لأكتشف ماذا يحدث حين يُعامِل رجل في الستين قلبه بصورة غير ملائمة. وإذا كنتَ لا تبالي بقولي هذا، فما كنْتَ لتجلس خائب الأمل بهذه الصورة.

يهز كتفه: لم أُوضَعْ على هذه الأرض لأسليكِ، إذا أردْتِ التسلية — يطوح يده باتجاه أناس يَجرُون، وأناس يركبون دراجات، وأناس طيبين يَتمشَّوْن مع كلابهم — لديكِ مَجال واسع يمكن أن تستكشفيه. لماذا تُضيِّعين وقتكِ مع شخص يستثيرك ببلادته ويصيبك بالإحباط؟ تَخلَّي عني كما يتخلى المرء عن وظيفة سيئة. اهبطي على شخص آخر.

[٩] بالفرنسية في الأصل.

تلتفِتُ وتبتسم له ابتسامة تخلو — بقدر ما يرى — من الخبث. تقول: قد أكون متقلِّبة يا بول، لكنني لستُ متقلِّبة إلى هذه الدرجة. متقلِّبة مثل عنزة، تقفز من صخرة إلى أخرى. أنا أكبر من أن أقفز، أنت صخرتي، سأبقى معك، في الوقت الحالي. كما قلتُ لك — تتذكَّر؟ الحب ثبات.

يهز كتفه مرة أخرى: الحب ثبات. يمكن للمرء أن يقول بِسادِيَّة إن الحب صاعقة تصيب من تشاء. لو كان طفلًا جاهلًا حين تصادفه أوجاع الحب، لما رأى أن كُسْتِلُّو المرأة في حالة طيبة. لكنه لن يناقشها، إنه مُرهَق من المناقشة.

إنه عطشان أيضًا، كوب من الشاي كافٍ لإطفاء عطشه، يمكن أن يَعبُرَا الجسر إلى غرفة الشاي على الضفة الأخرى، يمكن أن يَعودَا إلى الشقة بصخبها وفوضاها، أو يمكن أن يَنسيَا الشاي ويواصِلا إضاعة الوقت هنا على شاطئ النهر، حتى يأتي المساء، ويشاهدا طيور الماء تلهو مع نفسها. أَيُّهما؟

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: حدِّثْني عن زواجكَ. لم تذكر زوجتك أبدًا.

يقول: لا أظن، لا يمكن أن يكون الأمر حقيقًا. ما كانت زوجتي تشكرني لمعاملتي إياها كشخصية ثانوية في أعمالك الأدبية، لكن إن أردْتِ قصصًا، فسأحكي لك قصة من فترة زواجي لكنها لا تتعلق بزوجتي، يمكن أن تستخدميها، ويمكن ألا تستخدميها، لرسم شخصيتي إن شئْتِ.

– حسن. انطلقْ.

– تدور أحداث القصة حين كنتُ أدير الاستوديو في أُنلي. كانت لي مساعدتان، وقد وقعتْ إحداهما في حبي، وإذا تَوخَّيت الدقة، لم يكن حبًّا بل عبادة. لم تكن تدبِّر لي خططًا؛ ولذا كانت صريحة تمامًا بشأن هذا الحب، فتاة على قدر كبير من الذكاء، جميلة أيضًا. فتاة في العشرين ناضرة الوجه، جميلة، جسمها ممشوق وقوي، مثل جسم لاعبة الرجبي. لم يكن لها في الأمر حيلة، ما كان هناك غذاء لينقذها، فتحولتْ إلى كائن خرافي يعيش في السماء.

– كنْتُ ألقي دروسًا مسائية آنذاك، عن تعدد التقنيات، مبادئ التصوير الفوتوغرافي. كانت هذه الفتاة تأتي إلى الفصل ثلاث مرات أسبوعيًّا، تجلس في الصف الخلفي تحدِّق فيَّ، ولا تكتب شيئًا.

– قلتُ لها: «إيلين، ألا تعتقدين أن الأمر تجاوز الحدود؟» ردَّتْ: «إنها فرصتي الوحيدة.» بلا خجل، لم تخجل أبدًا. «فرصتك الوحيدة لماذا؟» «لأكون وحيدة معك.» هكذا كانت تعرِّف وحدتها معي: أن تجلس في الفصل بِحرِّية تشاهد وتستمع.

– اتبعتُ قاعدة: لا تتورطْ أبدًا مع من يَعمَلْن معك. لكن قدمي زلَّتْ في هذه الحالة، كسرْتُ القاعدة؛ تركتُ ورقة فيها الزمان والمكان، ليس إلا. جاءت، وأخذْتُها إلى السرير.

– ربما تتوقعين أن أصفها بالتجربة المُهينة لها وبالتالي لي، لكنها لم تكن مُهينة على الإطلاق، بل وصلتْ إلى حد يمكن معه أن تُوصَف بالممتعة. تعلمتُ درسًا من هذه التجربة، لا يحتاج الحب إلى أن يكون متبادَلًا ما دام منه ما يكفي في الغرفة. كان لدى هذه الفتاة من الحب ما يكفي اثنين، لكن هل عرفْتِ ذلك أيتها الكاتبة، خبيرة القلوب؟ إذا أحببْتِ بعمق كافٍ، فلن تكون هناك ضرورة لأن يبادِلَك الطرف الآخر الحب.

كُسْتِلُّو المرأة صامتة.

– شكرتْني، نامت بين ذراعَيَّ لاهثة تبكي «شكرًا! شكرًا! شكرًا!» قلت: «الأمر على ما يرام. لا حاجة بأحد منا إلى أن يشكر الآخر.»

– في اليوم التالي كانت هناك ورقة على مكتبي: «وقتما تحتاجني ...» لكني لم أدْعُها مرة أخرى، لم أحاول تكرار التجربة، كانت مرة واحدة كافية لاستيعاب الدرس.

– عملتْ معي عامين آخرَين، محتفظة بمسافة مناسبة بيننا؛ لأنه كان يبدو لها أن هذا هو ما أريده. لا دموع، لا تأنيب، ثم اختفتْ بلا كلمة، توقفَتْ عن المجيء إلى العمل. تحدثتُ إلى زميلتها، مساعدتي الأخرى، لكنها كانت في جهل تام من أمرها. اتصلتُ بأمها، قالت الأم: ألا تعرف؟ حصلتْ إيلين على وظيفة جديدة وانتقلت إلى برِسبان مندوبة لشركة أدوية. ألم تترك كلمة؟ قلتُ، لا، هذه أول مرة أسمع بذلك، قالت الأم: أوه، قالت لنا: إنها أخبرتك وأنك تمزقتَ حزنًا.

– ثمَّ؟

– هذا كل شيء، انتهت القصة، تمزقتُ حزنًا. بجانب الدرس، شدني هذا الجزء أكثر من غيره؛ لأني لم أتمزق، إطلاقًا، هل اعتقدَت الفتاة أنني سأتمزق حقًّا؛ لأنها تركتْ وظيفتها معي؟ أم أن قصة تَمزُّق رئيسها حزنًا لم تكن إلا شيئًا قالته لأمها لكي لا تبدو في وضع مُهين؟

– هل تطلب رأيي؟ لا أعرف الإجابة، بول. ربما تجد ادعاءها بأنك، رئيسها، تمزقتَ حزنًا، أمرًا شيقًا، لكني لا أراه شيقًا، ما أراه شيقًا هو شكرًا! شكرًا! هو شكرًا! شكرًا! ماذا تنوي أن تقول لماريانا حين تَستسلِم لك، إن استسلمتْ؟ لماذا لم تقل شكرًا، شكرًا! للفتاة التي قدَّمْتُها لك، الفتاة التي انجذبتَ إليها؛ لأنها لا تستطيع أن تراك في حالتك المختزلة الحزينة؟

– لم أنجذبْ إليها، أنتِ التي أتيتِ بها.

– هراء، أخذتُ الكلمة منكَ، انجذبتَ إليها في مصعد المستشفى. حلمْتَ بها. أكرر، لماذا لم تشكرها؟ لأنك دفعْتَ لها، وهل حين تدفع لا تحتاج إلى أن تشكر؟ كان لدى لاعبة الرجبي من الحب ما يكفي اثنين، كما تقول. هل تعتقد أنه يمكن قياس الحب؟ هل تعتقد أن الحب يأتي بالحجم كالبيرة؟ إذا أتيتَ منه بصندوق، يمكن للطرف الآخر أن يأتي خاوي اليدين، خاوي اليدين، خاوي القلب؟ شكرًا ماريانا (ماريانا بنون مخففة هذه المرة)؛ لأنكِ تركْتِني أحبكِ. شكرًا لأنكِ تركْتِني أحب أبناءكِ. شكرًا لأنك تركْتِني أُقدِّم لك فلوسي. هل أنت بكل هذا الغباء؟

يتخشب: طلبتِ مني قصة، حكيتُ لك قصة. آسف لأنها لم تعجبك. تقولين إنك تريدين أن تسمعي قصصًا، أحكي لك قصصًا، ولا أجني إلا السخرية والاستهزاء. أية مقايضة هذه؟

– أي نوع من الحب؟ ربما أضفْتَ. لم أقل إن قصتك لم تعجبني، أرى قصتك أنت ولاعبة الرجبي شيقة، قلتُ ذلك أيضًا. حتى التفسير الذي قدَّمتَه شيق في حد ذاته. لكن السؤال الذي يزعجني هو: لماذا يختار هذه القصة، قبل كل شيء، ليحكيها لي؟

– لأنها حقيقية.

– إنها بالطبع حقيقية. لكن ماذا يعني كونها حقيقية؟ من المؤكد أنني لست مكلَّفة بلعب دور الرب، لأفصل النعجة عن الماعز، وأمحو القصص الزائفة، وأصون القصص الحقيقية. إذا كان لي أن أكون نموذجًا، فلن يكون الرب، سيكون راهب سيتو، الشخص سيِّئ السمعة، الرجل الفرنسي، الشخص الذي قال بطريقته الرعوية، اذبحوهم جميعًا، سيعرف الرب أتباعه.

– لا، بول، لا يمكن أن يَقلَّ اهتمامي إن حكيتَ لي قصصًا مختلقة. تَكشِفُنا أكاذيبنا بقدر ما تَكشِفُنا حقائقنا.

تتوقف، تنظر إليه رافعة حاجبيها. هل أتى دوره؟ ليس لديه ما يضيفه. إذا تساوى الحقيقة والكذب، فقد يتساوى أيضًا الكلام والصمت.

تستأنف الحديث: هل تلاحظ، بول، كيف تسير المحادثات بيني وبينك على وتيرة واحدة؟ يسير كل شيء بشكل رائع لحظةً. ثم أنطق بشيء لا تود أن تسمعه، فتصمت أو تغضب أو تطلب مني الانصراف في الحال. ألا يمكن أن تتجاوز هذه التصرفات الهِستيرية؟ لم يَتبقَّ أمامنا، أمام أي منا، مُتسَّع من الوقت.

– ليس كذلك.

– لا. تحت نظرة السماء، في عين الرب الباردة، ليس أمامنا.

– تلك هي الحقيقة. استمري.

– هل تظن أني أرى هذا الوجود أقل صعوبة مما تراه؟ هل تعتقد أني أريد النوم في العراء، تحت أجمة في المنتزه، بين السكارى، والاغتسال في نهر تورنس؟ لسْتَ أعمى. ترى كم أتدهور.

يُحدِّق فيها بقسوة. تُؤلِّفين قصصًا. أنت امرأة محترفة وناجحة، أنتِ ميسورة الحال مثلي، لا حاجة بك للنوم تحت الآجام.

– قد يكون الأمر كذلك، بول. ربما أضخِّم القليل، لكن هذه القصة مناسبة، مناسبة لحالتي. وأنا أحاول التأثير عليك، أيامنا معدودة، أيامي وأيامك، إلا أنني هنا، أقتل الوقت، ويقتلني الوقت، أنتظر، أنتظرك.

يهز رأسه يأسًا. يقول: لا أعرف ما تريدين.

تقول: ادفعْ!

٢٦

على طاولة الردهة ورقة مكتوبة على عجل: بالسلامة مستر ريمنت. تركتُ بعض الأشياء، سآخذها غدًا. شكرًا على كل شيء، دراجو. حاشية: الصور الفوتوغرافية كلها في موضعها.

يتبين أن الأشياء التي يشير دراجو إليها حقيبة نفايات مليئة بالملابس، يضيف إليها زوجًا من السراويل يجده بين مفارش السرير. باستثناء ذلك لا أثر لآل يوكتش، الأم أو الابن. يأتيان، ينصرفان، لا يقدمان تفسيرًا لسلوكهما. تعوَّدَ على ذلك.

لكن يا لها من راحة أن يكون وحده مرة أخرى! أن تعيش مع امرأة شيء؛ شيء مختلف تمامًا عن أن يشارك المرء في بيته شابٌّ مُهمِل لا يراعي شيئًا. التوتر الدائم، القلق الدائم حين يَحتلُّ ذَكران نفس المقاطعة.

يقضي بعد الظهيرة في ترتيب المكتب، واضعًا الأشياء في أماكنها المعتادة؛ ثم يأخذ حمامًا. أثناء الحمام تسقط فجأة قارورة الشامبو. وهو ينحني لالتقاطها، ينزلق إطار زيمر، الذي يأخذه معه دائمًا في المكان الذي يتواجد فيه. يفقد اتزانه فيسقط، وتصطك رأسه في الحائط.

احفظني من الكسور، ذلك أول أدعيته. يحاول أن يحرك ساقيه مستندًا على الإطار. تسري ومضة من الألم الحادِّ من ظهره إلى ساقه السليمة، يأخذ نفَسًا بطيئًا وعميقًا. يقول لنفسه: اهدأْ، زلة قَدَم في الحمام، لا شيء يخيف، يحدث ذلك لكثير من الناس، وقد يكونون جميعًا بخير. وقت طويل حتى تفكر، وقت طويل حتى تعود الأمور إلى طبيعتها.

تعني عودة الأمور إلى طبيعتها (يحاول أن يكون هادئًا وواضحًا)؛ واحدًا: أن يفلت من الإطار؛ اثنين: يخرج من الموضع الذي هو فيه؛ ثم، ثلاثة: يقيِّم ما حدث لظهره؛ وأربعة: يستعد لما يأتي بعد ذلك.

تكمن المشكلة بين واحد واثنين؛ لا يستطيع الإفلات من إطار زيمر بدون أن يجلس منتصبًا، ولا يستطيع الجلوس بدون ألم مبرِّح.

لم يهتم أحد بأن يقول له، ولم يفكر في أن يسأل أحدًا، من هو زيمر الذي يلعب هذا الدور في حياته؛ ليريح نفسه تخيل زيمر رجلًا نحيل الوجه مضموم الشفتين، يرتدي زيًّا بياقة عالية وشريط من ثلاثينيات القرن التاسع عشر. جون أوجست زيمر، ابن لفلاحَيْن نمساويين، عزم على الهروب من الكدح في حقل العائلة، يكدح على ضوء الشمعة فوق كتب التشريح وخلف البيت في «الزريبة» تخور البقرة الحلوب في نومها. بعد أن يشق طريقه في الامتحانات بصعوبة (ليس طالبًا موهوبًا)، يعمل جرَّاحًا في الجيش، يقضي الأعوام العشرين التالية في تضميد الجروح وقطع الأطراف باسم سمو صاحب الجلالة الإمبراطور كارل جوزيف أوجست، الملقب بالطيب. ثم يتقاعد من الخدمة وبعد تنقلات عديدة يهبط في باد شوانِنْسي، أحد المنتجعات المعدنية في بوهيميا، يعالج السيدات المصابات بالتهابات المفاصل. وهناك تنبثق في رأسه فكرة رائعة لتعديل الآلة التي كانت تستخدم في كارنيثيا منذ قرون لتعليم الأطفال المشي بحيث تصلح لمرضاه الذين يعانون من الوهن، واكتسب لنفسه الخلود ببساطة.

هو الآن على الأرضية المفروشة بالمشمَّع، عارٍ، عاجزٌ عن الحركة، واختراع زيمر فوقه يغلق باب المكان، بينما المياه تواصل التدفق والشامبو المنساب من القارورة يرتفع في فقاعات من حوله، والبتر الذي خُبِط في نهايته الملتهبة بدأ يؤلمه ألمًا مميزًا. يفكر، يا لها من ورطة! أَحمَدُ الرَّب أن دراجو لا يشاهد هذا المنظر! أَحمَدُ الرَّب أن كُسْتِلُّو المرأة ليست هنا لتهزأ به!

إلا أن هناك عواقب لعدم وجود دراجو أو كُسْتِلُّو المرأة أو شخص آخر بقربه. إحداها، مع أن المياه الدافئة تتدفق إلا أن ينضح بالبرودة. الحنفيات أبعد من أن يصل إليها. هو حر بالتأكيد في أن ينام هنا طوال الليل بدون أن يتعرض لخطر السخرية؛ لكنه سيكون قرب الفجر قد تجمد حتى الموت.

يستغرق الأمر ثلاثين دقيقة كاملة ليتحرر من السجن الذي وقع فيه. ولما كان عاجزًا عن الوقوف، عاجزًا عن دفع إطار زيمر بعيدًا عن طريقه، يصر على أسنانه ويشد باب المكان إلى الخلف حتى تنخلع المفصلات.

يتلاشى العار في الحال، يزحف على الأرض حتى التليفون، يطلب رقم ماريانا، يسمع صوت طفلة. يقول من بين أسنانه المصطكة: مسز يوكتش، من فضلك. ثم: ماريانا، تعرضتُ لحادثة. أنا بخير لكن هل يمكن أن تأتي الآن؟

– أية حادثة؟

– وقعتُ؛ تعرض ظهري لشيء ما، لا أستطيع الحركة.

– آتي.

يجر ملاءات السرير ويجثم تحتها، ولا يشعر بالدفء، لا يقتصر الأمر على يديه وقدمه، أو على رأسه وأنفه، بل إن بطنه وقلبه غارقان في البرد؛ تزداد حِدَّة التقلص فيتصلب ويرتجف، يتثاءب حتى يصيبه الدوار من التثاؤب. دم عجوز، دم عجوز، تدق الكلمات في مخه، لا توجد حرارة كافية في العروق.

يرى أنه مُعلَّق من كاحليه في غرفة باردة وسط غابة من هياكل السيارات المجمدة، ليس بالنار بل بالثلج.

يغفو إغفاءة خفيفة، وفجأة تنحني ماريانا فوقه، يحاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه المتجمِّدتين، يحاول أن ينطق، يئن: ظهري. بحذر. يحمد الرب؛ لأنه لا يحتاج إلى أن يشرح كيفية حدوث ذلك؛ لا بد أن كيفية حدوث ذلك سيكون واضحًا من الفوضى في الحمَّام ومن خرير الدش البارد.

لا يوجد شاي، لكن ماريانا تصنع له قهوة، وتضع برشامة بين شفتيه، تساعده على الشرب، وبقوة مدهشة ترفع جسده من الأرض إلى السرير. تقول: هل أصابك الذعر، إيه! ربما تتوقف من الآن عن الاستحمام تحت الدش بمفردك.

يومئ مطيعًا، يغلق عينيه. تحت إسعافات هذه المرأة الرائعة والمُمرِّضة البارعة، يشعر بذوبان الثلج داخله، لم تنكسر عظام، لن تُؤنِّبه مسز بوتس، ولن تسخر منه مسز كُسْتِلُّو. وبدلًا من ذلك، حضور لطيف لملاكٍ تتخلى عن كل شيء وتأتي لتساعده.

لا شك أن المستقبل يحمل لمعوَّق عجوز مزيدًا من الحوادث المؤسِفة، مزيدًا من السَّقَطات، مزيدًا من المكالَمات المُخزِية طلبًا للمساعدة، إلا أن ما يحتاج إليه في هذه اللحظة ليس هذا المنظور المحبِط الكئيب بل هذا الحضور البارز، الحضور الأنثوي الرقيق المُواسي. هناك، هناك، اهدأ، انتهى كل شيء، هذا ما يريد أن يسمعه، وأيضًا: سأبقى بجانبك وأنت نائم.

وهكذا ينتابه إحساس طفولي بالأسَى حين تنهض ماريانا وترتدي سترتها بسرعة وتلتقط مفاتيحها. يقول: ألا يمكن أن تبقي بعض الوقت؟ ألا يمكن أن تقضي الليل؟

تجلس مرة أخرى على جانب السرير. تقول: لا شيء إن دخنتُ مرة فقط؟ تشعل سيجارة، تنفث الدخان وتنفخه بعيدًا عنه. «لنا حديث، مستر ريمنت، لإصلاح الأمور. ماذا

تريد مني؟ هل تريد أن أمارس وظيفتي، أعود، أكون ممرضة لك؟ ثم لا تقول تلك الأشياء، من قبيل.» تلوِّح بالسيجارة وتعرف ماذا أقصد.

– يجب ألا أتحدث عن مشاعري نحوك.

– تمر بوقت عصيب، تفقد ساقك وكل ذلك، أفهم. لك مشاعر، مشاعر رجل، أفهم، هذا حسن.

مع أن الألم يبدو أنه يتضاءل، إلا أنه لا يستطيع الجلوس. يقول، وهو مستلقٍ على ظهره: نعم، لي مشاعري.

– لكَ مشاعر، تقول أشياء، هذا طبيعي، هذا حسن. لكن …

متقلِّب. تلك هي الكلمة التي تبحثين عنها. أنا متقلب جدًّا بأكثر مما تتقلبين، كثيرًا جدًّا ما أكون تحت رحمة المشاعر التي تشيرين إليها. أُعبِّر عن قلبي بكثير من الصراحة، أتكلم كثيرًا جدًّا.

– رحمة، ما رحمة المشاعر؟

– لا تبالي؛ أعتقد أني أفهمكِ. تعرضتُ لحادثة واهتزت أعماقي. ترتفع معنوياتي، تنخفض معنوياتي، لم تَعُد تحت سيطرتي؛ لذلك أرتبط بأول امرأة تمر في طريقي، أول امرأة تتعاطف معي. أسقط، اعذريني على الكلمة، في حبها؛ أسقط أيضًا، وبطريقة مختلفة، في حب أبنائها. أنا، الذي لا أطفال له، أريد فجأة أن يكون لي أطفال، وهذا هو السبب في الخلاف الحالي بيننا، بينك وبيني، ويمكن أن يعود هذا كله إلى اقترابي من الموت على طريق مَجيل. هزني طريق مَجيل بقوة حتى إني اليوم أترك مشاعري تتدفق بدون أن أتدبر العواقب. أليس هذا ما تَودِّين قوله؟

تهز كتفها لكنها لا تعارضه. تنغمس بدلًا من ذلك في التدخين بترف، نافثة الدخان، وتتركه يواصل. يتعرف لأول مرة على اللذة الحسية التي يمكن أن توجد في التدخين.

– حسن، أنتِ مخطئة، ماريانا. الأمر ليس كذلك إطلاقًا؛ لستُ مشوشًا، قد أكون متقلِّبًا، لكن التَّقلُّب ليس انحرافًا، ربما يجب أن نكون جميعًا أكثر تقلُّبًا، كل منا. هذا رأيي الجديد المنقَّح. علينا أن نَرُج أنفسنا أكثر. علينا أيضًا أن نتشجع وننظر في المرآة، حتى إذا كنا نكره ما نراه هناك. لا أشير إلى آثار الزمن، أشير إلى المخلوق السجين خلف الزجاج الذي نحرص بشكل طبيعي على أن نتجنب نظرته. انظرْ هذا الكائن الذي يأكل معي، يقضي الليالي معي، يقول «أنا» ويقصدني! إذا رأيتِ أني متقلِّب، ماريانا، ألا يعود ذلك إلى أني عانيتُ من صدمة؛ لأن هذا الغريب الذي يقول «أنا» يُطل من وقت إلى آخر من الزجاج وينطق فيَّ. من خلالي، ينطق الليلة. ينطق الآن. ينطق حبًّا.

يتلعثم. يا له من وابل من الكلمات! كم تختلف عنه! لا بد أن ماريانا مندهشة. هل هناك حقًّا في هذه اللحظة غريب يتحدث عبر مرآة، يسيطر على صوته؟ (لكن أية مرآة؟) أم إن التدفق الحالي ليس سوى نوبة من التقلُّب، إثر الحادثة الأخيرة — خبطة الرأس، الظهر المزوق، البتر المؤلم، الدُّش الثلجي، وهلم جرًّا — يرتفع في حلقه مثل المرارة، مثل القيء؟ وربما كان ذلك ببساطة بتأثير البرشامة التي قدَّمتْها له ماريانا (ماذا يمكن أن تكون هذه البرشامة؟) أو حتى بتأثير القهوة؛ ليس متعودًا على القهوة في المساء.

ينطق حبًّا. ليس متأكدًا، فهو لا يلبَس النظارة، لكن الخجل يبدو زاحفًا من حلْق ماريانا. تقول ماريانا إنها تريده أن يكبح جماح نفسه، لكن هذا هراء، لا يمكن أن تعني ذلك حقًّا. أية امرأة لا تريد وابلًا من كلمات الحب تتدفق عليها من وقت إلى آخر، مَهما تكن مصادرها موضع تساؤل؟ تستحي ماريانا، ولسبب بسيط فهي أيضًا مُتقلِّبة. ومِن ثم؟ ماذا بعد ذلك؟ ولذا فكل هذا مترابط! ووراء هذه الفوضى الظاهرة منطق إلهي يعمل! يخرج واين بلايت فجأة من حيث لا يدري ليسحق ساقه سحقًا، ثم ينهار بعد شهور في الحمَّام، ثم يصبح هذا المَشهد ممكنًا: رجل في الستين مقيد ومتيبس إلى حد ما في السرير، يرتجف من وقت إلى آخر، ينهمر بالفلسفة على ممرضته، ينهمر حبًّا، والدماء تتحرك في عروقها، استجابة!

متهللًا، يفرد يده (تجاهل الألم، من يبالي بالألم!) ويضعها (يلاحظ) ضخمة وشاحبة إلى حد ما وغير جذابة على يد ماريانا، وهي أدفأ وأصغر وأصابعها دقيقة الأطراف مما يدل — في رأيي جَدَّته في تولوز — على مزاج حسِّي.

تترك ماريانا يدها تحت يده لحظة، ثم تتحرر، تطفئ السيجارة، تنهض وتبدأ في غلق أزرار سترتها مرة أخرى.

يقول: ماريانا، لن ألحَّ، لا الآن ولا مستقبلًا.

– نعم؟ ترفع رأسها، وتنظر إليه نظرة ساخرة: لن تلح؟ هل تظن أني لا أعرف شيئًا عن الرجال؟ يلح الرجال دائمًا. أريد، أريد، أريد. بالنسبة لي، أريد أن أقوم بوظيفتي، هذا طلبي. وظيفتي في أستراليا مُمرِّضة.

تتوقف. لم تخاطبْه أبدًا بهذه القوة، بهذا الغضب (كما يبدو له).

– تتصل، حسن أن تتصل، لا بأس، لكن هذا — تطوح بيدها — هذا الحمام ليس من الطوارئ، ليس من الطوارئ الطبية، تقع في الحمام، تتصل بصديق. «أنا مرتاع، تعالي من فضلكِ.» هذا ما قلْتَه. تتناول سيجارة جديدة، تَعدِل عن رأيها، تعيدها إلى العلبة،

تقول: إليزابيث. تتصل بإليزابيث، أو تتصل بأية صديقة أخرى، لا أعرف أصدقاءك. «أنا مُرتاع، من فضلكِ خذني بيدي. ليست طوارئ طبية، فقط من فضلكِ تعالي خذني بيدي.»

– لم أكن مرتاعًا بالضبط، جرحتُ نفسي، لا أستطيع أن أتحرك، يمكن أن تَرَي.

– تقلُّصٌ، تقلُّصٌ ليس إلا، أترك لك برشامًا من أجله. تقلُّصٌ في الظهر ليس من الطوارئ الطبية. تتوقف. أم أنك تريد أكثر؟ ليس فقط خذني بيدي، تريد — كما تقول — الشيء الحقيقي؛ ولذا فعليك أن تنضم لأحد نوادي ذوي القلوب الوحيدة، إذا كان قلبك وحيدًا.

تسحب نفَسًا، وتنظر إليه متأمِّلة: تظن أنك تعرف معنى أن أكون ممرضة، مستر ريمنت؟ كل يوم أمرِّضُ سيدات مُسنَّات، رجالًا مُسنِّين، أنظِّفُهم، أنظِّف أوساخهم، لا أحتاج إلى أن أقول ذلك، أغيِّر الملاءات، أغيِّر الملابس، أسمع باستمرار افعلي هذا، افعلي ذلك، أحضري ذلك، أشعر أني لستُ على ما يرام، أحضري البرشام، أحضري كوب ماء، أحضري كوب شاي، أحضري بطانية، ارفعي البطانية، افتحي النافذة، أَغلِقي النافذة، لا أحب هذا، لا أحب ذلك. أعود إلى البيت مُرهَقة حتى النخاع، يرن التليفون، أي وقت، الصباح، الليل: طارئ، هل يمكن أن تأتي؟

كانت خجولة قبل دقائق، الآن هو الذي يجب أن يخجل. طارئ ... هل يمكن أن تأتي؟ بالطبع، لا تُعَد هذه الحالة، في لغة مُحترِفي الرعاية، من الطوارئ، لا يهلك المرء من البرد في شقة مكيفة الهواء في ممر كنستون، شمال أدليد. كان يعرف ذلك حتى وهو يطلب رقم يوكتش، لكنه طلب الرقم على أية حال. تعالي، أنقذيني! قال عبر الفضاء الأسترالي الجنوبي.

يقول: كنتِ أول من خطر على بالي، خطر اسمُكِ على بالي أولًا، اسمك، وجهك. هل تظنين أن ذلك ليس له اعتبار — أن تكوني الأولى؟

تهز كتفها. يسود الصمتُ بينهما. بالطبع إنها كلمة كبيرة، كلمة تحمل الكثير أن تندفع إلى شخص أولًا، لكن ليست هذه هي الكلمة التي يُتوَقَّف عندها. اسمكِ. خطر اسمك على بالي. خطرْتِ على بالي. كلمات خرجتْ منه بلا تفكير، أتتْ إليه. هل يكون المرء على هذا النحو حين يكون متقلبًا: تأتي الكلمات ليس إلا؟

– فكرْتُ باستمرار، يضغط على الكلمات، التمريض مهنة. اعتقدتُ أن هذا ما يجعلها مرفوضة، قضاء ساعات طويلة مقابل أجر ضئيل بالإضافة إلى الجحود والإهانات، من قبيل ما ذكرْتِ أنك تُلبِّين المكالمات. حسن، حين تُستدعى ممرضة، ممرضة حقيقية، لا تطرح أسئلة، تأتي، حتى لو لم تكن حالة طوارئ حقيقية، حتى لو كانت مجرد محنة،

محنة إنسانية، أو ما تسمينه ارتياعًا. لم يلقن ماريانا محاضرة من قبل، لكن ربما كانت المحاضرة هي الطريقة التي تختارها الحقيقة، هذه الليلة؛ لتنجلي، حتى لو كان مجرد حب.

حب: أكبر الكلمات الكبيرة، ومع ذلك، تتركه يلقيها عليها، تمتص الضربة هذه المرة، تكاد لا ترمش. أزرار سترتها مغلقة كلها الآن، من القاع إلى القمة.

يكرر بمرارة: مجرد حب.

تقول ماريانا: آن أن أنصرف؛ المسافة طويلة إلى منو بارا، ألا ترى؟

يقمع بمشقةٍ نوبة جديدة من الارتجاف، يقول: ليس الآن، ماريانا، خمس دقائق، ثلاث دقائق، من فضلك. نتناول مشروبًا معًا وتنزلين وتعود الأمور إلى طبيعتها. لا أريد أن أشعر بأني لن أستطيع استدعاءك مرة أخرى أبدًا، من الخجل. نعم؟

– نعم، ثلاث دقائق، لكن لن أتناول شرابًا؛ سأسوق، ولا شراب لكَ، لا يتفق الكحول والبرشام.

تعود إلى كرسيها ببعض التصلُّب، تمر دقيقة من الثلاث.

يسأل بغضب: ماذا يعرف زوجك بالضبط؟

تنهض، تقول: أذهبُ الآن.

مكروبًا، نادمًا، متألمًا، متضايقًا، يرقد مستيقظًا طوال الليل، البرشام الذي قالت ماريانا إنها ستتركه لا يوجد في أي مكان.

يأتي الفجر، يريد أن يذهب إلى المرحاض، يحاول بحذر أن يزحف من السرير، في منتصف الطريق إلى الأرض يشتد الألم من جديد، ويشل حركته.

ألم الظهر ليس من الطوارئ، تقول ماريانا، التي يستأجرها لتنقذه بالضبط من أجل مثل هذا النوع من المعاناة. هل العجز عن التحكُّم في المثانة يعتبر من الطوارئ؟ لا، لا بوضوح. إنه جزء من الحياة، جزء من الشيخوخة؛ يستسلم بصورة مُزرِية ويتبول على الأرض.

على هذا الوضع يجده دراجو الذي كان عليه أن يكون في المدرسة لكنه لم يكن فيها لأسباب تخصه حين يصل ليأخذ حقيبة أشيائه: نصفه في السرير، نصفه خارج السرير، ساقه مشبوكة في مفارش السرير المُلتفَّة، مربوطًا، متجمدًا.

إن كان لا يخبئ شيئًا عن ماريانا؛ فذلك لأنه لا يمكن أن يكون أكثر إذلالًا أمامها مما كان بالفعل. القصة مختلفة مع دراجو. هو الآن، العجوز اليائس في بيجامة تبول فيها

يجرجر وراءه بترًا قرنفليًّا قذرًا انزلقت من فوقه الضمادات الغبية، لو لم يكن بهذا البرود لانتابه الخجل.

ولا يتردد دراجو! هل هذا السلوك العملي مع الجسد يجري في العائلة؟ مثلما ساعدته أم دراجو ليصعد إلى السرير، يساعده دراجو لينزل عنه، وهو يحاول أن يبرر، أن يعتذر عن ضعفه، ودراجو هو الذي يهدِّئه: لا تنزعج مستر ريمنت، استرخِ فقط وسينتهي الأمر في دقيقة. ثم ينزع مفارش السرير ويقلب المرتبة ويفرش (بدون دراية، إنه ولد على أي حال) ملاءات نظيفة، ودراجو هو الذي يعثر على بيجامة نظيفة ويساعده في صبر، محوِّلًا عينه كما تقتضي أصول الذوق، على ارتدائها.

يقول في النهاية: شكرًا يا بني، رائع. هناك المزيد مما يود قوله؛ لأن قلبه مُفعَم به، من قبيل: تخلَّتْ أُمُّكَ عني؛ تخلَّتْ عني مسز كُسْتِلُّو، التي تثرثر وتثرثر عن الرعاية لكنها تراعي ألا تكون موجودة حين تكون الرعاية مطلوبة؛ تخلَّى الكل عني؛ حتى الابن الذي لم أنجبه في يوم من الأيام؛ ثم أتيتَ أنتَ! لكنه يبقى هادئًا.

يتصل دراجو بالتليفون، يعود. تقول ماما يجب أن آتي لك ببرشام لعلاج الألم. معي اسمه هنا. تقول إنها كانت تنوي أن تترك لك بعضه لكنها نسيتْ، يمكن أن أذهب إلى الصيدلية؛ لكن …

– الفلوس في محفظتي، في درج المكتب.

– شكرًا. هل لديك مِمسحة في مكان ما؟

– خلف باب المطبخ. لكن لا …

– لا شيء، مستر ريمنت. يستغرق الأمر دقيقة.

تَبيَّن أن البرشام السحري ما هو إلا بروفين. تقول ماما خذ برشامة كل أربع ساعات، وعليك أن تأكل أولًا. هل أحضر لك شيئًا من المطبخ؟

– أحضرْ لي تفاحة أو موزة لو فيه، دراجو؟

– نعم؟

– سأكون الآن على ما يرام، ليس عليك أن تبقى، شكرًا على كل شيء.

– نعم.

لتكتمل الفقرة، كان على دراجو أن يقول: نعم، كنتَ ستفعل معي نفس الشيء. وهذا صحيح! إذا اجتاح دراجو طوفانٌ، إذا صدمه غريب مُهمَل وهو على الموتوسيكل، فإنه، بول ريمنت، سيحرك السماء والأرض، وينفق كل قرش معه، لينقذه. سيلقن العالَم درسًا في

كيفية رعاية طفل محبوب، سيكون كل شيء له، أبًا وأمًّا، سيبقى بجوار سريره ليلًا ونهارًا ليرعاه. لو فقط!

عند الباب يلتفت دراجو، يُحيِّيه، ويبتسم له واحدة من ابتساماته الملائكية التي لا بد أنها تجعل الفتيات ينتشين. أراك!

٢٧

لم تكن إصابة ظهره، كما أخبرتْه ماريانا، جسيمة؛ يستطيع أن يتحرك في العصر، وإن كان بحذر، يستطيع ارتداء ملابسه، يستطيع أن يُعِد سندوتشًا. ظن ليلة أمس أنه على حافة الموت؛ وهو اليوم بخير مرة أخرى، إلى حد ما. مقادير ضئيلة من مواد مختلفة، تخلط معًا وتتحول إلى برشامة في مصنع في بانكوك، تُقلِّص غول الألم إلى فأر. معجزة.

وهكذا يستطيع تقديم مُوجَز بكل الأحداث التي جَرَت حين تصل إليزابيث كُسْتِلُّو. انزلقتُ في الحمام والتوى ظهري، اتصلتُ بماريانا، فأتتْ وعالجَتْني، وأنا الآن بخير مرة أخرى. لم يذكر جون أوجست الغادر، لم يذكر الارتجاف والدموع، لم يذكر البيجامة التي في سلة الغسيل. جاء دراجو هذا الصباح ليطمئن عليَّ، ولد رائع، أنضجُ من سنِّه.

– وتقول إنك بخير.

– نعم.

– وصورك؟ مجموعة الصور الفوتوغرافية؟

– ماذا تقصدين؟

– هل مجموعة الصور الفوتوغرافية بخير أيضًا؟

– أفترضُ ذلك، لماذا لا تكون كذلك؟

– ربما يكون عليك إلقاء نظرة.

لا توجد صور مفقودة، لا شيء مفقود، لكن يبدو أن هناك خطأ في ملمس إحدى صور فوشي، بمجرد أن يخرجها من الغلاف البلاستيك إلى النور، بها خطأ في الشكل أيضًا. يمسك في يده نسخة مقلَّدة بدرجات بني تشبه اللون الأصلي، مطبوعة على طابعة إلكترونية على ورق تصوير فوتوغرافي شبه مصقول. الدعامة الكرتونية للصورة جديدة، أَسمَك قليلًا من

الأصلية، السُّمْك الزائد أول ما يكشف التزييف، باستثناء ذلك لا غبار على النسخة، وربما لم يكن ليلاحظ ذلك أبدًا لولا حث كُسْتِلُّو.

يلحُّ عليها: كيف عرفْتِ؟

– كيف عرفتُ أن دراجو وصديقه كانا على وشك عمل شيء؟ لا أعرف. ارتبتُ فقط. تمسك النسخة.

– لن أستغرب إن كان أحد هؤلاء الحفَّارين الجد الأكبر لكُسْتِلُّو من كيري. وانظر، انظرْ إلى هذا الرفيق، تَنقُر بظفرٍ وجهًا في الصف الثاني. أليست هذه الصورة طبق الأصل لميروسلاف يوكتش!

يختطف الصورة الفوتوغرافية منها. ميروسلاف يوكتش: إنه هو، بقبعة وقميص مفتوح عند العنق، وشارب رياضي أيضًا، يقف جنبًا إلى جنب مع عمال المناجم الكُرْنيين والأيرلنديين، عمال بوجوه صارمة، من زمن انقضى.

التدنيس هو أكثر ما يشعر به، السخرية من الموتى على أيدي شابَّيْن ساخرَين لا يعرفان الاحترام، يفترض أنهما فَعلَا ذلك بتقنية رقمية، لم يكن ليستطيع أبدًا أن ينجز هذا المونتاج المُقْنِع في الغرفة المعتمة القديمة الطراز.

يلتفت إلى كُسْتِلُّو المرأة. يلحُّ: ماذا حدث للنسخة الأصلية؟ هل تعرفين ما حدث لها؟ يشعر بأنه يفقد السيطرة على صوته، ولا يبالي، يلقي النسخة إلى الأرض.

– الولد الغبي، الغبي! ماذا فعل بالنسخة الأصلية؟

تنظر إليه إليزابيث كُسْتِلُّو بعينين واسعتين مندهشتين. تقول: لا تسألْني بول؛ لم أرحب بدراجو في بيتي ولم أعطه حرية استخدام مجموعة الصور الفوتوغرافية النفيسة، لم أرسم طريقي إلى الأم من خلال الابن.

– إذن كيف عرفْتِ بهذا ... هذا التخريب؟

– لم أعرف. كما قلْتُ من قبل، ارتبتُ فقط.

– لكن ماذا جعلكِ ترتابين؟ ماذا تكتُمِين عني؟

– تماسكْ بول! فكِّرْ، هنا دراجو وصديقه شون، صبيان أستراليان يتمتعان بالصحة، كيف يقضيان وقت الفراغ؟ لا يتسابقان بالموتوسيكلات، لا يلعبان كرة القدم، لا يلاطمان الأمواج، لا يقبِّلان الفتيات، لا، بدل ذلك يغلقان عليهما غرفة مكتبك في النهاية. هل ينكبَّان على قراءة القصص البذيئة؟ لا، إن لم أكن مخطئة، لا تمتلك يا للغرابة إلا القليل من الكتب القذرة؛ إذن ماذا يمكن أن يشد انتباههما إلا مجموعة الصور الفوتوغرافية، وهي مجموعة طبقًا لما تقوله لا تُقدَّر بثمن بحيث كان لا بد أن تمنحها للدولة؟

– لكني لا أرى عندهما دافعًا لعمل ذلك. لماذا يثيران كل هذا الاضطراب ليزوِّرا — يضع حافة عكازه على النسخة ويشدها إلى السجادة — زائفة؟

– إذن لا أستطيع مساعدتكَ؛ تتوقف المسألة عليك، لكن تذكَّرْ أنهما صبيان صغيران مفعمان بالحيوية في مدينة خامِلة لا تُقدِّم مَخرجًا لتوترات عِظامها، لما في رأسيهما من طَنين المخطَّطات والرَّغبات. الوقت يسرع من حولنا بول. تنجب الفتيات في العاشرة. الأولاد، يلتقط الأولاد في نصف ساعةٍ المهارةَ التي كنا نقضي نصف عمرنا لنلتقطها، يلتقطونها ويَضجَرون منها وينتقلون إلى شيء آخر. ربما ظن دراجو وصديقه أنها ستكون مُضحِكة: مكتبة الدولة، مجموعة مُوقَّرة من الرجال والسيدات «يُهَوُّون» على أنفسهم من الحر، شخص عظيم الشأن ثاقب النظر أو أي شخص آخر يزيح الستار عن إرث ريمنت، و— آه، آه! — هذا الذي في مركز درة[١] المجموعة ليس إلا واحدًا من عشيرة يوكتش من كرواتيا! مهزلة كبيرة، بهذا كان يمكن أن يصفها بِلي بُنْتر، ربما هذا كل ما تساويه، مهزلة مدروسة لكنها بلا طعم وربما لم تستغرق منهما وقتًا طويلًا وربما بإرشاد من خبير أيضًا.

– والأصل الثمين، نسخة فوشي، مَن يعرف أين هي؟ ربما ما زالت تحت سرير دراجو، أو ربما دفع هو وشون بها إلى تاجر، ومع ذلك اهدأْ؛ ربما تشعر بأنك أضحوكة، وقد تكون محقًّا، لكن لم تكن هناك ضغينة وراء ذلك، مجرد نكتة، نكتة صبيانية مُتهوِّرة.

تبلُّد. هل الأمر بهذا الوضوح، واضح لدرجة أن الجميع يرونه؟ وكأن القلب مُرهَق في صدره بدرجة لا تجعله ينبض، تأتي الدموع إلى عينيه من جديد، لكن بدون قوة خلفها، مجرد إفراز مائي.

يهمس: هؤلاء هم إذن؟ غجر؟ أي شيء آخر سرقه مني أولئك الغجر الكروات؟

– لا تكن ميلودراميًّا بول! هناك كروات وكروات، تعرف ذلك بالتأكيد، حفنة من الكروات الطيبين وحفنة من الكروات السيئين وبينهم ملايين الكروات، وآل يوكتش ليسوا سيئين، فيهم فقط بعض القسوة، بعض الجفوة في القلب، بما فيهم دراجو، دراجو ليس ولدًا سيئًا، تعرف ذلك. أذكِّركَ: أخبرْتَه، بشموخ على ما أظن، إن الصور ليست صورك، لسْتَ إلا حارسًا لها من أجل تاريخ الوطن. حسن، دراجو جزء من ذلك التاريخ أيضًا، تذكَّرْ. أي ضرر، يفكر دراجو، في أن يغرس واحدًا من آل يوكتش في الذاكرة الوطنية، حتى

[١] بالفرنسية في الأصل.

لو كان قبل الأوان — الجد يوكتش على سبيل المثال؟ مجرد مزاح، لم يفكر في نتائجه؛ ولكن مَنْ مِن الصغار الجامحِين يفكر في نتائج أعماله؟

– الجد يوكتش؟

– نعم أبو ميروسلاف. ظننتَ أن ميروسلاف نفسه هو الذي في الصورة، أليس كذلك؟ لكن اثبتْ، لم يَضِع كل شيء. لم يَضِع شيء في الحقيقة إن كنْتَ محظوظًا، ألفٌ في المائة ما زالت صورة فوشي، الصورة التي تَعتزُّ بها بين يدي دراجو، أخبرْه بأنك ستبلغ البوليس إذا لم يُعِدْها فورًا.

يهز رأسه: لا. سيرتعب فقط ويحرقها.

– تحدثْ إذن إلى أمه، تحدثْ إلى ماريانا. سترتبك؛ ستفعل أي شيء لحماية ابنها البِكر.

– أي شيء؟

– ستلوم نفسها، فهي، قبل كل شيء، مُرمِّمة الصور في العائلة.

– وبعد ذلك؟

– لا أعرف. ما يحدث بعد ذلك يتوقف عليك. إذا أردْتَ أن تواصل وتصنع مشهدًا، يمكن أن تصنع مشهدًا. وإذا لم تصنعه، فليكن.

– لا أريد مَشاهد، أريد معرفة الحقيقة فقط. فكرة مَنْ؟ فكرة دراجو، أم فكرة ما اسمه، فكرة شون؟ أم فكرة ماريانا؟

– يمكن وصف ذلك بأنه إلمام متواضع جدًّا بالحقيقة. ألا تَوَد معرفة المزيد؟

– لا، لا أريد معرفة المزيد.

– ألا تود معرفة لماذا وقع الاختيار عليك كضحية، كغبي؟

– لا.

– بول المسكين، تَجفَّل حتى قبل أن تقع الصفعة. وربما لا تكون هناك صفعة. ربما ستركع ماريانا أمامك. غلطتي.[٢] افعل بي ما تشاء. وهلم جرًّا. لن تتأكد إلا إذا كان لك مشهد معها. ألا يمكنني حثُّكَ؟ ماذا تَبقَّى لك؟ قصة مُفكَّكة عن غجر سرقوك، المرأة الغجرية المتورِّدة والشاب الغجري الوسيم. ليس الشيء الرئيسي إطلاقًا، ليس الشيء المميز.

[٢] باللاتينية في الأصل.

– لا. لا إطلاقًا. أرفض. لا مَشاهد. لا مَسارح. لو عرفْتِ، إليزابيث، كم أنا مريض ومُرهَق من تعامُلِك معي بهذه الطريقة إضافة إلى القصص المجنونة التي في رأسك! أفهمُ ما تريدين. تودين أن — ما الكلمة؟ — أستغل ماريانا. وتأمَلين بعد ذلك أن يكتشف الزوج الأمر ويطلق عليَّ النار أو يمزقني. ذلك هو الشيء الأساسي الذي تأملين أن أفعله، أليس كذلك؟ الجنس والغيرة والعنف، أكثر أنواع الإثارة سوقية.

— لا تكن سخيفًا بول! لا تُحلُّ أزمة مثل الأزمة الحالية، جوهرها أخلاقي، بتمزيق شخص أو إطلاق النار على رأسه. حتى أنتَ عليك أن تعرف ذلك، لكن أسحب اقتراحي إن كان يزعجك، لا تتحدث إلى دراجو، لا تتحدث إلى أمه، إن كنْتُ لا أستطيع حَثَّك، فأنا بالتأكيد لا أستطيع إرغامك. إن كنْتَ سعيدًا بِفقْد صورتك النفيسة، فلتكن.

تحدثْ إلى ماريانا، تقول له كُسْتِلُّو المرأة. لكن ماذا يقول؟ ماريانا؟ أهلًا، كيف حالك؟ أعتذر عما صدر مني الليلة الماضية، ليلة وقعتُ في الحمام، لا أعرف ماذا سيطر عليَّ. لا بد أني فقدتُ صوابي. ألاحظ، بالمناسبة، ضياع صورة من مجموعتي. هل تعتقدين أنكِ يمكن أن تطلبي من دراجو أن ينظر في حقيبته ويرى إن كان قد وضعها فيها عن طريق الخطأ؟

عليه قبل كل شيء ألا يَتَّهِم؛ إذا اتَّهَم، فسينكر آل يوكتش، وتكون نهاية الوضع الغامض الذي ما زال يحتله بينهم؛ وضعُ مريضٍ، وضعُ زبون.

ربما يكون عليه، بدل الاتصال بماريانا، كتابة خطاب آخر من خطاباته، قامعًا التقلُّب هذه المرة، منتقيًا الكلمات بأقصى ما يستطيع من حذر، مُقدِّمًا عرضًا هادئًا ومقنعًا لموقفه تجاهها وتجاه دراجو، وتجاه الصورة الفوتوغرافية المفقودة. لكن من يكتب خطابات في هذه الأيام؟ من يقرؤها؟ هل قرأتْ ماريانا خطابه الأول؟ هل استلمته حتى؟ لم تقدم إشارة.

تعود به الذاكرة إلى الوراء: زيارة في الطفولة إلى باريس، إلى سراديب لافيت؛ يشاهد قصاصات من الورق ملفوفة في خراطيش تنطلق من قسم إلى آخر عبر أنابيب هوائية. يتذكر، حين فُتِحتْ فوهة الأنبوبة صدر من أحشاء الجهاز صوت هواء مكتوم. نظام من نظم الاتصال اندثر. عالَمٌ اندثر، انتهى من الوجود. ماذا حدث لها، لكل تلك الخراطيش الفضية؟ ذُوِّبتْ، ربما، لتصنع منها أطر الهياكل أو طلقات الإرشاد.

لكن ربما يختلف الأمر مع الكُرْوات. ربما ما زال هناك في الوطن القديم عَمَّات وجَدَّات يكتبن خطابات إلى أُسرِهن البعيدة، في كندا، في البرازيل، في أستراليا، ويَلصقن عليها طوابع،

ويضعنها في صندوق البريد: فازت إيفانكا بجائزة الفصل في القَص، وَلَدت البقرة الرمادية، كيف حالكم؟ متى نراكم من جديد؟ وبالتالي قد لا يجد آل يوكتش غرابة في أن يرسل لهم عبر البريد.

يكتب:

عزيزي ميروسلاف

حاولتُ تحطيم بيتك، ولا شك أنك ترى أنني عليَّ أن أخرس وأتلقى أي عقاب تصدره الآلهة في حقي. حسن، لن أخرس. اختَفتْ صورة فوتوغرافية نادرة من مقتنياتي وأود استردادها (أضيف أن دراجو لن يستطيع بيعها؛ فهي معروفة للباعة).

إن كنتَ لا تعرف عَمَّ أتكلم، فاسألِ ابنك، اسألْ زوجتك.

لكن ليس هذا هو السبب وراء كتابتي إليك، أكتب لأقدم اقتراحًا.

ترتاب في أني كنتُ أُخطِّط لزوجتك. أنت مُحِق، لكن لا تقفز إلى النتائج بشأن نوع الخطط.

لا أعرض الفلوس فقط، أعرض أشياء ليست مادية أيضًا، أشياء إنسانية، أعني الحب أساسًا. استخدمتُ كلمة الأب الروحي، إن لم يكن معك فمع ماريانا. وربما لم أنطق بالكلمة، فكرتُ فيها ليس إلا. اقتراحي كالتالي: مُقابِل قرض كبير لأجل غير مُحدَّد، لتغطية تعليم دراجو وربما بقية أطفالك، هل يمكن أن تجد موضعًا في مسكنك وفي بيتك، في قلبك وفي بيتك، لأب روحي؟

لا أعرف إن كان لديكم في كرواتيا الكاثوليكية مُؤسَّسة للأب الروحي. ربما نعم، وربما لا. لا تَذكُر الكتب التي رجعتُ إليها شيئًا عن ذلك، لكن يجب أن تكون على معرفة بالمصطلح، الأب الروحي هو الرجل الذي يقف بجوار الأب عند جُرْن المَعمودِيَّة، أو يُرفرِف فوق رأس الطفل، يُباركه مُقسمًا على مُساندته طوال الحياة، وحيث يكون القس في مراسيم التعميد تجسيدًا للابن والشفيع، ويكون الأب بالطبع الأب، يكون الأب الروحي تجسيدًا للروح القدس. على الأقل هكذا أتصور الأمر. صورة بلا مادة، روحية، تَتجاوَز الغضب والرغبة.

تعيش في منو بارا، على مسافة من المدينة. ليس أمرًا سهلًا بالنسبة لي، في حالتي الحالية المتقلِّصة، أن آتي زائرًا، ومع ذلك، هل ستفتح لي بيتك من حيث المبدأ؟ لا أريد شيئًا في المقابل، لا أريد شيئًا ملموسًا، ربما باستثناء مفتاح للباب

الخلفي. بالتأكيد لا أخفي خططًا لأخذ زوجتك وأطفالك منك، أطلب فقط أن أرفرف، أن أفتح صدري، حين تكون مشغولًا في مكان آخر، وأَصبُّ بركات قلبي على عائلتك.

يجب من الآن ألا تكون لدى دراجو مشكلة في فهم المكان الذي أتوق إليه في البيت. ربما تجد الطفلتان الصغريان مشكلة أكبر. إذا اخترْتَ ألا تقول لهما شيئًا في الوقت الحالي، فسوف أفهم.

أعرف أنك لم تكن تتوقع مثل هذا الاقتراح حين بدأْتَ في قراءة هذا الخطاب، ذكرتُ لواحدة من معارفي ما كان يجري في شقتي — اختفاء واحدة من مجموعة الصور الفوتوغرافية وهلم جرًّا — فاقترحَتْ أن أتصل بالبوليس، لكن هذا آخر ما يمكن أن أفكر فيه. لا، أستخدم هذه الافتتاحية عن حادث سيِّئ لمجرد أن أترك قلمي يجري وقلبي يتكلم (إضافة إلى ذلك، كم خطابًا أمام المرء فرصة لكتابتِه الآن؟)

لا أعرف شعورك أنت نفسك تجاه الخطابات؛ وحيث إنك قادِم من عالَم أقدم وأفضل من بعض النواحي، فقد لا تجد غرابة في أن تُمسِك القلم بدورك. ومن ناحية أخرى إذا كانت الخطابات غريبة بالنسبة لك، فالتليفون موجود دائمًا (٨٣٣٢١٤٤٥)، أو يمكن أن تحمل ماريانا رسالة، أو دراجو (لم أتخلَّ عنه، من غير اللائق: أَخبِرْه بذلك)، أو بلنكا. وأخيرًا هناك صمتٌ دائمًا. صمت يمكن أن يحتشد بالمعاني.

سأشتري الآن طابعًا وألصقه على هذه الرسالة، وقبل أن أُنقِّح أفكاري، سأشق طريقي إلى أقرب صندوق بريد، اعتدتُ تنقيح أفكاري في كثير من الأوقات، نقَّحْتُ أفكاري طوال الوقت، لكنني الآن أشمئز من ذلك.

المخلص

بول ريمنت

٢٨

يقول مخاطبًا كُسْتِلُّو المرأة: ألا تعتقدين أنك في حاجة للعرض على طبيب؟

تهز رأسها: لا شيء، مجرد قشعريرة. ستمر.

لا تبدو قشعريرة إطلاقًا. كحة رطبة، وكأن الرئتين تحاولان دفع طبقة من البلغم المستقر في الأعماق، حفنة في كل دفعة.

يقول: لا بد أنه نتيجة النوم تحت الآجام. تنظر خلفها غير مُستوعِبة.

– ألم تقولي إنك كنتِ تنامين تحت الآجام في المنتزه؟

– آه نعم.

يقول: أَنصحُكِ بزيت الأوكاليتوس. ملعقة من زيت الأوكاليتوس في إناء به ماء مغلي، تستنشقين البخار، يفعل العجب في الشُّعب الهوائية.

تقول: زيت الأوكاليتوس! لم أسمع بزيت الأوكاليتوس في هذه العصور، يستخدم الناس بخاخات في هذه الأيام. في حقيبتي واحدة بلا أهمية. اعتدْتُ استخدام بلسم الراهب، لكني لم أَعُد أعثر عليه في المحلات.

– يمكنكِ الحصول عليه من مخازن الدولة. يمكنكِ الحصول عليه في أدليد.

– يمكنكِ، كما يقول أصدقاؤنا الأمريكان، إنها بلاغة.

سيحصل على زيت الأوكاليتوس من أَجْلِها. سيغلي الماء في إناء، سيفتش حتى في خزانة الأدوية بحثًا عن بلسم الراهب، لو طلبتْ فقط، لكنها لا تطلب.

يجلسان في البلكونة وبينهما قارورة من النبيذ. عتمة، يهب النسيم بقوة. لو أنها مريضة حقًّا لكان من الأفضل لها أن تدخل، لكنها لا تفعل شيئا لتواري نفورها من الشقة. قاعتك الجنائزية البافارية، هكذا وصفتها بالأمس، وهو ليس مسئولًا عنها.

تستفهم: لا كلمة من دراجو؟ لا أخبار من آل يوكتش؟

– لا كلمة. كتبتُ خطابًا، لم أضعه بعد في صندوق البريد.

– خطاب! خطاب آخر! ما هذا، مباراة شطرنج عبر البريد؟ تصل كلماتك إلى ماريانا في يومين، يصل ردها في يومين، سنلفظ أنفاسنا جميعًا من الضجر قبل أن نصل إلى حل. بول، ليس هذا عصر رواية الخطابات. اذهبْ وقابلْها! واجهْها! ليكن مشهدًا حقيقيًّا! الصق طابع بريد على قدمك (أتكلم بالاستعارة)! اصرخْ! تكلمْ، «لن أُعامَل بهذه الطريقة!» هكذا يتصرف الناس العاديون، أمثال ماريانا وميروسلاف، ليست الحياة تبادلًا للمذكِّرات الدبلوماسية. بالعكس،[1] الحياة دراما، الحياة إثارة، إثارة وعاطفة! من المؤكَّد أنكَ، بخلفيتكَ الفرنسية، تعرف ذلك. كنْ مؤدَّبًا إن شئْتَ، لا ضرر من الأدب، لكن على ألا يكون ذلك على حساب العواطف. فكِّرْ في المسرح الفرنسي. فكِّرْ في راسين. لا يكتب راسين عن ناس يجلسون على مُؤخِّراتهم في الزوايا يخططون ويحسبون، يكتب راسين عن المواجَهة، خطبة مُسهَبة عنيفة ضد أخرى.

هل هي محمومة؟ ما سبب كل هذا الثوران؟

يقول: إذا كان هناك مكان في العالم لبلسم الراهب، فهناك مكان لخطابات عفَا عليها الزمن. على الأقل إذا بدَا الخطاب غير مناسب، فيمكنك أن تمزقيه وتبدئي من جديد. بخلاف الكلام المنطوق، بخلاف ثوران العاطفة، التي تصدر بصورة نهائية ولا يمكن إلغاؤها. أنتِ من بين كل الناس عليكِ أن تستوعبي ذلك.

– أنا؟

– نعم أنتِ. أنتِ، بالتأكيد، لا تكتبين على عجل أول ما يخطر على بالكِ وترسلينه إلى الناشر. من المؤكَّد أنك تراجعين أفكاركِ. من المؤكَّد أنكِ تُنقِّحين. أليستِ الكتابة كلها أفكارًا نُقِّحتْ مرة؛ أفكارًا نُقِّحتْ مرة وأفكارًا نُقِّحتْ مرتين وأفكارًا نُقِّحتْ أكثر من ذلك؟

– ما تقوله حق. هكذا هي الكتابة. أفكار تُنقَّح بصورة لا تنتهي. لكن من أنت لتُنقِّح أفكاري؟ لو كنتَ جديرًا بشخصيتك التي تشبه السلحفاة، لو نَقحتَ أفكارك، لو لم تعلن بحماقة وبطريقة لا يمكن التراجع عنها عن عاطفتك تجاه خادمتك، ما كنا وقعنا في الورطة الحالية، أنا وأنت. لاستطعتَ الجلوس سعيدًا في شقتك الرائعة، في انتظار زيارات السيدة ذات النظارة القاتمة، واستطعتُ العودة إلى ملبورن، لكن الوقت متأخر جدًّا على ذلك الآن. لم يَعد أمامنا إلا أن نُقيَّد ونرى إلى أين يأخذنا الحصان الأسود.

---

[1] بالفرنسية في الأصل.

– لماذا تصفينني بالسلحفاة؟

– لأنك تتَنشَّق الهواء سنوات قبل أن تتخذ قرارًا. لأن كل خطوة مباركة تكلِّف كل هذا الجهد. لا أطلب منك أن تصير أرنبًا بريًّا بول! أناشدك فقط أن تتطلع إلى قلبك وترى إن كنْتَ لا تستطيع أن تجد معانيَ في شخصيتك الشبيهة بالسلحفاة، في عاطفتك الشبيهة بالسلحفاة، بتسرعك في التودد إلى ماريانا، إن كانت نيَّتُك حقًّا أن تتودَّد إليها.

– تذكَّرْ بول! العاطفة هي ما يسيِّر العالم. لسْتَ أُمِّيًّا، تعرف ذلك بالضرورة. في غياب العاطفة يصبح العالم بلا معنًى وبلا الشكل. فكِّرْ في «دُون كيخوت» ليست «دُون كيخوت» عن رجل يجلس في مقعد هزَّاز يتحسَّر على لامنشا، بل عن رجل يضع وعاء على رأسه ويتسلق ظهر حصان محراثه، الحصان العجوز الوفي وينطلق ليحقق مآثر عظيمة، تخرج إيما روو، إيما بوفاري، وتشتري ملابس فخمة وهي لا تعرف كيف ستدفع ثمنها. يقول ألْنْسو، تقول إمَّا، لا نعيش إلا مرة واحدة، فلندفعها بقوة إذن! ادفعها بقوة بول، تَبيَّنْ ما يمكن إدراكه.

– أتبينُ ما يمكن إدراكه لتكتبي عني في كتاب.

– ربما يكتب عنك شخص ما في مكان ما في كتاب، ربما يريد شخص ما الكتابة عنك في كتاب، ربما تصبح جديرًا بالكتابة عنك في كتاب، بجوار ألنسو وإمَّا، تصبح عظيمًا بول، عشْ كبطل، هذا ما نتعلمه من الكلاسيكيات، كن شخصية رئيسية، وإلا ما معنى الحياة؟

– هيا! افعل شيئًا ما، افعل أي شيء، أدهِشْني، هل خطر على بالك أن حياتك إن بدت مكرَّرة وضيِّقة وأكثر كسلًا كل يوم، فقد يكون ذلك؛ لأنك لا تبرح هذه الشقة الملعونة؟ تأمَّلْ: في مكان ما في دَغَل من أدغال ولاية ماهاراشترا نَمِر في هذه اللحظة نفسها يفتح عينيه الكهرمانيتين، ولا يفكر فيك إطلاقًا! لا يمكن أن يكون أقل اهتمامًا بك من أي شخص آخر من سكان ممر كنستون. متى خرجْتَ آخر مرة لتمشي تحت السماء المرصَّعة بالنجوم؟ فقدْتَ ساقًا، أعرف، والتجول ليس لهوًا؛ لكنا جميعًا نكون بعد عمر معين قد فقدنا ساقًا، تقريبًا. ساقك المفقودة مجرد علامة أو رمز أو عَرَض، لا يمكن أتذكر أيها أصح، للشيخوخة، الشيخوخة وعدم الاهتمام. مم تشكو إذن؟ أصغِ!

أكون، ما أكون لا أحد يهتم أو يعرف.
يتخلَّى عنِّي أصدقائي مثل ذاكرة مفقودة.
أستهلِكُ مِحَني بنفسي.

– هل تعرف هذه الأبيات؟ جون كلير. احذرْ بول. هكذا تنتهي، كجون كلير، المستهلِك الوحيد لِمحَنك؛ لأن لا أحد غيرك، تأكدْ من ذلك، سَيُلعَن.

لا يعرف أبدًا متى تعامله كُسْتِلُّو المرأة بجدية ومتى تستدرجه إلى خدعة. يمكن أن يتعامل مع الإنجليز، لنَقُل الأنجلو-أستراليين. الأيرلنديون يُسبِّبون له المشاكل دائمًا، السلالة الأيرلندية في أستراليا. يرى شخصية تسعى إلى تحويله هو وماريانا — الرجل المبتور والسيدة البلقانية النشيطة — إلى مَلهاة. وبرغم ذلك كله لا يبدو ما تدبره كُسْتِلُّو له مَلهاة ساخرة، وهذا ما يُحيِّره، وهذا ما يصفه بالعنصر الأيرلندي.

يقول: يجب أن ننتقل إلى الداخل.

– ليس بَعد. يا لها من سماء مرصعة بالنجوم! … كيف تستمر؟

– لا أعرف!

– يا لها من سماء مرصعة بالنجوم! يا له من شيء مثير! كيف؟ في رأيك، ألتصق برجل غير مبالٍ وغير مغامر إلى هذا الحد، مثلك؟ هل يمكن أن تقدم تفسيرًا؟ هل يعود كل ذلك إلى اللغة الإنجليزية، إلى أنك لا تستريح بما فيه الكفاية لاستخدام لغة ليستْ لغتك؟

– منذ ذكرْتَ لي ماضيك الفرنسي — تعرف — وأنا أستمع إليك بانتباه شديد. نعم أنت على حق، تتكلم الإنجليزية، ربما تُفكِّر بالإنجليزية، وربما حتى تَحلُم بالإنجليزية، إلا أن الإنجليزية ليست لغتَكَ الحقيقية. يمكن حتى القول إن الإنجليزية تخفيك وراءها، أو أنها قناع لك، جزء من درعك المصنوع من عظام السلحفاة. أقسمُ أني أستطيع، وأنت تتكلم، أن أسمع الكلمات وأنت تختارها، واحدة بعد الأخرى، من صندوق كلمات تحمله معك، مثقوب في موضع. لا يتكلم المواطن الأصلي الحقيقي بهذه الطريقة، مَن ولد في اللغة.

– كيف يتكلم المواطن الأصلي؟

– من القلب. تنبثق الكلمات من الأعماق ويغنِّيها، يغني معها. هكذا يتكلم.

– أفهمُ. هل تقترحين أن أعود إلى فرنسا؟ هل تقترحين أن أغنِّي الأخ الفلاح؟[٢]

– لا تسخرْ مني بول! لم آتِ على ذِكْر العودة إلى فرنسا؛ فقدْتَ الاتصال مع فرنسا منذ زمن طويل، كل ما قلتُه، إنك تتكلم الإنجليزية كغريب.

– أتكلم الإنجليزية كغريب؛ لأني غريب، أنا غريب بالطبيعة وكنْتُ غريبًا طوال حياتي، ولا أعرف لماذا أعتذر؟ لو لم يكن هناك غرباء لما كان هناك سكان أصليون.

– غريب بالطبيعة؟ لا، ليست المسألة كذلك، لا تُلقِ باللائمة على طبيعتك؛ طبيعتك جيدة، ولو كانت مُتخلِّفة قليلًا. لا، كلما استمعتُ إليك أكثر ازداد يقيني بأن مفتاح

[٢] بالفرنسية في الأصل.

شخصيتك يكمُن في كلامك. تتكلم ككتاب. كنْتَ ذات يوم ولدًا صغيرًا شاحبًا مهذبًا — يمكن أن أراك — يولي الكتب الكثير من الاهتمام. وما زلتَ.

– ما زلتُ ماذا؟ شاحبًا؟ مهذبًا؟ متخلِّفًا؟

– ولدًا صغيرًا تخشى أن تبدو مضحِكًا حين تفتح فمك. دعني أُقدِّم اقتراحًا لك، بول. أغلقْ هذه الشقة وودِّعْ أدليد؛ أدليد أشبه بجبَّانة. لم تعدْ لك حياة هنا. تعالَ وعشْ معي في كرلتون بدل العيش هنا. أعطيك دروسًا في اللغة، أعلمك كيف تتحدث من القلب، درسًا لساعة أو اثنتين يوميًّا، ستة أيام في الأسبوع؛ يمكن أن نستريح في اليوم السابع. يمكن حتى أن أطبخ لك، ليس بخبرة ماريانا، لكن بشكل مقبول، وبعد العشاء، تحركك الروح، تحكي لي مزيدًا من قصص كنوزك المختزَنة، ثم أحكيها لك بصورة سريعة ومُنقَّحة حتى إنك لن تَتعرَّف عليها. ماذا أيضًا؟ لا لذَّات فظَّة، ستستريح حين تسمع ذلك. سنكون نَقيِّين كالملائكة المبارَكة. سأرعاك في كل النواحي الأخرى؛ وربما تتعلم بدورك أن ترعاني. حين يحل اليوم المحدَّد، يمكن أن تكون الشخص الذي يُغلِق جفوني ويضع قطعة من القطن في مِنخاري، ويتلو لي دعاءً قصيرًا، أو العكس، إن كنتُ سأرحل بَعدَك. ما رأيك؟

– يبدو وكأنه زواج.

– نعم هو كذلك، نوع من الزواج، زواجٌ رفاقيٌّ. بول وإليزابيث، إليزابيث وبول رفيقان على الطريق. وإن كانت كرلتون لا تعجبك، يمكن أن نشتري سيارة مجهزة ونجوب القارة نتفرج على مناظرها. ويمكن حتى أن نستقل الطائرة إلى فرنسا. ما رأيك في ذلك؟ يمكن أن تفرِّجني على أماكنك القديمة: سراديب لافيت، تاراسكون، البرانس. اختيارات بلا نهاية. هيا، ما رأيك؟

قد تكون أيرلندية، لكنها تبدو صادقة، أو شبه صادقة. حان دوره.

ينهض ويقف أمامها مستندًا على الطاولة. هل يمكن، مرة، أن يجعل صوته يغني؟ يغلق عينيه، ويصفِّي ذهنه، وينتظر مجيء الكلمات.

تأتي الكلمات: لماذا أنا، إليزابيث؟ لماذا أنا من بين كل رجال العالم؟

نفس الكلمات القديمة، نفس الأغنية القديمة المحبطة. لا يستطيع تخطيها؛ إلا أنه حتى الآن لم يسمع إجابة عن سؤاله، سيُعاق الغناء بصرف النظر عما في القلب.

إليزابيث كُسْتِلُّو صامتة.

– أنا خبَثٌ، إليزابيث، معدن أساسي، استهلاكي مستحيل. لا جدوى مني لك، لأي شخص، لا قيمة لي؛ شاحب جدًّا، بارد جدًّا، مرتاع جدًّا. لماذا وقع اختيارك عليَّ؟ ما الذي جعلك تظنين أنه يمكن أن تفعلي مني شيئًا؟ لماذا تمكثين معي؟ تكلمي!

تتكلم.

– خُلِقتَ من أَجْلِي بول، مثلما خُلِقتُ من أَجْلِك. هل هذا يكفي الآن، أم تطلب مني أن أُقدِّم لكَ كل شيء،[٣] كل شيء؟

– قولي كل شيء تمامًا ليفهم مغفل بائس مثلي.

تسلَّك حنجرتها: من أجلي وحدي ولِدَ بول ريمنت، وأنا ولدتُ من أجله. قدرتُه قدرةٌ على القيادة، وقدرتي قدرةٌ على التبعية؛ له القدرة على الأداء، ولي القدرة على الكتابة. المزيد؟

– لا، يكفي. الآن أسألك بصراحة، مسز كُسْتِلُّو: هل أنت حقيقية؟

– هل أنا حقيقية؟ آكل، أنام، أعاني، أذهب إلى الحمَّام، أشعر بالبرد. بالطبع أنا حقيقية، حقيقية مثلك.

– من فضلكِ كُونِي جادَّة مَرة. من فضلك أجيبيني: هل أنا حي أم أنا ميت؟ هل حدث لي على طريق مَجيل ما فشلْتُ في استيعابه؟

– وأنا الروح المكلَّفة بالترحيب بك في الآخرة، هل هذا ما تسأل عنه؟ لا أيها المخلوق البائس المتشعِّب، استَرِحْ في ثقة، هذه أنا تمامًا، لا أختلف عنك. امرأة عجوز تكتب على عَجَل، صفحة بعد صفحة، يومًا بعد يوم، ملعونة إن عرفْتُ لماذا. إن كانت هناك روح مُشْرِفة — وأنا لا أظن ذلك — فهي تُشرِف عليَّ أنا، برموشها، لا عليك. تقول، لا تتواني، إليزابيث كُسْتِلُّو الصغيرة! وتجلدني جلدة بالسوط. أدِّي وظيفتك الآن! لا، هذه قصة عادية تمامًا، إنها عادية تمامًا، بثلاثة أبعاد فقط، الطول والعرض والارتفاع، كالحياة العادية، والاقتراح الذي أعرضه عليك اقتراح عادي جدًّا. ارجعْ معي إلى ملبورن، إلى بيتي القديم الرائع في كرلتون. ستحبه، به شقق كثيرة. انسَ مسز يوكتش، لا تحظى معها بفرصة كلب، خذ فرصة معي، سأكون أفضل رفيقة لك، رفيقة[٤] آخر أيامك. سنتشارك في خُبزِنا ما دام لنا أسنان. ماذا تقول؟

– ماذا أقول من صندوق الكلمات الذي أحمله معي أو من القلب؟

– آه، وضعْتَني هناك، يا لكَ من رفيق سريع البديهة! من القلب بول، مرة واحدة فقط.

---

[٣] باللاتينية في الأصل.

[٤] بالفرنسية في الأصل.

كان يشاهد فَمها وهي تتكلم، إحدى عاداته: يشاهد الآخرون العينين، وهو يشاهد الفم. قالتْ، لا لذَّات فظة. لكنه الآن لا يستطيع تخيل ماذا يشبه تقبيل هذا الفم، بشفتيه الجافتين، وربما حتى الذابلتين ومن فوقهما أثر الانحدار. هل يشمل الزواج الرفاقي التقبيل؟ يخفض عينيه؛ لو كان أقل أدبًا لارتعد.

وترى ذلك. ليست كائنًا أعلى، لكنها ترى ذلك. تقول بهدوء: أراهن أنك وأنت ولد صغير لم تحب ذلك حين قبَّلتْك أُمُّكَ. هل أنا محقَّة؟ حنيْتَ رأسك، وتركتها تقبِّل جبهتك، ليس إلا؟ ولم يقبلك زوج أمك الهولندي أبدًا؟ ودْتَ أن تكون رجلًا صغيرًا منذ البداية، رَجُلك الصغير لا يدين بشيء لأحد؛ صناعة ذاتية. هل كانَا، أمك وزوجها الجديد، يثيران اشمئزازك؛ نفَسُهما، رائحتُهما، تودُّدُهما وتدليلُهما؟ كيف يمكن على هذه الأرض أن تتوقع مِن واحدة مثل ماريانا يوكتش أن تحب رجلًا يَنْفُرُ كل هذا النفور من الجسدي؟

يعترض ببرود: لا أنفر من الجسدي. ما كان يريد إضافته، ولم يضفه: أنفر من البشاعة. ما تظنين فيما تكمن الحياة منذ طريق مَجيل سوى أني أحشَر في الجسدي يومًا بعد يوم؟ إنه عهد لإيماني بالجسدي لم تَتملَّص نفسي منه، ما زلتُ هنا.

يتضح حتى وهو يتكلم ما كانت تعنيه المرأة بصندوق الكلمات. يفكر، تتملص نفسي منه؟ يا له من تعبير مُصطَنع! يا له من تعبير مُراءٍ! ككل الاعترافات التي تستدرجني إليها! وفي اللحظة نفسها يفكر: إذا سَنحَت لنا ولو خمس دقائق أخرى، في عصر ذلك اليوم، لو لم تأتِ ليوبا لتجوس كَجَرْو حراسة، لقبَّلتْه ماريانا. كانت القُبلة آتية، أنا متأكِّد، شعرتُ بها في عظامي. لانحنَتْ ومسَّتْ شفتاها كتفي برفق، ويكون كل شيء بعد ذلك على ما يرام، لكنتُ ضممْتُها؛ لعرفتُ أنا وهي معنى أن نستلقي جنبًا إلى جنب، صدرًا إلى صدر، كل منا بين ذراعي الآخر، يتنفس كل منا نفَس الآخر. الوطن البلد.

– ألن تسلِّم بول (ما زالت المرأة تتكلم)، بأني حافظتُ على روح الدُّعابة بشكل رائع تمامًا، منذ اليوم الذي وقفتُ فيه أمام باب بيتك حتى اليوم؟ لا شتيمة، لا كلمة نابية، بل الكثير من النِّكات، وخميرة من التَّملُّق الأيرلندي. دعني أسألك: ما رأيك في طبيعتي؟

يمسك لسانه؛ ذهنه في مكان آخر، لا تهمه طبيعة إليزابيث كُسْتِلُّو.

– أنا مخلوقة عجوز سريعة الغضب بالطبيعة، بول، أَصِل إلى أسود أشكال الغضب. أَفْعَى في الحقيقة، ولكني أخذتُ عهدًا على نفسي أن أكون طيِّبة وأن أكون حِملًا خفيفًا يمكن أن تتحمله. لكنها كانت معركة، صدِّقْني. في مرات كثيرة كَبحتُ ثورة الغضب في داخلي. تظن أن ما تفوهتُ به أسوأ ما يمكن أن يقال لك؛ إنك بطيء كالسلحفاة، شديد الحساسية

للخطأ؟ يوجد كثير مما هو أعنف من ذلك، صدِّقْني. ما نقوله حين يعرف شخص أسوأ ما فينا؛ الأسوأ والأكثر جرحًا، ولا يتفوه به بل يكتمه ويستمر في الضحك علينا والسخرية منا، ندعوه تعاطفًا. في أي مكان آخر من هذا العالم، في هذه المرحلة المتأخرة، ستجد تعاطفًا أيها الرجل العجوز البشع؟ نعم، هذه الكلمة تنطبق عليَّ أيضًا، بشعة. نحن الاثنان بشعان، بول، عجوزان بشعان، بقدر ما نود أن نمسك بأيادينا جمال العالم كله. لا يخمد ذلك التَّوق فينا أبدًا، لكن جمال العالَم كله لا يريد أحدًا منا؛ وعلينا أن نكتفي بالأقل، الأقل بكثير. علينا قبول ما يُعرَض علينا وإلا جُعْنا. وهكذا حين تَعرِض أمٌّ روحيةٌ عطوفٌ أن تنأى بنا عن الوسط الكئيب الذي نحيا فيه، عن يأسنا، أحلامنا المثيرة للشفقة، أحلامنا المستحيلة، علينا أن نراجع أفكارنا قبل أن نركلها.

– أمهلك يومًا، بول، أربعًا وعشرين ساعة، لتفكر مرة أخرى. إذا رفضْتَ، إذا صممتَ على السير في طريقك الحالية المسدودة؛ فسأريك ما يمكن أن أفعله، سأريك كيف يمكن أن أبصق.

ساعتُه تشير إلى الثالثة والربع، لم يتبق على الفجر إلا ثلاث ساعات، لكن كيف يمكن أن يقتل ثلاث ساعات على هذه الأرض؟

ثمة ضوء في غرفة المعيشة. تجلس إليزابيث كُسْتِلُّو نائمة على الطاولة التي استولَت عليها، رأسها بين ذراعيها فوق كمية من الورق.

يميل تمامًا إلى تركها وحدها. آخر ما يريده هو أن يوقظها ويتعرَّض للمزيد من تعليقاتها اللاذعة. ضجرَ من تعليقاتها اللاذعة. يشعر نصف الوقت وكأنه دب عجوز مسكين في مُدرَّج روماني قديم، لا يعرف إلى أين يتجه، الموت من ألف جرح.

ومع ذلك.

ومع ذلك، يرفعها بِرقَّة متناهية، ويضع وسادة تحت رأسها.

في قصص الجِنِّيات، تلك لحظة تَحوُّل الساحرة الشريرة إلى أميرة جميلة، لكنها، من المؤكَّد، ليست قصة من قصص الجِنِّيات. منذ المصافحة الاستكشافية حين التقَيَا، لم يَحدُث تَماسٌّ جسدي بينه وبين إليزابيث كُسْتِلُّو، يبدو شعرها بلا حياة، يفتقر إلى الحيوية. والجمجمة، تحت هذا الشعر، تتواصل في داخلها نشاطات يفضِّل ألا يعرفها.

إذا كان موضوع اهتمامه طفلًا — ليوبا، مثلًا، أو حتى دراجو البارع مُحطِّم القلوب والغدَّار — فقد يُسمَّى الفعل حنانًا، لكنه في حالة هذه المرأة ليس حنانًا، مجرد فعل قد يقوم به عجوز لعجوز آخَر في وضع سيئ، إنساني.

يُفترَض أن إليزابيث كُسْتِلُّو، كأي شخص آخر، تريد أن تحظى بالحب، ويسيطر عليها، كأي شخص آخر يواجه النهاية، شعور بافتقاد شيء، هل هذا ما تصبو إليه معه، بصرف النظر عَمَّا افتقدَتْه؟ هل هذه إجابة سؤاله المتكرِّر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فيا له من أمر مضحك! كيف يمكن أن يكون الجزءَ المفتقَدَ حين تكون حياته هو نفسه مُفتقَدة بالكامل؟ رجل سقط من القارب إلى البحر! ضاع في بحر متلاطم الأمواج بعيدًا على شاطئ غريب.

ابنا كُسْتِلُّو اللذان قرأ عنهما في المكتبة، الابنان اللذان لا تذكرهما، ربما لأنهما لا يحبانها، أو لا يحبانها بشكل كافٍ، هما الآن في مكان ما بعيد. يُفترَض أنهما، مثله، تَعرَّضَا كثيرًا لتعليقات لاذعة من إليزابيث كُسْتِلُّو. لا يلومهما، لو كانت أمه على هذه الشاكلة لابتعد عنها أيضًا.

وحيدة تمامًا في ملبورن في بيت خاوٍ، تدخل أيامها الأخيرة، تَوَّاقة للحب، وتأتي إليه لتنفس عن نفسها وهو ليس إلا رجلًا في ولاية أخرى، مصوِّر معتزِل، غريب بمعنى الكلمة، إضافة إلى أنه عانَى بدوره من صدمة ويحتاج هو الآخر إلى الحب. إن كان هناك تفسير إنساني، إنساني لوضعها، فلا بد أنه هذا. حطَّتْ عليه بشكل عشوائي تقريبًا، كما تحط نَحلَة على زهرة أو دَبُّور على دودة؛ وبشكل ما، بِطرُق مُبهَمة تمامًا، مُلتفَّة يعجز العقل عن اكتشافها، يرتبط الاحتياج إلى الحب وتأليف القصص، أيْ مجموعة الأوراق المُكوَّمة على الطاولة.

يلقي نظرة على ما تكتبه. بحروف ضخمة: (إ. ك. تفكر) روائية أسترالية. يا له من مصير! ماذا يجري في عروق الرجل؟ تحت الكلمات خط بعرض الصفحة يعلِّم بوحشية في الورقة، ثم: بعد تناوُل الطعام يلعبان بالكوتشينة، يستخدمان اللعبة لاكتشاف الاختلافات التي بينهما، تكسب بلنكا. ذكاء حادٌّ ومحدَّد، دراجو لا يجيد لعب الكوتشينة، مُهمِل جدًّا، واثق بنفسه جدًّا. تبتسم ماريانا، مسترخية، مَزهوَّة بابنها. يحاول ب. ر. استخدام اللعبة ليصادق بلنكا، لكنها تتراجع. ترفض ببرود شديد.

وجبة ثم لعب بالكوتشينة. ب. ر. وبلنكا. هل يصبحون أسرة واحدة رغم كل شيء، هو بالماء المثلَّج في عروقه وآل يوكتش بعروقهم التي تَتدفَّق فيها الدماء؟ ماذا أيضًا يشغل ذهن كُسْتِلُّو من تخطيط؟

تنام الكاتبة، تَجوس الشخصية بحثًا عن شيء يشغلها. نكتة، ليس هناك مَن يفهمها.

يرقد رأس الكاتبة المشغول مستريحًا على وسادة. من صدرها، إذا أنصتَ، يسمع أزيزًا ضعيفًا أثناء دخول الهواء وخروجه. يطفئ اللمبة، يبدو أنه يتحول إلى شخص ينام في الصباح الباكر ويستيقظ في ساعات الظلام؛ ويبدو أنها شخصية تستيقظ إلى وقت متأخِّر، تغزل خيالاتها في الليل. كيف يَمكثان معًا في بيت واحد؟

٢٩

يقول: ليست زيارة بلا استئذان، لا أحب من يزورني بلا استئذان، وأنا نفسي لا أزور أحدًا بلا استئذان.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: ومع ذلك، اكسر القاعدة مرة؛ إنها أكثر تلقائية بكثير من كتابة الخِطابات، وأكثر ودًّا بكثير. بأية طريقة أخرى يمكن أن ترى عَروسك الروحية على أرض الوطن، عندها؟[١]

يعود بذاكرته إلى الطفولة، إلى بلَّرات قبل انتشار التليفونات، حين كانوا، الأربعة، يركبون شاحنة الهولندي الرينو الزرقاء عصر الأحد وينطلقون في زيارات بلا استئذان. يا لها من فترة مملة! الزيارات الوحيدة التي يتذكرها بكثير من المتعة كانت إلى مزرعة صغيرة لصديق زوج أمه، صديقه البستاني أندريه متيجا، في مزرعة آل متيجا، بين خيوط العناكب في الفراغ الضيق وراء تَنْك الماء الضخم، مع برنِّي متيجا قام بأول استكشافاته اللاهثة للاختلاف بين الذَّكر والأنثى.

– تعال الأحد القادم، وعدٌ، تَهمِس برني متيجا وقد انتهَت الزيارة، وشربوا عصير التوت وتناولوا الكعك باللَّوز، وهم عائدون إلى الشاحنة مُحمَّلِين بالطماطم أو البرقوق أو البرتقال من حديقة آل متيجا، لينطلقوا عائدين إلى طريق وِرَّامُنْدا. وكان يهز كتفيه (مش عارف) يقول، ووجهه جامد، مع أنه كان يَتحرَّق شوقًا لمواصلة الدروس.

أعلنَت أخته من مقعدهما المؤقت على ظهر الشاحنة: كان بولي وبرني يلعبان لعبة الدكتور مرة أخرى

---

[١] بالفرنسية في الأصل.

اعترض ووكزها في ضلوعها: لم نكن!

قالت أمه مُحذِّرة: اهدءُوا يا أطفال.[٢] أما الهولندي، وقد جلس خلْف عجلة القيادة محاولًا تفادي النتوءات والحُفر في طرق آل متيجا، فلا يسمع أبدًا.

كان الهولندي يقود الشاحنة على الرابع بأقل سرعة. هذه نظريته في القيادة، تَعلَّمها في هولندا، حين يَصلون إلى الهضاب، يُزمجِر محرِّك الشاحنة ثم يتوقف؛ فتَصطَف السيارات الأخرى خَلْفهم ويَصدُر منها صياح، لم يكن الصياح يؤثِّر فيه، كان يقول بصوته الهولندي المزعج: اضغط باستمرار، اضغط! إنهم مجانين! إنهم يُبدِّدون البنزين، جميعًا![٣] لم يكن ليبدد البنزين من أجل أي شخص، وهكذا كانوا يزحفون في الظلام بلا أضواء للحفاظ على البطارية.

– أوه لا لا، إنهم يبددون البنزين![٤] كان يتهامس هو وأخته على ظهر الشاحنة التي تفوح منها رائحة زهرة الدهلية العفنة. ناطقًا الحروف الساكنة بطريقة الهولندي البربرية، شخيرًا وضحكًا، حابسًا الشخير، والسيارات الحقيقية، هولدن وشيفورليه واستدبيكر، تسرع وتتخطَّاهم. «خره، خره، خره!».[٥]

اعتاد الهولندي ارتداء شورت، لا شيء يحير أكثر من الهولندي في الشورت الواسع بساقيه الشاحبتين وجوربه المربعات الواصل إلى الكاحل بين الأستراليين الحقيقيين. لماذا تزوجته أمهما؟ هل تتركه يفعل بها فِعلته في غرفة النوم في الظلام؟ حين يفكران في الهولندي بشيئه يفعل فِعلته مع أمهما يغمرهما إحساس بالعار والغضب.

كانت شاحنة الهولندي الرينو الوحيدة في بلَّرات. اشتراها مستخدَمة من هولندي آخر. رينو، السيارة الاقتصادية أكثر من غيرها، قد ينطلق بها، مع أنه كان هناك باستمرار عطل في الشاحنة، وكانت دائمًا عند الميكانيكي في انتظار وصول قطعة غيار من ملبورن.

لا توجد في أدليد شاحنات رينو. لا توجد برني متيجا، ولا لعبة الدكتور. الشيء الحقيقي فقط. هل يقومان بآخِر زيارة بلا استئذان لاستعادة الأيام القديمة؟ كيف يتعامل آل يوكتش مع الزيارة؟ هل يَصفعان الباب في وجه الزائرِين المدهشين، أمْ أنهم، وقد أتوا

---

[٢] بالفرنسية في الأصل.

[٣] بالفرنسية في الأصل.

[٤] بالفرنسية في الأصل.

[٥] بالفرنسية في الأصل.

عمومًا من العالم نفسه، الذي أتي منه آل متجيا، عالم انتهى أو ينتهي، سيُرحِّبون بهما ويُقدِّمون لهما الشاي والكعك ويُودِّعونهما إلى بيتيهما مُحمَّلين بالهدايا؟

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: بعثة حقيقية. قارَّة منو بارا المظلمة، أنا متأكدة من أنها ستنتزعك من نفسك.

يقول: إذا قمنا بزيارة منو بارا فلن يكون ذلك لِكَي تنتزعني من نفسي. لا شيء في داخلي أودُّ الهروب منه.

تواصل إليزابيث كُسْتِلُّو: وسيكون رائعًا أن تدعوني للذهاب معك. هل تفضل أن تذهب وحدك؟

يفكر، اجتماعية باستمرار. يا لَه من أمر مرهق أن يعيش مع واحدة اجتماعية بكل هذا الإصرار.

يقول: لا أحلم أن أذهب بدونك.

اعتاد في سنوات مضت قيادة الدراجة عبر منو بارا في الطريق إلى جولر. لم يكن هناك إلا بضعة بيوت موزعة حول محطة بنزين، وراءها أرض بها أشجار قصيرة. تمتد الآن مجموعات من البيوت الجديدة على امتداد البصر.

سبعة ممر نَزَّابِنجا، هذا هو العنوان المكتوب على النماذج التي يوقعها لماريانا، يصل بهما التاكسي أمام بيت على طراز المستعمَرات بسياج أخضر حول حديقة يابانية صغيرة مستطيلة غاية في البساطة: لوح من الرخام الأسود تتقاطر عليه المياه، سمار، حصى رمادي (تحثه إليزابيث كُسْتِلُّو، وهي تنزل من السيارة: واقعي إلى هذه الدرجة! حقيقي إلى هذه الدرجة! هل تَودُّ أن أعطيك يدًا؟)

يمرر له السائق عكازيه؛ يدفع له الأجرة.

يُفْتَح الباب بعرض اليد؛ تنظر إليهما بشك فتاة مُتبلِّدة شاحبة الوجه في مِنخارها حَلَق، يَفترِضُ أنها بلنكا، الطفلة الوسطى، لِصَّة المحلات، مَحميته بالصدفة. كان يأمل أن تكون جميلة كأختها. لكن لا، ليست جميلة.

يقول: أهلًا. أنا بول ريمنت. هذه مسز كُسْتِلُّو. كنا نأمل في رؤية أمك.

تختفي الفتاة ولا تتفوه بكلمة. ينتظران وينتظران على عتبة الباب، لا يحدث شيء.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو في النهاية: أحسب أن علينا أن ندخل.

يدخلان غرفة للمعيشة مَفروشة بجلد أبيض، في أحد جوانبها شاشة تليفزيون كبير وفي جانب آخر لوحة تجريدية كبيرة، دوَّامة من البرتقالي والليموني الأخضر والأصفر أمام حقل أبيض، تدور مروحة أعلى الرأس، لا دُمى في زيٍّ شعبي، لا مَشاهد لغروب الشمس على الأدرياتيكي. لا شيء يذكِّرُ المرء بالبلاد القديمة.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو مرة أخرى: حقيقي إلى هذه الدرجة! مَن كان يظن ذلك!

يَفترِضُ أن هذه الإشارات إلى الحقيقي مُوجَّهة إليه بمعنًى ما؛ يفترض أنها تحمل سخرية، لا يمكن أن يُخمِّن الهدف من ورائها.

تضع بلنكا المفترَضة رأسها قرب الباب. تترنم: إنها قادمة، وتنسحب.

لم تبذل ماريانا أي جهد لتُجمِّل نفسها. ترتدي جينزًا أزرق وبلوزة بيضاء من القطن لا تفعل شيئًا لخصرها المتلئ. تتحدث بلا مُقدِّمات: هكذا تأتي بسكرتيرتك. ما تريد؟

يقول: ليس القصد منها أن تكون مُواجَهة. عندنا مشكلة بسيطة، وظننْتُ أن أفضل وسيلة لحلها قد تكون إجراء حديث هادئ. إليزابيث ليست سكرتيرتي ولن تكون أبدًا. مجرد صديقة. أتت معي لأنه يوم رائع، واعتقدنا أن علينا القيام بجولة.

تقول إليزابيث: جولة في البلد، كيف حالك ماريانا؟

– حسن. هكذا، اجلسا. تريدان بعض الشاي؟

– أتوق إلى كوب شاي، وكذلك بول. إذا كان هناك ما يَفتقِده بول من طريقة الحياة القديمة فهو الهبوط على الأصدقاء لتناوُل كوب شاي.

– نعم، تعرفني إليزابيث أفضل مما أعرف نفسي. لا أحتاج إلى فتح فمي.

تقول ماريانا: هذا رائع. أعمل الشاي.

الستائر في مواجهة الشمس الحارقة، لكنهما يريان من خلال الفتحات شجرَتَي صمغ طويلتين في الفناء، بينهما أرجوحة معلقة وخالية.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: أسلوب حياة. أليس هذا ما يقولونه في هذه الأيام؟ لأصدقائنا من آل يوكتش أسلوب حياة يتحمسون له.

يقول: لا أعرف لماذا تهزئين؛ من المؤكَّد أن المرء مؤهَّل لأسلوب حياة في منو بارا كما هو مؤهَّل له في ملبورن. وإلا لماذا غادروا كرواتيا إن لم يكن من أجل أسلوب حياة يختارونه؟

– لا أهزأ، بالعكس، أنا مُعجَبة تمامًا.

تعود ماريانا بالشاي. شاي، بدون كيك.

تقول: إذن، لماذا تأتي؟

– هل يمكن أن أتحدث مع دراجو على انفراد؟

تهز رأسها: ليس في البيت.

يقول: حسن. عندي اقتراح أقدمه. مع دراجو مفتاح لشقتي. سأخرج صباح الثلاثاء، سأكون بعيدًا عن البيت معظم اليوم. أخرج في التاسعة ولن أعود قبل الثالثة. يمكن أن تُخبِري دراجو بأنه سيكون رائعًا أن أجد، حين أعود إلى البيت، كل شيء كما كان من قبل.

صمت طويل. تنتعل ماريانا صندلًا أزرق من البلاستيك. الصندل أزرق وأظافر القدمين أرجوانية: قد يكون مصورًا فوتوغرافيًّا سابقًا، وقد تكون ماريانا مُرمِّمة صور سابقة، لكن الجماليات عندهما تنتمي لعالَمَين متباعِدَين. وأشياؤهما الأخرى، بالمثل، من عوالم متباعِدة أيضًا. موقفُهما تجاه ما يَخصُّني وما يَخصُّك، مثلًا. امرأة حَلَم باغتنامها من زوجها، أريد أن أرعاكِ، أريد أن أمد جناح الحماية عليكِ، ماذا يمكن أن يكون حقًّا، رعايتها ورعاية ابنتيها العدوانِيَّتَين وابنها المخادِع؟ كم يبقى، هو وجناح الحماية؟ من ناحية الأخرى ... من ناحية أخرى، كم أنَّ ثدييها رائعان، كم هما جميلان!

تقول ماريانا: لا أعرف شيئًا عن هذا المفتاح. تعطي دراجو مفاتيح؟

– كان مفتاح الباب الخارجي مع دراجو أثناء إقامته معي. حين كان يستخدم شقتي. مَعك مفتاح ومع دراجو مفتاح آخر؛ يستطيع أخْذ أشياء من الشقة ويستطيع إعادة أشياء، سواء كنتُ في البيت أو لم أكن، مستخدمًا مفتاحه، لا أستطيع أن أفصح بصورة أوضح.

على الطاولة ولاعة سجائر من الكروم، على شكل صَدَفة، تشعل ماريانا سيجارة، تقول مخاطِبة إليزابيث: لديك أنتِ الأخرى شكاوى؟ أنتِ أيضًا تعتقدين أن ابني لص؟

تهز إليزابيث كَتِفها بطريقة مسرحية. تقول: لا أعرف ماذا أعتقد، أنا متأكدة. الصغار عُرضة لمثل هذه الإغراءات في هذه الأيام ... كلمة لص ... كلمة كبيرة جدًّا، ثقيلة جدًّا، قاطعة جدًّا. في أمريكا يستخدمون كلمة سرقة. سرقة كبيرة، سرقة تافهة، وبينهما كل الدرجات. أخمِّنُ أن بول يعتقد أنها سرقة تافهة، من أتفه السرقات، تافهة حتى إنها قد تعتبر استعارة، أليس هذا ما تود قوله بول؟ استعار دراجو أو على الأرجح أحدُ أصدقائه شيئًا أو شيئين وتودُّ استعادتهما؟

يومئ.

تقول ماريانا: من أجل هذا تأتي؟ لا تليفون، تَقرَع الباب مثل البوليس؟ ماذا يأخذ؟ ماذا تقول أنه يأخذ؟

– صورة فوتوغرافية، من المجموعة. من صور فوشي. وضَع نسخة مُزوَّرة مكان الأصلية، نسخة مُعدَّلة لغرض لا أعرفه، ونحن لسنا البوليس، هذا مضحك، البوليس لا يأتي في تاكسي.

تتجه ماريانا إلى التليفون. هل تصرفهما؟ لم ينتهِ حتى من شرب الشاي. تقول: أصلية؟ ما هذا الشيء، صورة فوتوغرافية أصلية؟ تضبط الكاميرا، تضغط الزر، تعمل نسخة. هكذا تعمل الكاميرا. الكاميرا كماكينة التصوير، وهكذا ما الأصلية؟ الأصلية مجرد نسخة. الأمر لا يشبه الرسم.

– هذا هُراء ماريانا، سَفسطة، صورة فوتوغرافية ليست الشيء نفسه، ولا اللوحة، بعمل نسخة من أي منهما، نعمل شيئًا جديدًا، جديدًا حقًّا، جديدًا في العالم، نسخة أصلية جديدة. فَقدتُ الطبعة الأصلية وهي ذات قيمة بالنسبة لي وأريد استردادها.

– أتكلم هراء؟ تصنع صورة فوتوغرافية، أو هذا الرجل، ماذا تقول، فوشي، يصنع صورة فوتوغرافية، ثم تَعمل طبعات، اثنتين ثلاثًا أربعًا خمسًا، وكل هذه الطبعات أصلية، المرات الخمس أصلية، المرات العشر أصلية، المرات المائة أصلية، ليست نسخًا؟ ما الهراء الآن؟ تأتي إلى هنا وتقول على دراجو أن يجد الأصول؟ لماذا؟ لتموت وتعطي الأصول للمكتبة؟ لتكون شهيرًا؟ مستر ريمنت الشهير؟ تتجه إلى إليزابيث كُسْتِلُّو. مستر ريمنت يعرض علينا فلوسًا. تعرفين ذلك؟ يعرض أن يبعدني عن التمريض. يعرض علينا جميعًا حياة جديدة، يعرض على دراجو مدرسة جديدة، مدرسة خيالية في كنْبرا، يعرض أن يدفع، الآن يقول إننا نسرقه.

– هذه نصف الحقيقة فقط، عرضتُ أن أرعاك، عرضتُ أن أرعى أطفالك أيضًا، لكني لم أعرض حياة جديدة، لستُ غبيًّا إلى هذه الدرجة، لا شيء اسمه الحياة الجديدة، لنا حياة واحدة فقط، حياة لكل منا.

– إذن لماذا تقول إن دراجو يسرق؟

– لا أعتقد أني استخدمتُ أبدًا كلمة يسرق، وإن كنتُ استخدمتها فأنا أسحبها بلا تَحفُّظ. نقلَ دراجو، أو على الأرجح شون صديق دراجو، صورة فوتوغرافية من مجموعتي، استعارها، وَضع نسخة معدَّلة، لا أنوي أن أعرف كيف، تفهمين هذه الأشياء أفضل مني. والآن أريد استعادة النسخة الأصلية، ولن تكون هناك بعد ذلك طلبات أخرى ويعود كل شيء إلى سابِق عهده، يمكن أن يأتي دراجو زائرًا، يمكن أن يأتي أصدقاؤه زائرين، يستطيع أن يمكث طوال الليل إن أحب. ليس جيدًا، ماريانا، أن يعتاد على الاستعارة وعدَم الرَّد، ليس جيدًا بالنسبة لولد يافِع، لن يتحملوا ذلك في مدرسته الجديدة، ولنجتون كولج.

– انتهت ولنجتون. ليس لدينا فلوس لولنجتون.

– عرضتُ أن ادفع لولنجتون، وما زال عرضي قائمًا. لم يتغير شيء. سأدفع لأشياء أخرى أيضًا. الفلوس ليست القضية.

– إن لم تكن الفلوس، إذن لماذا تغضب بهذه الصورة؟ لماذا تأتي وتَقرَع الباب؟ الأحد وتأتي تقرع الباب مثل البوليس، تَقرَع تَقرَع.

لم يكن يجيد المناقَشات أبدًا، النساء خاصة يَخنقنه في مناقَشة. ومن المؤكد أن ذلك كان صحيحًا في حالة زوجته. يعرف الآن السبب الذي قد يكون وراء انتهاء الزواج، ليس لكثرة المناقشات ولكن لأنه خسرها دائمًا. ربما لو كسب مناقشة واحدة لاستمر هو وأنريت معًا. كم هو مُمِل أن ترتبط برجل لا يستطيع حتى أن يقاوِم في معركة!

والحال كما هو مع ماريانا. ربما تريد ماريانا أن يحاول بمزيد من الصلابة. ربما تود من أعماق قلبها أن يكسب، إذا استطاع إعادة التوازن فربما استمر ارتباطه بها.

– لا أحد غاضِب، ماريانا! معي خطاب لتوصيله، واعتقدتُ أن إحضاره بنفسي قد يكون أسرع. أتركه هنا — يضع الخطاب على طاولة القهوة — مُوجَّه إلى مِلْ. يمكن أن يقرأه على مهله. اعتقدتُ أيضًا — يلقي نظرة إلى إليزابيث كُسْتِلُّو — اعتقدْنَا أيضًا أنه قد يكون رائعًا أن نهبط عليكم لتناول كوب شاي والحديث معكم، كما اعتاد المرء أن يفعل في الأيام الخوالي. ممارسة رائعة، اجتماعية، وُدِّية، من المؤسف أن تنتهي.

لكن إليزابيث كُسْتِلُّو لا تساعد. تَميل إليزابيث كُسْتِلُّو إلى الخلف، تُغلِق عينيها، شاردة. حمدًا للرب أن ليوبا ليست قريبة لتصوب له إحدى نظراتها.

تقول ماريانا: مَنْ يأتون يَقرعون الباب هم رجال البوليس فقط، لو تتصل بالتليفون أولًا، تقول إنك آتٍ لتناول الشاي، فلا تثير الفزع، مثل البوليس.

– أثير رعبك؟ نعم، آسف! كان علينا أن نتصل.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو، مستيقظة: أوافق. كان علينا أن نتصل. هذا ما كان علينا أن نفعله. هذه غلطتنا.

صمتٌ. هل هذه نتيجة المباراة؟ واضح أنه خسر؛ لكن هل خسر بشرف، بشرف كافٍ لخوض جولة أخرى، أم خسر خسارة مُذلَّة؟

تقول ماريانا: تريد التاكسي؟ تريد أن تطلب التاكسي؟

يتبادل وكُسْتِلُّو المرأة النظرات. تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: نعم. إن لم يعد عند بول ما يقوله هنا.

يقول: لم يعد عند بول ما يقوله هنا، جاء بول على أمل استعادة صورته، وبول يقر من الآن بعجزه.

تنهض ماريانا، تُلوِّح بغطرسة، تقول: تعالَ! تريد أن ترى أيَّ لص هو دراجو، أريك.

يحاول النهوض من الكنبة، لا تتحرك لمساعدته مع أنها ترى الجهد الذي يبذله. يلقي نظرة على إليزابيث كُسْتِلُّو. تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: واصلْ، سأبقى هنا حابسة أنفاسي قبل أن يبدأ الفصل التالي.

يناضل ليقف. ماريانا على السلم في منتصف الطريق. يتبعها خطوة خطوة، قابضًا على الدرابزين.

خاص، تقول اللوحة المبهرجة على الباب، هذا يعنيك. تقول ماريانا: غرفة دراجو، وتفتح الباب فجأة.

الغرفة مُؤثَّثة بشكل عملي من خشب الصنوبر الأبيض: سرير، مكتب، مكتبة، جهاز كمبيوتر بكل متطلباته، لا يمكن أن تكون أنظف ولا أكثر ترتيبًا.

يقول: رائعة جدًّا. مرتَّبة تمامًا. أنا مندهش. لم يكن دراجو أبدا مرتَّبًا بهذه الصورة وهو يقيم معي.

تهز ماريانا كتفها: أقول له، مستر ريمنت يتركك تخطئ ولهذا ستحبه، لكن هنا لا تخطئْ، ليس ضروريًّا، هنا بيتك. أقول له أيضًا: تريد أن تذهب إلى الأسطول، تريد أن تعيش في البحر، تعلَّمْ أن تكون مرتَّبًا.

– صحيح. إن أردْتِ أن تعيشي في البحر فمن الأفضل أن تكوني مُرتَّبة. هل هذا ما يريد دراجو أن يفعله، يعيش في البحر؟

تهز ماريانا كتفها مرة أخرى: مَن يعرف؟ صغير، مجرد طفل.

رأيه الخاص في موضوع دراجو، وهو رأي لا يبوح به، هو أنه يحافظ على غرفته في شكل سفينة، لأن أمه ربما تراقبه مراقبة شديدة باستمرار. مرعبة تمامًا، ماريانا يوكتش، حين تريد أن تكون مرعبة. حضور تام تحمله معك في المستقبل.

على الحائط فوق سرير دراجو ثلاث صور فوتوغرافية مُكبَّرة في حجم المُلصَق، اثنتان من أعمال فوشي: مجموعة عمال المناجم؛ والنساء والأطفال في مدخل الكوخ الخشبي، والثالثة ملونة، بها ثمانية أجسام لذكور، أجسام رشيقة مُعلَّقة وسط الهواء كأنها تسبح في حوض.

تقول ماريانا: هكذا. ويداها على «وركيها» تنتظر أن يتكلم.

يخطو مقتربًا من الصورة الفوتوغرافية الثانية ويفحصها، مركَّب على جسد الفتاة الصغيرة ذات اليدين القذرتين وجه ليوبا، تقتحمه عيناها القاتمتان. التنفيذ ليس رائعًا: لا يتوافق اتجاه الرأس تمامًا مع وضع الكتفين.

تقول ماريانا: مجرد لعب. ليس شيئًا خطيرًا. مجرد، كيف تقولها؟ زلات.

– أشكال. صور.

– مجرد صور. لعب بالصور على الكمبيوتر، ما اللص في ذلك؟ شيء حديث. صور، لمن تنتمي؟ تريد أن تقول، أوجِّهُ الكاميرا إليكَ — تصوب إصبعًا إلى صدره — أنا لصة، أسرق صورك؟ لا؛ الصور بالمجان، صورتك، صورتي. ما يفعله دراجو ليس سرًّا. هذه الصور الفوتوغرافية — تشير إلى الصور الثلاث المعلَّقة على الحائط — كلها في موقعه على الإنترنت. تريد أن ترى الموقع؟

تشير إلى الكمبيوتر الذي يطن بهدوء.

يقول: لا من فضلكِ. لا أفهم في الكمبيوترات. يستطيع دراجو أن يعمل كل النسخ كما يحب، لا يهمني، كل ما أريده استعادة الأصول، الطبعات الأصلية. الطبعات التي لمستها يد فوشي.

– الأصول. تبتسم فجأة ابتسامة لا تخلو من عطف، وكأن قد تبين لها أنه إن كان لا يفهم في الكمبيوترات أو مفهوم الأصلي أو أي شيء آخر، فذلك ليس لأنه عنيد بل لأنه أحمق. حسن. حين يعود دراجو أسألُه عن الأصول. تتوقف. تقول: إليزابيث، تأتي تعيش معك الآن؟

– لا، ليست لدينا خطة بشأن ذلك.

ما زالتْ تبتسم. لكن قد تكون فكرة طيبة. حتى لا تكون وحيدًا حين تأتي، تعرف، الطوارئ.

تتوقف مرة أخرى، وفي هذه الوقفة ينتابه شعور بأنها ربما لم تصعد به السلالم لمجرد أن تريه صور دراجو.

– أنت رجل طيب مستر ريمنت.

– بول.

– أنت رجل طيب بول. لكنك صرْتَ وحيدًا جدًّا في شقتك تعرف ما أقصد؟ أنا أعاني من الوحدة أيضًا، في كوبر بدي، قبل أن نأتي إلى أدليد، وهكذا أعرف، أعرف. أجلس في البيت طوال اليوم، الأطفال في المدرسة، طفلة صغيرة وأنا فقط — كانت ليوبا صغيرة — أنت، تعرف، تخسر. وهكذا ربما أنت أيضًا تخسر في شقتك. لا أطفال، لا أحد ... جدًّا.

– كئيب جدًّا؟

تهز رأسها: لا، لا أعرف كيف تقولها. تنتزع. أي شيء يأتي، تنتزع. بيد واحدة تريه كيف ينتزع المرء.

يقترح: تتعلق بقشَّة. هذا أول إعلان تصرح به بأن الإنجليزية التي تستخدمها، كبديل مُؤقَّت، لا تلبي احتياجاتها. لو يستطيع الحديث بالكرواتية! بالكرواتية، ربما استطاع أن يغني من القلب. الوقت متأخر جدًّا على التعلم؟ هل يمكن أن يجد مدرِّسًا هنا في أدليد؟ الدرس الأول: الفعل يحب، ليوب أو مَهما يكن.

تقول: على أية حال، تأتي إليزابيث تعيش معك وتنسى ماريانا. انسَ الأب الروحي أيضًا. ليست فكرة جيدة، الأب الروحي، لا تبدو واقعية؛ لأنه أين يعيش، هذا الأب الروحي؟ تريد أن يأتي الأب الروحي يعيش في ممر نرابنجا؟ ليست واقعية ترى؟

– لم أطلب أبدًا أن آتي وأعيش معك.

– تأتي تعيش هنا، أين تنام؟ تنام في سرير دراجو، أين ينام دراجو؟ أمْ تريد أن تنام معي أنا ومِلْ، رجلان، امرأة؟ تنفجر بالضحك. تريد ذلك؟

لا يستطيع أن يضحك. حلقه جاف. يهمس: يمكن أن أعيش في الفناء الخلفي. يمكن أن أضع سقيفة. يمكن أن أعيش في سقيفة في الفناء الخلفي وأرعاكم. أرعاكم جميعًا.

تقول برشاقة: حسن، كفى كلامًا. تأتي إليزابيث تعيش معك، تصلح كل شيء. ولا يكون هناك مزيد من الكئيب.[٦]

– الكآبة.

– لا مزيد من الكآبة. كلمة مضحكة. في كرواتيا نقول أوفج جلومي، لا تعني أنه كئيب، لا، تعني أنه زائف، غير حقيقي. لكنك لسْتَ زائفًا، إيه؟

– لا.

– أيوه، أعرف ذلك. ويا لدهشته، وربما يا لدهشتها أيضًا، تقف على أطراف أصابعها وتعطيه قبلة، قبلتين، واحدة على كل خد.

– تعالَ، ننزل الآن.

[٦] الكلمة بالإنجليزية gloomy، ومن هنا تأتي كلمة جلومي في كلام ماريانا عن معنى الكلمة بالكرواتية.

٣٠

إليزابيث كُسْتِلُّو ليست وحدها. بجوارها شخص غريب. رجل في أفرول واسع، رأسه مختبئ تحت ما يبدو كأنه دلو من قماش القنَّب. يبدو أن الرجل يتكلم، لكن القناع يفسد كلماته بصورة يستحيل إصلاحها.

تقطع ماريانا الأرضية فجأة. زَبوجا، زار أوبت! تَتعجَّب، ضاحكة. شعره مشبوك! كُلَّما يلبسه — تشير إلى غطاء الرأس الغريب — يشبك شعر رأسه، ويكون عليَّ ... تأتي أصابعها بحركة لولبية.

تمسك الرجل من كتفيه؛ إنه ميروسلاف. تلفه، وتبدأ تخليص القناع من شعره الطويل. يفرد ميروسلاف يديه إلى الخلف، متلمسًا «وركيها». تتمايل مبتعدة عن طريقه، وتخلص القناع. يرفعه؛ وجهه متوهج من الحرارة، يبدو في حالة مزاجية طيبة.

يفسر: النحل. كنتُ أنقل الخلايا.

تقول ماريانا: زوجي مُربِّي نحل. تقابل زوجي؟ مسز كُسْتِلُّو، صديقة مستر ريمنت. مِلْ.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: كيف حالك، مِلْ. سمعْتُ عنك لكن لم نلتقِ أبدًا بلحمنا وشحمنا، إذا جاز التعبير. تربي نحلًا؟

يقول مِلْ أو ميروسلاف: مجرد هواية.

تقول ماريانا: زوجي، عائلته تربي نحلًا دائمًا. أبوه، ومن قبله جده. وهو أيضًا يربي نحلًا، هنا في أستراليا.

يقول مل: خلايا قليلة، لكنه عسل طيب، من شجر الصمغ أساسًا. له نكهة الأوكالبوتس، تعرفون.

تقول البساطة بين الاثنين كل شيء، إضافة إلى ضحكة ماريانا وحرية أصابعها في شعره، ليسا زوجَين متباعدَين إطلاقًا. بالعكس، أليفان. علاقة ألفة مع مُشاجَرة من وقت لآخر، أسلوب بلقاني، لإضافة بعض التوابل: اتهامات، اتهامات مُضادَّة، أطباق تُكسَر، وأبواب تُصفَع. يتبعها ندم ودموع، يتبعها ممارسة حب دافئ. إن لم تكن كل قصة المشاجرة والهروب إلى العمة ليداي كذبةً، فَبْرَكةً. لكن لماذا؟ هل هو موضوع لخطة ممتدة، خطة لم يفهمها؟

يقول مل: حَرٌّ جدًّا في الأفرول. سأغيره. يتوقف. تأتيان لتريا الدراجة؟

يقول: الدراجة؟ لا. أية دراجة؟

تقول إليزابيث: نحب أن نرى الدراجة. أين هي؟

يقول مِلْ: لم تكتمل. لم يعمل فيها دراجو منذ مدة. شيئان ناقصان. لكن يمكن أن تُلقِيا نظرة، ترياها لأنكما قطعتما كل هذا الطريق. لن يبالي.

تقول إليزابيث: نحب ذلك. كان بول يتطلع لذلك بلهفة.

– هيا إذن. نلتقي في الخارج.

يتجمعون خارج البيت. ينضم إليهم ميروسلاف، مرتديًا شورتًا وصندلًا وتي شيرت عليه اسم فريق فلفولين. يرفع باب الجراج. تقف الكومودور الحمراء المعروفة وبجانبها ما يسميه ميروسلاف دراجة.

تتعجب إليزابيث: يا، يا! يا لها من أداة غريبة! كيف تعمل؟

يدفع ميروسلاف الآلة خارج الجراج، ويلتفت إليه مبتسمًا. ربما يمكن أن تقدم تفسيرًا.

يقول: هذه ما يسمونها دراجة معدَّلة. في هذا الطراز لا تستخدم البدَّال، تدير الكَرَنْك بيديك بدلًا من ذلك.

تقول إليزابيث: صنعها دراجو؟ كلها وحده؟

يقول ميروسلاف: أيوه. لم أعمل إلا الطلاء بالنحاس. في المحل، يحتاج الطلاء بالنحاس إلى متخصص.

تقول إليزابيث: حسن، يا لها من هدية رائعة. ألا تعتقد ذلك بول؟ تجعلك حرًّا مرة أخرى. حرًّا في الخروج للتجول.

تقول ماريانا: يريد دراجو أن يقول لك شكرًا. شكرًا لك مستر ريمنت على كل شيء.

كل العيون عليه، على مستر ريمنت، ظهرت ليوبا فجأة. حتى بلنكا، التي نفرت منه في البداية، انضمت إلى المجموعة. جسم نحيف. تتحرك برشاقة. ابنة أبيها. لا جمال، لكن

بعض النساء يكتملن متأخرًا. هل ستشكره بلنكا بدورها؟ هل كانت مشغولة كالنحلة تعد هدية؟ ماذا ستكون؟ محفظة مطرزة؟ ربطة مصبوغة يدويًّا؟

يستطيع أن يشعر بحمرة الخجل تزحف عليه، خجل العار، بداية من أذنيه تزحف إلى الأمام باتجاه وجهه. لا يرغب في إيقافها، إنها ما يستحقه. يقول: رائعة. وكما يُتوقَّع منه؛ ولأنه الشيء الصحيح الذي عليه أن يفعله، يأخذ خطوة إلى الأمام على عكازيه ويتأمل هديته عن قرب. يكرر: رائعة، هدية رائعة. ربما يضيف: سخية أيضًا، لكنه لا يفعل. يعرف ما يدفعه لماريانا؛ يمكن أن يخمِّن ما يكسبه ميروسلاف. أكثر بكثير مما يستحق.

العجلة الأمامية في الحجم المعتاد لعجلة الدراجة. مع مجموعة من السنون وسلسلة؛ العجلتان الخلفيتان أصغر، يلفان فقط. الدَّراجة ذات الثلاث عجلات المرشوشة بالأحمر الزاهي ارتفاعها أقل من متر. في الشارع على الأرجح سيكون راكب الدراجة غير مرئي، تحت خط نظر قائد السيارة. ولذا ثبت دراجو خلف المقعد عصا من الفيبر جلاس في طرفها علم برتقالي. يرفرف فوق رأس راكب الدراجة، علم صغير شجاع لتحذير من هم على شاكلة واين بلايت في هذا العالم.

مُعدَّلة. لم يركب من قبل واحدة منها، لكنه يكره المعدَّل بالغريزة، كما يكره السِّيقان الصناعية، كما يكره كل ما هو زائف.

يقول مرة أخرى: رائعة. أعجز عن التعبير. ممكن آخذها لفة؟

يهز ميروسلاف رأسه. يقول: لا كابلات. لا كابلات التروس، لا كابلات الفرامل. لم يركِّبها دراجو بعد. لكن يمكن أن نضبط المقعد وأنت معنا. ترى، ثَبَّتْنا المقعد على قضيب، بحيث تستطيع ضبطه إلى الخلف أو إلى الأمام.

يترك العُكَّازَين، يخلع السُّترة، يسمح لميروسلاف بمساعدته عن قرب. يبدو الكرسي غريبًا.

يقول ميروسلاف: ماريانا تساعد في عمل الكرسي. تعرف من أَجْل ساقك. تُصمِّمه، ثم ننفذه بالفيبر جلاس.

ليست مجرد ساعات. أيام، أسابيع. لا بد أنهم قضوا أسابيع في صنعها، الأب، الابن؛ والأم أيضًا. حمرة الخجل لم تُفارق وجهه، ولا يريد أن تفارقه.

– لا يمكنك الحصول على مثل هذا الشيء من محلات الدراجات؛ لذا فكَّرنا أن نصنعها وكأنها بناء على طلب العميل. سأعطيك دفعة، حتى تشعر بها. موافق؟ سأعطيك دفعة لكني سأمسكها؛ لأنه، تذكَّرْ، لا توجد فرامل.

يقف المشاهدون جانبًا. يَعدِله ميروسلاف على الطريق المُمهَّد.

يسأل: كيف أقود؟

– بقدمك اليسرى. يوجد قضيب — انظر — بزنبرك، لا تقلق، ستمسك به.

لا سيارات في ممر نرابنجا. يدفعه ميروسلاف دفعة رقيقة. يميل إلى الأمام، يقبض على مقابض الكرنك، يديرها دورة تجريبية، على أمل أن تعمل الأداة الغريبة وحدها.

بالطبع لن يستخدمها أبدًا، ستذهب إلى المخزن في ممر كنستون حيث يتكوم عليها الغبار، كل ما وضعه آل يوكتش فيها من وقت وجهد بلا طائل. هل يعرفون ذلك؟ هل كانوا يعرفون ذلك طوال الوقت وهم يصنعونها؟ هل هذا الدرس في القيادة جزء من طقس يمارسونه جميعًا، هو من أجلهم، وهم من أجله؟

يهب النسيم على وجهه. يتخيل لحظة أنه يلف في طريق مَجيل، والعلم يرفرف فوق رأسه بتألق ليذكر العالم بأن يرحموه. أشبه ما تكون بعربة طفل: عربة طفل فيها طفل عجوز أشيب، خرج لقيادتها. كم سيبتسم المُتفرِّجون! يبتسمون ويضحكون ويُصفِّرون: رائع، يا جد!

لكن ربما، من منظور أكبر، ذلك بالضبط ما يقصد آل يوكتش أن يُعلِّموه إياه: عليه أن يتخلى عن مظهره الوقور، ويظهر على حقيقته، شخصية هزلية، جنتلمان عجوز بساقٍ واحدة حين لا يعرج على عكازيه يطوف الشوارع على دراجة بثلاث عجلات، صناعة منزلية. مشهد محلي، نمط غريب يضفي لونًا على النسيج الاجتماعي. حتى يأتي يوم يطلق فيه واين بلايت محرِّكه وراءه مرة أخرى.

لم يبرح ميروسلاف جانبه. الآن يغير ميروسلاف اتجاه الآلة في قوس واسع ليتمكنا من العودة إلى الطريق.

تشبِّك إليزابيث كُسْتِلُّو يديها؛ يحذو الآخرون حذوها. تقول: رائع، فارسي! فارس الهدوء الكئيب.

يتجاهلها. يقول: ماذا تعتقدين، ماريانا؟ هل أشرع في قيادة الدراجات من جديد؟

لم تكن ماريانا قد تفوهت بكلمة طوال الوقت. تعرفه ماريانا أفضل مما يعرفه زوجها، أفضل مما تعرفه إليزابيث كُسْتِلُّو. رأت منذ البداية كيف ناضل ليصون كرامته ورجولته، ولم تسخرْ منه أبدًا. ماذا تعتقد ماريانا؟ هل عليه أن يواصل خوض المعركة من أجل الكرامة أمْ آن أن يستسلم؟

تقول ماريانا ببطء: أيوه. تناسبك. أعتقد أن عليك أن تجربها مرة.

تمسك ماريانا ذقنها بيدها اليسرى؛ بيدها اليمنى تسند كوعها الأيسر. الوضع الكلاسيكي للتفكير، للتأمل الناضج. أعطت سؤاله التقدير الكامل، ثم قدمت الإجابة. المرأة التي ما زال يشعر بلمسة شفتيها على خده، المرأة التي، لأسباب لم تكن واضحة أبدًا بالنسبة له، مع أنه من وقت لآخر يشعر بوميض من النور، تسيطر على قلبه، فباح.

يقول: حسن إذن (كان على وشك أن يقول، حسن إذن حبي، لكنه يمسك لسانه؛ لأنه لا يريد أن يؤذي ميروسلاف، مع أن ميروسلاف يعرف بالضرورة، ليوبا تعرف بالضرورة، بلنكا تعرف بالتأكيد، فكل ذلك مكتوب على وجهه)، حسن إذن، أجربها مرة. شكرًا لكم. بكل الإخلاص، بكل ما في القلب من إخلاص، شكرًا لكم، لكل واحد منكم. والشكر الأوفى لدراجو الغائب. كان يود أن يقول: الذي أسأت الحكم عليه، وأخطأت في حقه. يقول: الذي أسأتُ الحكم عليه وأخطأتُ في حقه.

يرد ميروسلاف: لا تقلق، سنضعها على مقطورة وقد نحضرها في نهاية الأسبوع القادم. لم يَتبقَّ سوى شيئين اثنين، الكابلات وذلك الشيء.

يلتفت إلى إليزابيث. يقول: الآن يجب أن ننصرف، أليس كذلك؟ وإلى ميروسلاف: يمكن أن تعطيني يدك؟

يساعده ميروسلاف.

تقول ليوبا: ب. ر. إكسبرس. ماذا تعني ب. ر. إكسبرس؟

وفي الحقيقة كان هذا هو المكتوب بالألوان على هيكل الدراجة ذات الثلاث عجلات، بحروف توحي فنيًّا باندفاع الريح. ب. ر. إكسبرس.

يقول: تعني أني أستطيع السير بسرعة كبيرة. ب. ر. الرجل الصاروخ.

تقول ليوبا: رجل صاروخ. تبتسم له، الابتسامة الأولى له في حياتها. لستَ الرجل الصاروخ، أنت الرجل البطيء! وتنفجر مقهقهة، معانقة «وركي» أمها، وموارية وجهها.

يقول مخاطبًا إليزابيث: كارثة. إنهما في التاكسي، باتجاه الجنوب، باتجاه البيت. نكسة، نكسة أخلاقية، لا شيء أقل. لم أخجل من نفسي أبدًا على هذا النحو.

– نعم، لم تظهر بشكل جيد. كل ذلك الغضب! كل تلك الاستقامة!

ذلك الغضب؟ عن أي شيء تتحدث؟

تواصلُ: فكِّرْ فقط، كنْتَ على وشك أن تفقد ابنك الروحي، ولأي سبب؟ لا أصدق. بسبب صورة فوتوغرافية قديمة! صورة فوتوغرافية لمجموعة من الغرباء. لا يهتمون بك إطلاقًا. بولدٍ فرنسي لم يُولَد بعد.

يقول: من فضلكِ، من فضلكِ كَفَى مناقشات، لم أَعُد أحتملكِ. لا أفهم حتى الآن ما الذي يعطي دراجو الحق في الاستيلاء على صوري الفوتوغرافية، لكن انتهى الأمر. تخبرني ماريانا بأن الصور على موقع دراجو على الإنترنت. أنا ذلك الجهول. ماذا تعني أن تكون على موقعه على الإنترنت؟

– يعني أن أي شخص في العالم لديه فضول للاطلاع على حياة دراجو يستطيع الاطَّلاع على هذه الصور، في شكلها الأصلي وربما في شكلها الجديد المنقَّح والمزيد، في مكانه الخاص في بيته. أما السؤال عن سبب اختيار دراجو طبعها بهذه الطريقة، فلستُ الشخص المناسب لطرح هذا السؤال عليه. سيأتي الأحد القادم ليحضر لك الدراجة. وآنذاك يمكن أن تسأله.

– تدَّعي ماريانا أن عملية التزوير برمتها مجرد نكتة.

– ليستْ حتى تزويرًا. المزوِّر يزوِّر فلوسًا. دراجو لا يبالي بالفلوس. بالطبع مجرد نكتة. أي شيء آخر يمكن أن تكون؟

– ترتبط النكات باللاوعي.

قد ترتبط النكات باللاوعي حقًّا. لكن أيضًا؛ النكتة أحيانًا مجرد نكتة.

– مُوجَّهة ضد ...

– مُوجَّهة ضدك. ضد أي شخص؟ الرجل الذي لا يضحك. الرجل الذي لا يحتمل نكتة.

– لكن ماذا لو لم أكتشفها أبدًا؟ ماذا لو ذهبتُ إلى القبر في جهل تام من أمر هذه التي تدعى نكتة؟ ماذا إن لم تُلاحَظ النكتة في مكتبة الولاية أيضًا؟ ماذا لو لم تُلاحَظ حتى نهاية الزمن؟ انظروا إلى هذه الصور يا أطفال. حفَّارُو بلَّرات. انظروا إلى هذا الشخص ذي الشارب الرهيب! وماذا بعد؟

– سيصبح جزءًا من الفلكلور عندنا أن شوارب قُطَّاع الطرق كانت مُوضة في خمسينيات القرن التاسع عشر في ولاية فيكتوريا، هذا كل ما في الأمر. وهو حقًّا موضوع لا يستحق أن تنشغل به بول. المهم أنك غادرْتَ شقتك وزُرتَ منو بارا، ودار بينك وبين محبوبتك ماريانا حديث خاص ورأيتَ قناع تربية النحل على رأس زوجها والدراجة التي يصنعها ابنها لك. تلك هي النتيجة المُهمَّة فيما يسمى بالتزييف. باستثناء ذلك، الحدث بلا أهمية تمامًا.

– نسيتِ النسخة المفقودة. بصرف النظر عن رأيك في الصور الفوتوغرافية وعلاقتها بالواقع، الحقيقة أن إحدى صور فوشي التي بحوزتي، كنز قومي أصيل، لا يُقدَّر بمال، اختفتْ.

– صورتك الفوتوغرافية الثمينة لم تختفِ. انظرْ في خزانتك مرة أخرى. ألف في المائة ستجدها هناك، في غير موضعها. أو سيجدها دراجو في أشيائه ويعيدها إليك الأحد القادم، مع الاعتذار.

– ثم؟

– يُغلَق الموضوع.

– ثم؟

– بعد ذلك؟ بعد الأحد؟ لستُ متأكدة من أي شيء آخر بعد الأحد. قد يشهد الأحد آخر تعاملاتك مع آل يوكتش، بما فيهم مسز يوكتش. لن تكون مسز يوكتش للأسف إلا ذكرى. عن سمانتيها البضتين. عن الخط الساطع لصدرها. عن إساءة استخدامها للكلمات بصورة فاتنة. ذكرى مُظلَّلة باللوعة، تشحب بمرور الزمن، ككل الذكريات. الزمن أعظم المعالِجين. وستبقى هناك فواتير ربع سنوية من ولنجتون كولج. وليس لديَّ شك في أنك ستدفعها كرجل شريف. وكروت الكريسماس: نتمنى لك كريسماس سعيدًا وعامًا جديدًا مزهرًا؛ ماريانا، مِلْ، دراجو، بلنكا، ليوبا.

– أفهم. هل هناك من مزيد تَهتمِين بكشفه عن مستقبلي، مسز كُسْتِلُّو، وأنتِ في هذه الحالة النبوية؟

– تقصد، هل هناك من تَحلُّ مكان ماريانا أم ستكون ماريانا نهاية الخيط بالنسبة لك؟ ذلك يعتمد. إن بقيتَ في أدليد، أتنبأ بممرضات ليس إلا، واحدة جميلة، واحدة لا بأس بجمالها، لا واحدة منهن ستقترب لتمس قلبك كما مسته ماريانا يوكتش. ومن ناحية أخرى، إن أتيت إلى ملبورن، سأكون أنا، دوبين العجوز الوفية. مع أن سمانتي، كما أتوقع، لا تتفقان تمامًا مع ذوقك.

– وماذا عن حالة قلبكِ؟

– قلبي؟ أحيانًا فوق وأحيانًا تحت. يدق ويلهث كسيارة قديمة حين أصعد السلم، أتجرأ وأقول لن يستمر طويلًا. لماذا تسأل؟ تخشى أن تصبح الشخص الذي يقوم بالتمريض؟ لا تخشَ أبدًا لن أطلب منك القيام بذلك.

– أليس الوقت المناسب لاستدعاء ابنيك؟ أليس الوقت المناسب ليفعل ابناكِ شيئًا من أجلك؟

– ابناي بعيدان بول، عبر البحار. لماذا تذكر ابنيَّ؟ هل تريد أن تتبناهما أيضًا، تصبح زوج أمهما؟ سيثير ذلك دهشتهما بلا نهاية. لم يسمعَا حتى بك.

– لكن لا، إجابة على سؤالك، لا أفكر في أن أفرض نفسي على ابنيَّ. ألتحق بدار للرعاية إن فشل كل شيء آخر. مع أن الرعاية التي أبحث عنها لا توجد، للأسف، في أي دار من دور الرعاية التي أعرفها.

– أي نوع من الرعاية تقصدين؟

– رعاية الحب.

– نعم، مِن الصعب وجودها في هذه الأيام، رعاية الحب. قد يكون عليكِ الرضا بتمريض جيد ليس إلا. يوجد شيء من قبيل التمريض الجيد، تعرفين. يمكن أن تكون الممرضة جيدة بدون أن تحب مرضاها. فكِّري في ماريانا.

– هذه نصيحتكَ إذن: أن أرضى بتمريض. لا أوافق. إذا خُيِّرْتُ بين تمريض جيد ويدين مُحبَّتَين، اخترتُ اليدين المُحبَّتين في أي يوم.

– حسن، ليس لي يدان مُحبَّتان، إليزابيث.

– لا، ليس لكَ، لا يدان محبتان ولا قلب محب، القلب المختبئ هو ما أدعوه، كيف نُخرِج قلبَكَ من مخبئه؟ هذا هو السؤال — تتشبث بذراعه — انظرْ!

يتتابع ثلاثة أشخاص على موتوسيكلات مُسرِعة، في الناحية الأخرى، باتجاه منو بارا.

تَتنهَّد: الشخص الذي يلبس خوذة حمراء، ألم يكن دراجو؟ آه للشباب! آه للخلود!

ربما لم يكن دراجو. هناك مُصادَفات كثيرة جدًّا، مَحض مصادَفات. ربما ثلاثة شبان لا علاقة لهم ببعض، مع أن الدماء تتدفق في عُروقهم بالتساوي. لكن ليفترضا مع ذلك أن الشخص الذي يلبس الخوذة الحمراء كان دراجو. يكرر بالإحساس بالواجب: آه دراجو، آه للشباب!

يصل بهما سائق التاكسي إلى ممر كنستون أمام شقته.

تقول إليزابيث كُسْتِلُّو: هكذا. نهاية يوم طويل.

– نعم.

عليه في هذه اللحظة أن يدعوها للدخول، يعرض عليها وجبة ومكانًا للنوم، لكنه لا يَتفوَّه بكلمة.

تقول: الهدية المناسبة فقط، دراجتك الجديدة. دراجو عميق التفكير. يا له من ولد عميق التفكير. الآن أنت حُرٌّ في قيادة الدراجة حيث تشاء. يمكن أن تكتفي بطريق النهر

إن كنت لا تزال قلقًا من واين بلايت، ستكون بمثابة تمرين، سَتتحسَّن حالتك المزاجية، سيقوى ذراعاك في أسرع وقت. هل تعتقد أن هناك مكانًا لراكب؟

– هناك مكان لطفل خلف السائق، نعم. وليس لشخص يافع.

– مُجرَّد مزاح بول. لا أريد أن أكون عبئًا عليك. إذا كان لي أن أركب دراجة فسآتي لي بدراجة، والأفضل أن تكون بمحرِّك. هل ما زالوا يبيعون تلك المحرِّكات الصغيرة التي تثبتها في الدراجات التي تسير رويدًا رويدًا وتساعدك في صعود الهضاب؟ كانت موجودة في فرنسا، أتذكر. دو شيفو، حصانان.

– أعرف ما تقصدين، لكنها لا تسمى دو شيفو. دو شيفو شيء آخر.

– أو كرسي حمَّام. ربما يكون هذا ما يجب أن أحصل عليه. هل تتذكر كراسي الحمام، النوع الذي له مظلة بشراشيب وقضيب للتوجيه؟ يمكن أن نبحث في محلات التحف، أنا متأكدة من أننا سنجد واحدًا، أدليد مكان لكرسي الحمام ليس إلا. يمكن أن نطلب من ميروسلاف أن يثبت حصانين[١] له. وسنكون على استعداد للخروج لمغامراتنا، أنا وأنت. لديك بالفعل عَلَمك البرتقالي الرائع وسأحصل لنفسي على علم آخر، رائع.

– ماذا عن القبضة الحديدية؟ قبضة حديدية بالأسود على حقل أبيض، وتحتها شعار مليوس ملفيكورم.

– مليوس ملفيكورم. رائع! تتحول حقًّا إلى حكيم بول. مَن كان يتوقع ذلك منك؟! مليوس ملفيكورم من أجْلي ومن أجْلك إلى الأمام وإلى أعلى. يمكن أن نجوب الأرض كلها، نحن — الاثنين — كل هذه الأرض البنية الشاسعة، شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا. يمكن أن تُعلِّمني العناد ويمكن أن أُعلِّمك العيش بلا شيء، أو بلا شيء تقريبًا. سيكتبون عنَّا مقالات في الصحف. يمكن أن نصبح مؤسَّسة أسترالية محبوبة تمامًا. يا لها من فكرة! يا لها من فكرة عظيمة! هل هذا هو الحب بول؟ هل وجَدْنا الحب في النهاية؟

منذ نصف ساعة كان مع ماريانا. وماريانا وراءهما الآن، وقد تُرِك مع إليزابيث كُسْتِلُّو. يلبس نظارته مرة أخرى، يَلتفتُ، يلقي عليها نظرة دقيقة. في ضوء الأصيل الواضح يرى كل التفاصيل، كل شعرة، كل عِرْق. يفحصها، ثم يفحص قلبها. يقول أخيرًا: لا، هذا ليس حبًّا. هذا شيء آخر. شيء أقل.

– هذه كلمتك الأخيرة، هل تعتقد ذلك؟ لا أمل في زحزحتك؟

---

[١] بالفرنسية في الأصل.

– لستُ خائفًا.

– لكن ما أفعل بدونك؟

تبدو وكأنها تبتسم، لكن شفتيها ترتجفان بشدة.

– براحتك، إليزابيث. في المحيط أسماك كثيرة، هذا ما أسمعه. وبالنسبة لي حاليًا: بالسلامة. يميل إلى الأمام ويقبلها ثلاث مرات بالطريقة التقليدية التي تعلمها وهو طفل، يسارًا يمينًا يسارًا.

هنـــداوي